فى المعركة

جذور المعركة

سعد التائه

وزارة الثقافة
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

في المعركة

جذور المعركة

بقلم

سعد التائه

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

الإهداء

.. الى الشعب العظيم

.. الى الشعب الذى انساب كقطرات الماء من كل مكان .. فاذا به موجة .. ثم قطرات.. وقطرات .. وأمـــواج .. وأمواج .. وتدفق هادرا .. ، فى القاهرة والجزائر ودمشق وبغداد وبيروت وعمان والخرطوم .. هاتفا « ناصر .. ناصر »

.. الى كل طفل انسكبت دموعه .. الى كل امرأة بكت .. الى كل شيخ وشاب ترقرقت عيناه .. هاتفين « ناصر .. ناصر »

.. الى الشعب العظيم

.. الى أبطاله .. الى شـــهدائه .. الى الفدائيين ..

الى كل من يبذل قطرة دم ، من أجل الغد .. من أجل مستقبل أطفالنا ..

القاهرة ١٥ يوليو ١٩٦٧

الفصل الأول

« الحرية تتطلب أكثر من الموت ..
تتطلب أن يهبها الانسان كل لحظاته،
كل قواه .. »

جورج أمادو

الفرد والتاريخ

فشلت مؤامرة العــدوان الــلاثى عام ١٩٥٦ ، فى تحقيق أهدافها ·· ولم يسقط الحــكم الوطنى ، ولم يذهب عبد الناصر ·· بل خرجت مصر وعبد الناصر أقوى وأعنف في قدرتهما ··

وفى عام ١٩٦٧ ، فشــل العـــدوان الأمريكى الانجليزى الصهيونى فى تحقيق أهدافه ·· ولم يسقط عبد الناصر ·· ولم ينته الحكم الوطنى ·· وتواجه أمريكا عداء كل العرب ، وتعانى أوروبا أعنف أزماتها الاقتصادية ، وتلقى اسرائيل غضب وسخط العالم · وبقى عبد الناصر شامخا يرفعه شــعبه الى أســمى صور الانسان ، تحوطه الجماهير ، وتحميه قوى الشعب ، ويلتف حوله العرب وتؤيده قوى السلام فى العالم ·

لماذا عبد الناصر ؟

لماذا هتفت الجماهير من الخليج الى المحيط ·· « ناصر ·· ناصر ·· »

ولماذا أيدت شعوب السلام فى العالم « ناصر » ·

ولماذا ·· هذه الأمواج الهادرة باسم « ناصر » ·

ولماذا ؟

لماذا هلل الاستعمار الأمريكى والانجليزى عندما سمعوا أن « ناصر » تنحى ··

لماذا يقول بن جوريون ، « أن لا سلام فى الشرق العربى طالما بقى عبد الناصر ‥ »

لماذا قالت الصحف الانجليزية ؟ ولماذا تطالب أبواق الدعاية الاستعمارية بزوال « ناصر » وانتهاء « الناصرية » ؟

هل يحمل الفرد كل هذه الثورة ؟ هل يمكن أن يكون « الفرد » معركة توجه لها الأساطيل والبوارج والطائرات ، وكل ما خلقه العقل الشرير من أدوات الخراب والتدمير ؟

نعم ، قد يكون « الفرد » معركة ‥ لأنه يقوم بدور يهز التاريخ ‥ ويدفع التطور ‥ ويرفع ارادة الانسان لتغيير مصيره ضد قوى العدوان ٠

***

ان ثورة ١٩٥٢ امتداد لثورة عرابى عام ١٨٨٢ ‥ وعبد الناصر امتداد للثائر الفلاح أحمد عرابى ‥ ونفس الأسلوب والمؤامرات والحقارات التى واجهها عرابى من الاستعمار القديم ، يواجهها عبد الناصر من الاستعمار الجديد وعملائه وأعوانه ٠

ولكن التاريخ لا يعيد نفسه ، بل ينطلق الى الأمام ، مع ركب الحضارة وتطور الانسان ٠

ودروس الماضى هى أسلحة الحاضر ‥ وعبرة الثورات تشعل النيران ضد أعداء الانسان ٠

ان ما تواجهه ثورتنا اليوم ، واجهته الثورة العرابية منذ قيامها ، وتواجهه كل الثورات الوطنية حتى يومنا ٠

واجهت الثورة العرابية منذ قيامها ، محاولات لاغتيال زعماء الثورة ‥ ومناورات من الاستعمار التركى ومؤامرات من الاستعمار الانجليزى ‥ وخيانة من الاقطاع والرجعية فى الداخل

٠٠ وطعنا فى قدرة القوى الوطنية ، على ممارسة الحكم وتولى مسئولياتها ٠٠ ونشروا الاشاعات الكاذبة ضد أحمد عرابى ورفاقه ٠٠ واستغل الاستعمار ايمان الشعب المصرى بدينه ، وروجوا الأكاذيب عن خروج عرابى عن الدين ٠

بدأت الثورة المضادة ضد عرابى ورفاقه بالقبض عليهم ، وسجنهم فى قشلاقات قصر النيل ٠٠ وفشلت المؤامرة بهجوم قوات الجيش على وزارة الحربية والافراج عن القادة ٠

وأوعز قنصل بريطانيا الى الخديو توفيق بقتل عرابى فى ميدان عابدين يوم ٩ من سبتمبر ٠٠ ولكن الخديو أصيب بالذعر والجبن ولم يقدر على تنفيذ مؤامرة قتل عرابى وهو وسط ضباطه وجنده ٠٠

ودبرت مؤامرة لقتل عبد العال حلمى ، ودسوا له السم فى اللبن ، وترددت اشاعة عن اصدار فتوى تبيح دم عرابى ورفاقه ٠

وحاول الخديو توفيق استمالة الضباط والجنود الى جانبه وأغراهم بالأموال والمناصب ٠٠ واعترف جندى تركى وأميرالاى تركى بأنهما يقومان بتحريض واثارة جنود الجيش المصرى ضد عرابى وزعماء الثورة ٠٠

وقبل العدوان الانجليزى على مصر بشهرين ، حاول الضباط الأتراك فى الجيش القيام بانقلاب عسكرى وقتل عرابى وكبار العسكريين الوطنيين والوزراء ٠٠ وانكشفت المؤامرة ، وألقى القبض على أربعين ضابطا ٠٠

وقابل عرابى ورفاقه ، كل هذه المؤامرات ومحاولات الاغتيال بشجاعة وصبر ، فلم يحاولوا الرد على محاولات اغتيالهم بالارهاب أو القتل الجماعى كما يحدث عادة فى الثورات ٠٠

وحاولت قوى الاستعمار التخلص من عرابى برشوته ·· وعرض آل روتشيلد عليه مرتبا سنويا قدره أربعة آلاف جنيه ، كما عرضت عليه الحكومة الفرنسية مرتبا سنويا آخر قدره ستة آلاف جنيه فى مقابل أن يترك مصر ·

وعندما وصلت وحدات الأسطول الفرنسى والانجليزى الى الاسكندرية عرض قنصل بريطانيا على محمود سامى وعرابى وثلاثة قواد آخرين أن يوافقوا من تلقاء أنفسهم على ترك مصر نظير معاش سنوى واحتفاظهم بألقابهم ·

·· كل هذه المحاولات كشفت مدى الزعامة الحقيقية التى كان يتمتع بها أحمد عرابى ورفاقه ، كما كشفت ادراك قوى الاستعمار والرجعية لثورة عرابى فى قيادة الحركة الوطنية ·

وخلال العدوان أصدر سلطان تركيا بعد الاتفاق مع الانجليز فتوى « عصيان عرابى » ، والعصيان على السلطان فى ذلك الوقت وهو خليفة المسلمين ـ معناه أن « عرابى » خارج عن الدين ، ووجه الانجليز والخديو تهمة الكفر والالحاد الى كل جندى لا يترك صفوف عرابى ·

وواجهت الثورة العرابية هجوما لا يقل عن الهجوم الذى واجهته قيادتها ، فكان القنصل البريطانى يبعث بتقارير الى الخارج يصف فيها حالة مصر ، ويدعى أن الفوضى تسودها منذ تولت الحكومة الوطنية الحكم ·

كما أخذ أعضاء الرقابة وصندوق الدين والموظفون الانجليز يرددون مع أنصار الخديو الطعن فى الحكم الوطنى ويتباكون على الحرية ، وكتب مستر كوكسن عن الثورة العرابية قائلا « ان مايتظاهرون به من طموح الى العدل والحرية قد انتهى بأن حلت سلطة الجيش الغاشمة محل كل سلطة مشروعة » ·· وكتب عن

« الاضطراب والفوضى السائدين فى الأقاليم » ووصف السير أوكلند كلفن نظام الحكم الذى أقامته الثورة بأنه « هو بأسره تحت سيطرة جيش متمرد ظافر » .

.. وترددت الاشاعات وأبواق الخيانة والدعاية ، تتحدث عن المحسوبية والرشوة والتبذير .. والحكم المطلق ، والفساد ..

وذرفت قوى الرجعية والاستعمار دموع التماسيح على حال مصر .

وساهمت الصحافة الرجعية فى الداخل بدورها فى الثورة المضادة ، وأطلقت جريدة « الأهرام » على عرابى لقب « العاصى » ، ورد عليهم عبد الله النديم ، فأخرج ملحقا خاصا من جريدته جعل عنوانه « سليم وبشارة تقلا وتوفيق باشا » ، وهجا فيه الصحافة المأجورة المتقلبة بأسلوب مقذع صارخ ..

كانت خطة الاشاعات والمفتريات تهدف الى اثارة الرأى العام على الوزارة الوطنية ، واعداده لقبول التدخل الأجنبى ، والرضا بالاحتلال الانجليزى .

وقام أصحاب البنوك ورجال المال فى أوروبا يطالبون حكوماتهم بالتدخل ، ورد أحمد عرابى على تهديداتهم بقوله :

« أما عما يتهددنا به كبار أصحاب المصارف ورجال المال فى أوروبا ، فانا سنحمل ذلك فى ثبات وحكمة ، ففى رأينا أن ذلك الوعيد لن يضر الا أنفسهم . وأنه ليؤذى تلك الدول التى يضللونها» .. ولكن المسألة لم تكن أصحاب المصارف فان رجال الدولة والحكومات الاستعمارية هم أنفسهم رجال المال .. وصرح غمبتا رئيس وزراء فرنسا بأنه « يعارض أشد المعارضة ، فى أى تدخل من المجلس النيابى فى أمر الميزانية » .

وهكذا كشف « غمبتا » أن بكاءهم على مصر لم يكن هدفه

الا استمرار اســـتغلالهم واستنزافهم لأموال الفلاحين والوطنيين ونهب ميزانية الشعب المصرى ٠

وهنا نسأل ٠٠

لماذا كان هدف الاستعمار عام ١٨٨٢ هو القضـــاء على أحمد عرابى نفسه ، واثارة الاشاعات حوله ، والهجوم عليه شخصيا ، والطعن فى نزاهته ، والتشكيك فى دينه ؟ وهـــل معنى ذلك أن القضاء على أحمد عرابى ، كان معناه وقف سير التاريخ وحتمية الصراع ؟

ما من قوة تستطيع أن تغير القوانين الموضوعية ، فالصراع الذى قام فى عام ١٨٨٢ بين قوى الشعب الوطنية وقوى الرجعية والاستعمار كان صراعا حتميا ، وضرورة أملتها ظروف العالم فى ذلك الوقت ، كما أملتها حاجات الشعب المصرى ومطالبه ٠٠ هذه هى قوانين التطور ٠

واذا انسجم الناس مع قوانين التطور بعد أن يعوها تحققت حريتهم كاملة ٠ اذ تغدو الحـــرية ضرورة واعية ، ومن ثم يغـذ التاريخ سيره الصحيح ، ويمكن أن يصل التطور الى أهدافه بأسرع مايمكن ، وبأقل مايمكن من التضحيات والمآسى والفواجع ، وعندما يقف بعض النـــاس فى وجه هـــذه القوانين وعندما يتعذر الى حين العثور على من يســـتجيب لمتطلبات العصر ، فلا شىء يغير من خط التطور ، ولكنه قـــد يتأخر من الوجهة الزمنية ، ولكن ما من قوة تســـتطيع أن تغير القوانين الموضـــوعية ، فهى حتمية لازمة تمليها ضرورة لا يمكن مقاومتهـــا ، ولكن هـــذه الضرورة لا تعنى أبدا أن التطور يتم من تلقاء نفسه ، فان ارادة الانسان والجماهير تؤدى دورها فى تغذية سير التاريخ ٠

والرجل العظيم هو الذى يستجيب لمتطلبات العصر ويؤدى مايجب عليه نحو التطور ٠

وهكذا كان « أحمد عرابى » ٠

وحاول الاستعمار بمؤامراته واشاعاته وتجميع قوى الرجعية والخيانة أن يتخلص من أحمد عرابى ليؤخر ويعطل التطور وسير التاريخ للشعب المصرى ٠

ووصل الاستعمار الى أهدافه عام ١٨٨٢ بالعدوان البريطانى وخيانة الرجعية والاقطاع ، ونفى عرابى ٠

ولكن ثورة ١٩٥٢ ليست فى بساطة وسهولة غيرها من الثورات ، انها الثورة التى أحدثت منعطفا فى سير التاريخ ، وهى اليوم تقفز بالتاريخ عشرات السنين الى الأمام ٠

وعبد الناصر ، ليس أحمد عرابى ، وليس « مصدق أو لومومبا أو نكروما » ٠٠ انه نهرو وأنديرا وكاسترو وسيكوتورى ونيريرى وبومدين وعارف والأتاسى والسلال وأيوب خان وهوشى منه ٠

ان عبد الناصر ، وان كان امتدادا لأحمد عرابى ، الا أنه عملاق الثورة الوطنية فى طريقها الى الاشتراكية ٠

كنا أيام عرابى ، فى ظرف تاريخى مختلف ٠٠ كان الاستعمار فى عنفوان قواه وفى خط صعوده ٠

واليوم يدخل الاستعمار مرحلة انهياره ٠٠ فاذا كانت ١٥ دولة قد انتزعت استقلالها فى السنوات العشر الأولى بعد الحرب العالمية الثانية ، فان ٣٥ دولة قد انتزعته فى الفترة من عام ١٩٥٦ ــ ١٩٦٣ ٠٠ واذا كان عدد سكان المستعمرات ثلثى سكان

الكرة الأرضية فى عام ١٩٤٥ فانه حتى نهاية عام ١٩٦٣ بقى فى سلاسل العبودية الاستعمارية مايزيد بقليل عن ٤٠ مليون شخص ، أى أكثر بقليل من ١٪ من سكان الأرض ٠

وكنا أيام عرابى وحدنا وسط قوى الطغيان الغاشم ٠

أما اليوم ، فان أصلب شعوب العـــالم معنا ٠٠ بتأييدها السياسى ٠٠ وقواها الاقتصادية ٠٠ وتفوقها العسكرى ٠

ان الشعوب الاشتراكية ، وشعوب العالم الثالث والشعب العربى كله ، بكل الأسلحة النووية وأسلحة البترول والتضامن العالمى ٠٠ كل هذا معنا ٠٠

والشعب العربى فى مصر ٠٠ وفى العالم العربى كله وقف حائلا بين قوى الطغيان وبين الرجل العظيم ٠

ان الشعب يحمى قائده ٠٠ ولن يعود الى الوراء ٠

الفصل الثانى

« ولدى الصغير يسألنى ، هــل
أتعلم التاريخ ؟

وتحــدثنى نفسى أن اقول ، وما
الداعى ؟

تعلم كيف تخفى راسك فى التراب
فربما بقيت حيا

غير انى أعود فاقول له :

نعم يا ولدى

تعلم التاريخ . »

برتولت برخت

بين استعمارين

وقعت أحداث الثورة العرابية فى عام ١٨٨٢ .. بعد ثلاث أزمات للنظام الرأسمالى فى أوروبا ، فقامت الثورة العرابية لمواجهة الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية ، وكانت هذه المرحلة من حياة الاستعمار تقوم أساسا على تصدير رءوس الأموال الى الخارج لابتزاز الأرباح من عرق وجهد الشعوب ، حتى يمكن للنظام الرأسمالى موجهة الأزمات التى تخنقه فى الداخل ..

كانت هذه الفترة هى مرحلة النمو الاستعمارى ..

غزت فرنسا شمالى افريقيا ، واحتلت تونس عام ١٨٨١ ثم مراكش عام ١٩١١ .. واحتلت السودان الفرنسى عام ١٨٨٧ ..

وقامت انجلترا بانشاء مستعمراتها الافريقية خلال نفس الفترة .. فاحتلت نيجيريا عام ١٨٥١ .. وبدأت عملياتها الحربية فى جنوبى أفريقيا عام ١٨٩٤ .

وكانت الدول الرأسمالية الاستعمارية تترقب وفاة « الرجل المريض » ، كما كانوا يطلقون على تركيا ، ليرثوا التركة فى سوريا والعراق ولبنان .. وتم لهم ذلك فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ..

انها فترة زمنية رهيبة .. بدأت منذ أراد محمد على أن يقيم صناعة فى مصر ، ويدخل بالشعب المصرى مرحلة البناء الرأسمالى،

ووجدت الرأسمالية الغربية فى هذا المنافس خطرا ·· انه يستطيع بموقعه الجغرافى أن يسد عليهم الطريق الى مستعمراتهم فى آسيا ، ويستطيع أن ينافسهم ببضائعه وصناعاته فى أسواقهم ··

وكانت خطوتهم الاولى هى التخلص من هذا المنافس الجديد ، وضرب الدولة الصناعية الناشئة · وتم التحالف بين دول أوروبا الرأسمالية للوقوف فى وجه محمد على ·· وكانت معركة « نفارين » البحرية ، واستسلم محمد على ، وقضى على آمال الشعب فى أن يدخل مرحلة التطور الصناعى الذى سبقته اليها أوروبا ، وعادت مصر الى الوراء درجات من التخلف بعد أن أغلق محمد على المصانع وشرد العمال وأوقف البعثات الى الخارج وخفض عدد قوات الجيش ، وعادت مصر الى حياتها الزراعية ، حياة التخلف ، وانطفأ نور الأمل الى المستقبل ··

وكان من آثار هذه الخطوة التى تراجعت اليها مصر ، أنها جعلت الهوة سحيقة بين تقدم أوروبا الصناعى وتخلف مصر الزراعى ، ولم يبق أمام الدول الاستعمارية الا ترقب الظروف لاحتلال مصر ··

أمس ·· واليوم ··

·· لم يكن ما حدث فى مصر أثناء الثورة العربية الا صورة لما تكرر فى المستعمرات ·· ولهذا لا بد من القاء نظرة جديدة على تطورات هذه الثورة ، وأحداثها ··

ورثت الثورة العرابية تركة ثقيلة ، « صراع بين فرنسا وانجلترا على احتلال مصر · تماما » ، كما حدث عام ١٩٥٢ ، عندما كان الصراع على أشده بين انجلترا وأمريكا للسيطرة على منطقة الشرق الأوسط ··

وارتفعت أصوات فى مصر تنادى بالارتماء فى أحضان انجلترا لصد تغلغل فرنسا ورغبتها فى السيطرة ، وكان الخديو اسماعيل فى هذا الجانب .

وارتفعت أصوات تنادى بأن فرنسا هى القوة التى يمكن الاعتماد عليها للوقوف ضد جشع انجلترا ورغبتها فى احتلال مصر ..

وغفل أصحاب الاتجاهين ، أن فرنسا وانجلترا فى ذلك الوقت كانتا تمثلان سياسة رجال الأعمال والرأسماليين ، وأن الهدف من مناوراتهما هو استعمار مصر واستغلال شعبها وسرقة ثروته لنقلها الى جيوب الرأسماليين فى بلديهما ..

انها نفس القصة التى تتكرر اليوم .. فانجلترا وأمريكا عام ١٩٥٦ ، لم يختلفا على ذبح الفريسة ، ولكنهما اختلافا على طريقة الذبح ، لينفرد كل منهما بالتهام الوليمة وحده .

وكان الموقف أيام الثورة العرابية يختلف تماما عن الموقف اليوم ..

ففى عام ١٨٨٢ . لم تكن هناك دول اشتراكية أو دول العالم الثالث ، ولذلك انفرد الاستعمار بالعمل والسيطرة ، واستغل قوته لتنفيذ أهدافه وأغراضه ..

أما اليوم ، عام ١٩٦٧ ، فالعالم قد تغير ، والاستعمار فى مرحلة انهياره ، والرأسمالية تتلقى الضربات القاتلة فى كل مكان من العالم ..

ولم يحدث فى تاريخ الاستعمار ، أن كشف عن نفسه ، وأعلن أنه قادم لاستنزاف ثروة شعب من الشعوب .. تسرب الى الهند فى شكل تجارة ، ثم بقى هناك باسم مسئولية ادخال الحضارة ..

ودخل تونس بعد أن ادعى أن الباى ضرب السفير الفرنسى بالمروحة ·· وأحال فيتنام الجنوبية الى مجزرة باسم حمايتها من العدوان الشمالى أو الشيوعية ··

ان الاستعمار الجديد ، يلجأ الى نفس الأسلوب ، ويضيف اليه مبتكرات جديدة من عالمه الجديد ، عالم أضطهاد الزنوج ، عالم جيمس بوند ، عالم الخنافس ، عالم قنابل النابالم ، عالم القتل الجماعى للنساء والأطفال فى فيتنام ··

ان أمريكا ، تتقدم بمشروعات ترومان ومشروعات ايزنهاور والنقطة الرابعة والقروض المشروطة ، ثم تأتى المفاجأة بأن ما استنزفه الرأسماليون والاحتكاريون الامريكيون من الدول النامية ، أضعاف أضعاف ما قدمته أمريكا من مساعدات ·· ولم نسمع أن أمريكا أقامت مصنعا واحدا للانتاج ، أو تطوير الصناعة فى البلاد النامية، ولكنها تقدم الكوكاكولا وأفلام رعاة البقر ··

اللصوص الرأسماليون ··

ان مدخل الاستعمار الجديد يشبه الى حد كبير مدخل الاستعمار القديم ·· فالهدف واحد ··

ففى عام ١٨٨٢ ، عندما اندلعت الثورة العرابية ، كانت مصر تواجه تعثرات داخلية وأزمات خارجية بدأت مع مطلع القرن التاسع عشر ··

ففى عام ١٨٢١ لم يكن فى مصر ، سوى بيت انجليزى واحد لتجارة القطن فى الاسكندرية ، وفى عام ١٨٢٧ كانت هناك ٩ بيوت انجليزية تتاجر فى القطن المصرى ··

وفى فترة أزمةأوروبا ، دخل مصر ٣٠٫٠٠٠ أجنبى ·

وكما يقول مؤلف كتاب « بنوك وباشوات »

« بمجرد موت عباس ، جاء من كل بقاع أوروبا المحتالون والباحثون عن الذهب ، وتدفقوا بأعداد هائلة ، كما لو كانت مصر كاليفورنيا جديدة »

ويقول :

« ومع ذلك فقد كان انشاء قناة السويس ورواج القطن هما العاملان اللذان ترابطا فجعلا من هذا التيار اعصارا .. ففى عام ١٨٦٢ ، دخل مصر ٣٢ ألف أجنبى ، استمر فى الزيادة السنوية حتى بلغ ٨٠ ألفا عام ١٨٦٥ ، واستمر ذلك حتى انهارت أسعار القطن عام ١٨٦٦ ، فتوقف هذا الاتجاه وهبط الداخلون الى ٥٠ ألف أجنبى » .

وكما يصفهم « دافيد لاندز » مؤلف الكتاب :

« كان القادمون مجموعة انتهازية شديدة المراس خرجت لتبحث عن الثروة بصرف النظر عن كيفية جمعها .. »

ان صور الخطف والسلب والنهب والابتزاز التى مارسها الأوروبيون فى مصر خلال أيام سعيد واسماعيل ، كانت مأساة ..

أما الشركات ، فأمرها رهيب .. يقول جنكس فى كتابه « ارتحال رأس المال البريطانى » .

« الآن امتلأت البلاد بالمهندسين البريطانيين يقومون بالمشروعات وفى الاسكندرية كانت احدى شركات المقاولين الانجليز تقوم بأعمال البناء فى الميناء لقاء مبلغ ٢٫٥ مليون جنيه ، فى حين أن هذه الأعمال تكلفت حوالى ١٫٥ مليون جنيه » .

ومعنى ذلك أن شركة واحدة فى صفقة واحدة انتزعت مليون جنيه من الضرائب التى يدفعها المصريون ..

والقصة أطول وأعمق ، فهى ليست مسألة أفراد أو شركات بل هى « رأسمال » يتحرك . وكلما ضاقت السبل فى وجهه داخل بلاده ، خرج يبحث عن المزيد من الربح فى بلاد بعيدة لامتصاص دماء وحياة شعوب أخرى ..

ووجد أصحاب رءوس الأموال فى فرنسا وانجلترا أن مصر بقرة حلوب لايحلمون بمثلها.. فقدمت الشركات والبنوك الانجليزية والفرنسية القروض للخديو أســماعيل وبلغ مجموعها ٥٢ مليون جنيه ، لم يقبض منها الا ٣٥ مليونا ، أما الفرق وهو حوالى ١٧ مليونا من الجنيهات فلم يكن الا أول قطف الثمـــار . وانتقل أول أرباح القروض الى الدول الاســتعمارية لدفع شـــبح المجاعة والأزمات الرأسمالية ..

وفى مصر ، فكما قال مؤلف « مصر كما هى » الذى نشر عام ١٨٧٧ :

« كان من المحتم أن يؤخذ سنويا حوالى ٦ ملايين جنيه من دخل الدولة الذى لم يكن قد بلغ ١٠ ملايين جنيه فى العام » وذلك لسد أرباح القروض .

وبديهى أن يكون الجوع والفقر والبطالة فى كل مكـــان .. فنشرت جريدة التايمز الانجليزية عام ١٨٧٩ تعلق على الحالة فى مصر ، قائلة :

« ان الضرائب تجمع فى وقت يموت فيه النـاس على قارعة الطريق ، ومساحات من الريف لا تزرع .. والفلاحون قد باعوا ماشـــيتهم ، والنساء حليهن والمرابون يملئون مكاتب الرهون .. والمحاكم تصدر أحكام المصادرة » .

أليس هذا هو حال الشعوب فى أمريكا اللاتينية اليوم تحت سيطرة أمريكا وسطوة الماليين والاحتكاريين والعسكريين الأمريكيين؟!

كانت القروض تنهال على الخديو من الاتحاد المالى الانجليزى الألمانى والبنك الانجليزى المصرى ، ومجموعة مالية يمثلها قنصل فرنسا فى الاسكندرية ، وممثل بنك روزتشايلد ، وديرفيو الذى كان يزمع انشاء بنك للائتمان فى مصر ..

كل هؤلاء كانوا يحيطون بالخديو اسماعيل يتنافسون على تقديم القروض ، وبديهى أن كل هذه البنوك لم يكن لديها المال الذى تقدمه ، بل كانت مهمتها فى الحقيقة هى تقديم الخديو الى الرأسماليين، ورجال البنوك فى لندن وباريس ..

وخلال ذلك نشاهد الصراع بين شركات بناء السفن الانجليزية والفرنسية ، فعندمامنح الخديو اسماعيل عقود بناء السفن للشركات البريطانية ، أرسل ممثل الشركات الفرنسية الى وزير الزراعة والتجارة والأشغال العامة الفرنسى ، وهو فى نفس الوقت رئيس مجلس ادارة مسيجرى امبريال وعضو فى مجلس ادارة شركة فورج وشانيه للبحر الأبيض ، يطلب منه الاحتجاج لدى الخديو لمحاباته الشركات الانجليزية .

.. الشركات الانجليزية والشركات الفرنسية ، والبنوك : أصحاب رءوس الأموال ، كلهم يبحثون على الربح فى مصر ، وخزانة مصر مفتوحة لهم يغرفون منها بكل الوسائل الاحتيالية .

.. والمشروعات التى تقام ، ليس فيها مشروع واحد صناعى.. اما مد خطوط للسكك الحديدية .. أو تعبيد للطرق .. أو اقامة منشآت وقصور للخديو .. كل ما وراء هذه المشروعات هو توريد سلع أوروبا الى مصر وتحويل الأرباح الى بلادهم ..

كانت فائدة القروض الرســـمية تتردد بين ٧٪ و ١٢٪ أما فائدتها الحقيقية فتتردد بين ١٢٪ و ٢٦٪ ٠

ان تدفق الفائض من المصنوعات يلازمه تدفق الفائض من المال الأجنبى ٠

وتتحول الديون ، من ديون شخصية على اسماعيل الى ديون على مصر،يدفع أرباحها الفلاح من عرقه وأرضه والعامل من قوت أطفاله والشعب من دمه ٠٠

وكان وزير المالية المصرى يتحايل بشتى الوسائل والطرق فى جمع الضرائب، وارهاق التجار والفلاحين والحصول على أقصى ما يستطيع من مال ، ثم تحول هذه الأموال الى خزائن أوروبا ٠٠

ان هذه القروض ، كانت بشروط ، بعضـــها كان مضمونا بايرادات الجمارك وبعضـــها بايرادات الســـكك الحديدية ، فأخذت تتداخل خيوطها لتحبك شبكة تحيط برقبة مصر ٠٠

وأوفدت بريطانيا بعثة من رجال المال لمعاونة وزيرالمالية المصرى فى تنظيم مالية مصر ٠٠

٠٠ أى أن نفس اللصوص الذين نهبوا الخزانة المصرية هم أنفسهم الذين سيجيئون لتنظيمها ٠٠

ولم تتوقف عمليات استنزاف الأموال المصرية ، حتى جاء عام ١٨٧٦ ، وأعلنت الحكومة المصرية توقفها عن دفع أقساط الفوائد والديون ٠٠

وتدخلتالحكومتان الفرنسية والانجليزية لحمايةأموال المغامرين واللصوص ٠ وقررت انجلترا ارسال مستر جوشن وهو أحد وزراء المالية السابقين وابن أحد أصحاب بنك فرهانج وجوشن بانجلترا ، وهو البنك الذى أقرض مصر قروضها الأولى ٠

ان العصابات المالية من الرأسماليين تعمل فى تناسق ٠

ففى مصر ماليون أجانب يمهدون الطريق لعقد القروض من البنوك الأوروبية.. وفى أوروبا بنوك أصحابها أعضاء فى الحكومات.

٠٠ وجاء جوشن من انجلترا وجوبير من فرنسا وفرضا على الخديو تحت التهديد انشاء رقابة على مالية مصر ٠٠

انها نفس الرقابة التى طلبها البنك الدولى لتقديم قرض السد العالى عام ١٩٥٦ ٠٠ ولكن عام ١٩٥٦ يختلف عن عام ١٨٧٨ ٠٠

وفى أغسطس عام ١٨٧٨ تشكلت وزارة مصرية بين أعضائها وزير انجليزى وآخر فرنسى ٠٠ وفرضت الرقابة على المالية المصرية، لمصلحة أصحاب الديون ٠٠ واستطاعت المراقبة الاجنبية أن تجمع ٦ ملايين جنيه لتدفعها لأصحاب القروض ٠٠ وكتب قنصل بريطانيا الى حكومته يقول :

« ٠٠ أخشى أن تكون هذه النتائج لم تتم الا بما فيه هلاك الفلاحين من حملهم على بيع محصولاتهم قبل حصادها ، وجباية الضرائب قبل مواعيدها ٠٠ »

وقال :

« ٠٠ لقد أقفرت خزانة الحكومة ، وأصبح للجنود والموظفين مرتبات شهور عدة ، وأصبح الموظفون فى أنكد عيش وأتعس حال ، ولقد وقف دولاب الحكومة وقوفا تاما ٠٠ »

وكان هذا بديهيا ، فان ما أخذه الدائنون من ايراد الحكومة البالغ ٩ر٥ مليون جنيه ، كان لا يقل عن ٥ر٧ مليون جنيه ٠٠٠ وحدثت المجاعة ٠٠ وهذا وصفها :

« ٠٠ فكان من وراء ذلك كله ، ان انتابت أهل الصعيد قاطبة

سنة شديدة ، لم يسمع بمثلها منذ أجيال مضت . فكنت ترى الاطفال والنساء هائمين على وجوههم متنقلين من قرية الى قرية يستجدون الأكف ليدرءوا غائلة الجوع ، وكثيرا ما حملتهم شدة المسغبة على أن يقتاتوا بفضلات الطرق وقمامة الشوارع ، وقد أحصى من أكلهم القحط فى العام المذكور ، فلم يقلوا عن عشرة آلاف نسمة ٠٠ »

« ان وجود جيش جرار من موظفى الحكومة مشرف على الموت جوعا لفضيحة أحق بالاعتبار من نفس تأجيل الدين العمومى تأجيلا مؤقتا » ٠

ولكن الذين يبحثون عن المال ، لا يعرفون الرحمة ٠٠ ان مشاعرهم هى المال ٠٠ ومنطقهم هو الربح ٠٠ وهدفهم هو الثراء ، ولو سرقوا أكفان الموتى !٠

ودفعت مصر فوائد القروض وأقساط الديون كاملة !٠

ولم يكن هذا كله كافيا ٠٠ بل كان لابد من مزيد ٠٠ وتقدمت لجنة الرقابة المالية تطلب تعيين لجنة لادارة السكك الحديدية وميناء الاسكندرية ٠٠ وتم لهم ما أرادوا ٠

وخطوة خطوة تفقد مصر استقلالها ٠٠ فتألفت لجنة أوروبية تحت ضغط الحكومات الاوروبية سميت « لجنة التحقيق العليا لبحث حالة الحكومة المصرية من النواحى المالية » .

٠٠ وأصبحت مصر تحت الوصاية !٠

وتشكلت وزارة جديدة ، دخلها وزيران أوروبيان، أحدهما انجليزى لوزارة المالية ، والثانى فرنسى لوزارة الاشغال ٠٠

وخفض عدد الجيش ، وأنقص عدد موظفى الحكومة ٠٠ وتأخر

صرف المرتبات ٠٠ وبدأ التذمر يأخذ صورا من العنف بين الضباط والموظفين والفلاحين ٠٠ وحتى بين ملاك الاراضى !٠

وفى نفس الوقت بلغت مرتبات الموظفين الاجانب الذين جاءوا لاصلاح حال مالية مصر أكثر من ٦٠ ألف جنيه !٠

وأرسل قنصل السويد فى القاهرة الى حكومته تقريرا عن الحالة قال فيها :

« ان الطريقة التى اتبعت حتى الآن فى حل المشكلة المالية تكاد تشبه الطريقة التى يتبعها الانسان مع دائن خاص ٠٠ لسنا نبحث فى : هل انتفعت مصر بما استدانته من الاموال أو لم تنتفع؟ وهل يستحق العطف أولئك الدائنون الذين أقرضوها أموالهم بربا فاحش ، ونالوا من الأرباح الطائلة ما عاد عليها بالضرر ، أو لا يستحقون ؟ ٠ فان واجب مصر أن تفى بعهودها ، ولكن ليس معنى ذلك أن يقضى على أهل مصر ارضاء للدائنين ٠٠ ليس من السهل أن نعد الاهالى والحكومة شيئا واحدا ، فيثقل كاهل الفلاحين بالضرائب الفادحة ويجاز للدائنين أن يتصرفوا فى الفلاح وأرضه للحصول على ما يرضيهم ، ان مصر الآن أشبه بضيعة كبيرة يديرها الدائنون ، ولكن مع هذا الفارق الكبير وهو أن الدائنين عادة يفهمون أنه لا بد من انماء موارد الضيعة حتى يحصلوا على أموالهم ٠٠ أما فى هذا البلد فلا يفكر الانسان الا فى تسلم الاموال ناسيا انه على مر الايام يستحيل عليه أن يحصد حيث لم يزرع ٠٠ ان الاحكام الصادرة على الحكومة باقية لم تنفذ والموظفون يقاسون آلام البؤس والشقاء ، لان مرتباتهم لم تدفع اليهم منذ شهور عدة ، وكل عمل منتج نافع معطل ودولاب الادارة واقف ، كل هذا بحجة أن الدين يجب أن يدفع قبل كل شيء وأن يكون له المقام الاول » ٠

٠٠ كانت هذه هى بداية تسرب الاستعمار القديم الى مصر ،

التى انتهت بالاحتلال البريطانى ، حتى تحمى القوى المسلحة والمدافع والرصاص ، أرباح أصحاب رءوس الاموال من الانجليز والفرنسيين والنهابين ولصوص أوروبا ..

الاستعمار الامريكى

واليوم .. يظهر استعمار جديد ..

والاستعمار الجديد لم ينشأ فجأة ، ولكنه جاء نتيجة تطور الاحداث فى امريكا نفسها وفى العالم ..

على أثر حرب الاستقلال الامريكية ، أخذ أصحاب رءوس الاموال الامريكيين فى التوسع الاقليمى على حساب الهنود الحمر والمكسيكيين ومختلف الدول الاوروبية الاستعمارية ، وهكذا أصبحت الولايات المتحدة دولة ضخمة قارية الاتساع ، بعد أن كانت من قبل رقعة من الارض صغيرة تمتد على الساحل الشرقى ..

وافتتحت الحرب الاهلية عهدا جديدا .. ففى خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر نمت الصناعة فى الولايات المتحدة بأسرع مما نمت فى أى بلد آخر وشيد الرأسماليون الامريكيون الأوائل ثرواتهم على آلام الملايين من الزنوج الذين اختطفوا من ارجاء افريقيا وآلام أبنائهم وبناتهم بعد ذلك .

وبعد ذلك بدأ أصحاب رءوس الاموال الامريكيين فى البحث عن مصادر للربح خارج حدود الولايات المتحدة وأخذت أمريكا تصدر رأس المال الى الخارج بعد أن كانت من قبل تستورد رءوس الاموال من الخارج ..

وخرجت الشركات الامريكية تغزو البلاد الاجنبية وعملت على اقتسام الممتلكات والاسواق فيما بينها وبين زميلاتها الدول الاستعمارية الاوروبية .

وحتى عام ١٨٩٨ لم تكن أمريكا تسيطر خارج حدودها الا على آلاسكا وهاواى وجزء من جزر ساموا .

ان منطق الاستعمار هو أن تتبع السيطرة الاقتصادية سيطرة سياسية وعسكرية .

وفى عام ١٨٩٨ شنت الولايات المتحدة حربا استعمارية لاعادة تقسيم العالم ، وكانت هذه الحرب ثانوية خاضتها ضد عدو مستضعف هو أسبانيا .

ومع ذلك فقد كانت غنيمتها ضخمة هائلة .. استولت على الفيليبين وبورتوريكو وسيطرت بصورة غير رسمية على كوبا ، وكسبت مناطق نفوذ واسعة تشمل القسم الشمالى من أمريكا الجنوبية ، وأمريكا الوسطى كلها ، وبسطت سلطانها العسكرى على بحر الكاريبى وعلى كثير من القواعد المهمة فى المحيط الهادى . بل أكثر من ذلك ، امتد نفوذ أمريكا المتعاظم فى ذلك الوقت الى بلدان أمريكا اللاتينية حيث كان رأس المال الانجليزى والفرنسى هو المسيطر .

ولم تكن الحرب ضد أسبانيا غير بداية متواضعة ، فانشعوب البلاد التى فرضت أمريكا سلطانها عليها لم تكن راغبة فى أن تستبدل الاستعمار الانجليزى والاسبانى القديم بأمراء الاستعمار الامريكى الجديد ، فما كان من الاستعماريين الامريكيين ، الا أن خاضوا حروبا عدوانية ، وتدخلوا بالقوة المسلحة لقهر شعوب الفيليبين والمكسيك وكوبا ونيكاراجوا وباناما وهايتى وكولومبيا والدومينكان وكوستاريكا وهوندوراس والصين .

ويتجلى الدور الذى لعبته القوة العسكرية فى تدعيم سيطرة أصحاب رءوس الاموال الامريكية فى كلمات الميجور جنرال سمدلى بتلر :

« لقد قضيت ثلاثة وثلاثين عاما فى خدمة جيشنا الامريكى ، كنت في معظمها أشبه بقـــاطع طريق يعمل لمصلحة وول ستريت والشركات والبنوك الكبرى »

واذا كانت الامبراطورية الامريكية قد استهلت حياتها بالحرب والعدوان ، فقد حققت نموها الأعظم بالطريقة الدامية نفسها ٠٠ ان جميــع ما كسبه الاستعمار الامريكي بعد ذلك ، كان نتيـجة الدور الذى قامت به فى الحربين العالميتين الاولى والثانية ، ومن أعمالها وتهديداتها العسكرية فى السنوات التى أعقبت الحرب العــالمية الثانية ٠

ولكن التوسع الأمريكى لم يحقق انتصاراته كلهـــا بالطرق العسكرية ، فقد أدى الضغط الاقتصادى دوره المهم فى ذلك .. وهذا الضغط يشمل :

* تقديم القروض الى البلدان المســـتضعفة والتى خربتها الحرب ، بشروط مناسبة للشركات الامريكية .

* عقد الاتفقات التجارية التى تحظر حماية الصناعات فى الدول النامية من خطر الاحتكارات الامريكية الضخمة .

* منع السفن من السفر الى البلدان وشن الحرب على العملة الرسمية فى تلك البلاد ٠

* تقوية العناصر الرجعية فى البلدان الاخرى لكى تستطيع خدمة مصالح الاحتكارية الأمريكية ٠

* عقد المعاهدات التى‌تمكن الشركات الأمريكية من الاستيلاء على موارد الشعوب الأخرى ، استيلاء غير محدود .

* التدخل الدبلوماسى لانتزاع الامتيازات لمصلحة الشركات الأمريكية ٠

* تعيين المستشارين والخبراء الماليين الأمريكيين للسيطرة على ميزانية وموارد البلدان النامية .

وطبيعي ان تسير الاساليب العسكرية وأساليب الضغط الاقتصادى جنبا الى جنب ، فان قوة الاستعمار الامريكى الاقتصادية هى التى تدعم قوته العسكرية كما ان الضغط الاقتصادى والسياسى لا يجدى الا اذا دعمه تدخل عسكرى أو التجأ الى مثل هذا التدخل ، وهكذا تلتقى كل الوسائل والأساليب والمؤامرات فى خطة توسعية عامة تكون « سلمية فى بعض الاحيان ، وشبه حربية فى أحيان أخرى ، ولكنها موجهة دائما ضد شعوب البلدان التى توجه اليها امريكا ضربتها .

ويقول فيكتور بيرلو ، أستاذ الاقتصاد الأمريكى :

« ان الاستعمار الامريكى يحاول أن يخلق أشكالا جديدة من الحكم الاستعمارى وعمد رجاله الى تضليل الرأى العام ، فقالوا ان هذه البلاد ، الولايات المتحدة ، لا تطمع فى مغانم اقليمية ، ولكنها حريصة على رفاهية الشعوب الخاضعة لسلطانها ، ليس غير .. »

ومنذ الحرب العالمية الثانية ورجال الاحتكارات الامريكية يحاولون تضليل شعوب العالم بهذه النغمة ، ويحاولون التوسع تحت هذا القناع فى كل مكان . وتحاول واشنطن أن تستغل حركة التحرر فى دول العالم الثالث لتحل محل فرنسا وانجلترا ، كما استغلت قبل خمسين سنة نزعات التحرر فى المستعمرات الاسبانية .

ومن عام ١٩٤٥ الى اليوم والخطة الأمريكية الرئيسية تقوم على مد المستعمرين الهولنديين والفرنسيين والبريطانيين بالأموال

والسلاح للقضاء على حركات التحرر الوطنى فى المستعمرات والدول المتحررة حديثا .

فقد انتهت الحرب العالمية الثانية بانهيار المانيا الهتلرية وحليفتيها ايطاليا واليابان ، وخرجت امبراطوريات الاستعمار القديم الثلاث بريطانيا وفرنسا وهولندا فى حالة ضعف شديد تؤذن بسيرها نحو التصفية ، بل ان الاستعمار الفرنسي والاستعمار الهولندى قد صفيا تماما خلال الحرب.ثم اعيد نفوذهما بمساعدة الاستعمار الانجلو ـ أميريكى فى أندونسيا وفيتنام وشمال افريقيا ..

وفى الوقت ذاته خرجت امريكا أقوى حلفائها بعد أن ضاعفت صناعاتها فى أثناء الحرب لبعدها عن تخريبات الحرب ، واستيلائها على معظم اسواق منافسيها ، فضلا عن فرض سيطرتها على مناطق جديدة .

ولكن الحرب العالمية الثانية ، من ناحية أخرى كشفت عن تعاظم وظهور قوى الاتحاد السوفييتى والصين الشعبية ودول أوروبا الشرقية ، وحركات التحرر الوطنى .

أزمات أمريكا

ان الحرب العالمية الثانية خلقت موقفا دقيقا ، فالاستعمار فقد مناطق واسعة كانت تمده بالموارد والقوى البشرية التى كان يستمد منها قدرته على مواجهة أزمات النظام الرأسمالى ، ويستمد منها وقود الحرب ، وفى كل مكان تشتد مقاومة الاستعمار وتزلزل الارض تحت اقدامه ..

وأصبح الاستعمار الأمريكى فى حالة جنون ، انه لم ينس الأزمات الاقتصادية الخانقة التى مرت به ، واذا أخذنا أزمة

١٩٢٩ وما حدث فيها كنموذج لهذه الأزمات أصابنا الجزع من هول ما حدث فيها ..

في كلمات يصف الكاتب الفرنسي اندريه موروا مأساة أمريكا في هذه الأزمة قائلا :

« . أربعة عشر مليون انسان بلا عمل ، والعدد يزداد يوما بعد يوم ، مستأجرو الاراضي ينقصون ، المصارف مغلقة ، وجميع أسياد ودعائم البنيان الاجتماعي يتهاوون واحدا اثر واحد بسرعة رهيبة .. ان أوروبا لم تتصور في أي وقت كان شدة ضائقة الولايات المتحدة المؤلمة فخلال أسابيع اعتقدت امريكا ان نهاية النظام والمدنية أصبحت قاب قوسين أو ادنى .. »

وخلال هذه الأزمة التي امتدت من عام ١٩٢٩ حتى عام ١٩٣٣ . كان القمح والذرة يستخدمان وقودا بدلا من الفحم . وأبيدت ملايين من كتل اللحم وأغرقت ملايين الأكياس من البن على شواطىء البرازيل ..

ان هذه الأزمة هي احدى الازمات التي لازمت الرأسمالية كنتيجة حتمية لفوضى الانتاج وعدم وضع خطة تلبي حاجات الجماهير ، فان كل رأسمالي أو احتكاري لا ينشد سوى تحقيق أقصى الأرباح لشركاته ، وزيادة ثروته الى ملايين الدولارات — فالرأسماليون يحاولون ابتزاز أكبر قدر من الأموال ويندفعون وراء الصناعات التي تعطيهم مزيدا من الأرباح دون النظر الى حاجات الناس ومطالبهم الرئيسية .

وأمام هذه الأزمات ، وتحرك قوى الجائعين ، يبحث الرأسماليون عن مخرج ، وكان المخرج للاستعمار القديم ، بعد أزمة ١٨٤٧ وما لاحقها من أزمات هو التوسع الاستعماري وشن الحروب ضد الصين ومصر وتونس ومراكش ودول افريقيا ..

وكان المخرج من أزمة ١٩٠٧ هو اعلان الحرب العالمية الأولى التى راح ضحيتها ١٠ ملايين نسمة ..

وقامت الحرب العالمية الثانية بعد أزمة ١٩٢٨ التى امتدت اربع سنوات وهزت أمريكا لأول مرة هزة عنيفة ، ثم بدت بوادر الأزمة الثانية عام ١٩٣٨ ، فأعلنت أقسى حرب عرفتها البشرية ، وراح ضحيتها أكثر من ٣٠ مليون نسمة ٠

وبعد الحرب العالمية الثانية واجهت أمريكا أزمة اقتصادية جديدة عام ١٩٤٩ ، وكان المخرج لها من هذه الضائقة هو اعلان الحرب الكورية ٠

ومنذ ذلك التاريخ والازمة فى أمريكا تأخذ بخناقها ٠٠ ومقارنة سريعة بين عدد العاطلين فى أمريكا خلال السنوات العشر الماضية ، تعطى صورة أخرى لتطور هذه المشكلة ٠

فى عام ١٩٤٨ كان عدد العاطلين ٠٠٠ر٢٠٥ر٢

فى عام ١٩٥٦ كان عدد العاطلين ٠٠٠ر٨٢٢ر٢

فى عام ١٩٥٨ كان عدد العاطلين ٠٠٠ر١٧٣ر٥

والزيادة مستمرة ٠٠ والأرقام هى الارقام الرسمية ٠٠ فما هو المخرج ؟ ٠

لقد بين السناتور كيفوفر عن مناقشة مبدأ ايزنهاور فى الكونجرس الامريكى أن تكاليف استخراج برميل واحد من بترول الشرق الاوسط ـ عدا الربع الذى يدفع للحكومات المحلية ـ تبلغ ١/٥ خمس الدولار ، بينما تبلغ أسعاره العالمية ٣ دولارات أى ١٥ ضعفا ٠ واستشهد بأرباح الاحتكارات الامريكية منذ السنة الثالثة لاستيلائهم على نفط ايران ، حيث تبين أن السهم الواحد

الذى تبلغ قيمة رأس ماله المدفوع ١٥٠ مليون دولار ، يربح فى كل عام ما بين ٩٠ الى ١٧٥ مليون دولار وربحت احتكارات البترول عام ١٩٥٥ من عملياتها فى الشرق الاوسط ٥٠٠ مليون دولار ، وعندما أعلن ايزنهاور تطبيق « مبدئه » فى الشرق الاوسط ، خصص لهذه المنطقة مساعدة قدرها ٢٠٠ مليون دولار أى أقل من ٤٪ من أرباح احتكارات البترول الاستعمارية لعام واحد ، ومع ذلك فقد استأثرت اسرائيل وحدها بمعظم هذا المبلغ .

ان هذا كله يكشف حقيقة أكذوبة المساعدات الاقتصادية التى يقدمها ما يسمى « بالعالم الحر ! » للدول المتحررة حديثا .

لقد حاصر الاستعمار الانجلو ـ أمريكى ايران ، حاصرها اقتصاديا وحرمها بيع بترولها حتى بنصف الأسعار العالمية ودفعها الى هاوية الافلاس ، وكان ذلك ضمن خطة رسمت للاستيلاء على البترول ، حتى اذا تمكن المستعمرون من نسف الحكم الوطنى بانقلاب عميلهم الجنرال زاهدى واستولوا على البترول الايرانى ، أعلنوا استعدادهم لمساعدة ايران اقتصاديا ، وما كان ذلك سوى مساعدات رمزية لم تكن الا جزءا ضئيلا من محصول البترول الايرانى لعام واحد .

وهكذا تحاول أمريكا الخروج من أزمات نظامها الرأسمالى الاحتكارى بالسيطرة على الشعوب ونهب ثرواتها ، تماما كما فعل الاستعمار القديم .

أمريكا .. والعالم العربى :

على أثر فشل العدوان الثلاثى على مصر ، تبينت الحقائق التالية ..

أولا : ضعف الاستعمار الأوربى القديم ودنو نهايته فى الشرق الأوسط ٠

ثانيا : ازدياد ضعف جبهة الاستعمار العالمى .

ثالثا : تعاظم حركة التحرر العربية ، وظهور قوة تضامنها مع الشعوب العالمية والقوى الديمقراطية والاشتراكية المعادية للاستعمار ٠٠

ووجد الاستعمار الامريكى أنه أمام ضرورة نفرض عليه العمل لانقاذ ما يمكن انقاذه من التركة الاستعمارية بضرب حركة التحرر العربية ، كما وجدها فرصة ليستولى على حصة الأسد من المصالح الاستعمارية وانتزاع القيادة من يد الاستعمار البريطانى ، والسير بالعالم الىحافة الحرب والقضاء على سياسة الحياد الايجابى والتعايش السلمى ٠

ومنذ قيام ثورة ١٩٥٢ ، وأمريكا تحاول السيطرة على مصر ٠٠ ثم قامت الثورة بتأميم القناة ٠٠ وأثارت هذه الضربة العنيفة الموجهة الى الاستعمار ، كل قوى الامبريالية العالمية ٠٠ وأدركت أمريكا منذ ذلك الوقت أن لا أمل لها فى السيطرة أو ضم مصر تحت نفوذها طالما بقى عبد الناصر فى الحكم ٠

أطاحت ضربة تأميم القناة بصواب الامبريالية العالمية ٠٠ انها سابقة خطيرة تشجع البلاد العربية الثائرة على انتهاج نفس السياسة لتحرير ثرواتها القومية ، كما أن قيمة القناة من الناحية الاقتصادية هزت أركان العالم الاستعمارى ، فقد كانت الشركات الاجنبية تجنى أرباحا هائلة ، اذ بلغ مجموع أرباحها ٣٤٥٣٩ مليون فرنك عام ١٩٥٥ حصلت مصر منها على ١٠٩٢ مليون فرنك فقط ، أى بنسبة ٣٪ من صافى الربح ٠

.. كما أن قناة السويس مركز اســـتراتيجى هام وحيوى لخطط التوسع الامريكى ، والعدوان على الحركات الوطنيــة والاعداد للحرب العالمية الثالثة ..

وكانت الاحتكارات الامريكية قد أدركت أهمية قناة السويس وازداد اهتمامها بالسيطرة عليهـــا مع زيادة توسعهم فى الشرق العربى ، ولذلك عملت على الحصـــول على أكبر قدر من الأسهم ، فانتقلت أسهم البابا من الفاتيكان الى الولايات المتحدة عام ١٩٤٨ .

وكانت الحكومة الامريكية هى المحرك الحقيقى للضغط الذى أظهرته القوى الاستعمارية عندما أممت مصر قناة السويس واقترح دالاس « اتخاذ تدابير اقتصادية جماعية» ، فجمدت أمريكا وبريطانيا الاموال المصرية فى بلديهما . ورفضت أمريكا أن تبيعنا فى تلك الفترة ما نحتاجه من قمح وأدوية .

ومن الناحية السياسية تقدم وزير خارجية أمريكا « بمشروع دالاس » وهو يقضى بألا تترك القنـــاة فى أيدى مصر ، بل تتولاها هيئة دولية ، ونص على عقوبات لتأمين هذا الوضع .

ورفضت مصر هذا المشروع الذى وصفه الرئيس جمـــال عبد الناصر بأنه « استعمار مشترك » ..

وهكذا كانت خطة الولايات المتحدة تتلخص فى اخراج انجلترا من منطقة القناة ، ولكنها كانت تسرع بتأييد بريطانيا كلما ظهر خطر عودة قناة السويس الى أيدى مالكها الحقيقى .

وعلى اثر فشل العدوان الثلاثى الأول طلب ايزنهـــاور من الكونجرس الامريكى أن يخوله السلطة لاستعمال القوات المسلحة متى أراد ، وقال دالاس كما قال ايزنهاور ان هنـــاك خطرا عاجلا يهدد سلامة واستقلال بلاد الشرق الاوسط وسلامة وأمن الولايات

المتحدة نفسها بل والسلام العالمى ، وطلب من الكونجرس أن ينظر الطلب ويناقشه على وجه الاستعجال ، وقال دالاس ان هذا ضرورى لكى يزول القلق السائد فى البلاد العربية ، وبلاد الشرق الاوسط ولا يقع العدوان ! ..

انها نفس سياسة الاستعمار القديم ، يلجأ اليها الاستعمار الامريكى الجديد .. يحاول أن يفرض القروض واستغلال الشعوب والتسرب برءوس الاموال ، ثم يرفع عصا العدوان مهددا بأنه قادم للمحافظة على مصالحه .

لقد كان الهدف من مشروع ايزنهاور ، هو ربط الشعوب العربية بعجلة السياسة الأمريكية ، حتى تتحول فى النهاية الى منطقة نفوذ خاضعة لها ..

ورفضت الشعوب العربية مشروع ايزنهاور ، كما رفضت من قبل مشروع الدفاع المشترك والنقطة الرابعة ، وهى مشروعات هدفها الجوهرى فرض سيطرة رءوس الأموال الامريكية والاحتكارات الامبريالية وسلب ونهب قوت الشعب المصرى ، مثل ما حدث فى أثناء نمو فترة العدوان الاستعمارى القديم ..

وأعلنت الحكومات الوطنية فى الشرق العربى ، كما عبرت الجماهير العربية عن رفضها للمشروعات الأمريكية ..

وتعرضت الحكومة الوطنية فى مصر .. كما تعرض عبد الناصر لأقصى هجوم من دول الاستعمار ، كما أخذت القوى الامبريالية تسلح اسرائيل وتمدها بالمتطوعين لتجعل منها ترسانة عسكرية للامبريالية العالمية ضد الحكومات الوطنية فى العالم العربى .

وقام عبد الناصر بأعنف هجوم على السياسة الأمريكية ، وكشفها وفضحها .. وفى خطاب بورسعيد عام ١٩٦٤ أعلن

عبد الناصر عن سلوك السفير الأمريكى الشائن فى مقابلته لنائب رئيس الوزراء للتموين ، عندما رفض السفير التحدث فى مسائل التموين وقال انه « لا يستطيع الكلام لأن سلوكنا لا يعجبه » ..

وأعلن عبد الناصر « أن حريتنا .. أن استقلالنا وكرامتنا فى المقام الأول قبل كل شىء آخر » .

وأدركت أمريكا أنها أمام زعيم وطنى عنيد ومتمرس فأعلنت الحرب على الجمهورية العربية فى كل الجبهات وكل الوسائل .

أطلقت أمريكا الشائعات ، وحركت القوى الرجعية ، وبثت سموم الافتراء وانطلقت المخابرات الامريكية تعمل بكل الوسائل ، الاغراء المالى وشراء العملاء ، بث الدعاية من الاذاعات الرجعية ، واذاعة اسرائيل، وصوت امريكا، الضغط الاقتصادى والتوقف عن بيع القمح لنا .

وفى نفس الوقت ، كانت أمريكا تدبر العدوان الثلاثى الثانى .. ودفعت ألمانيا الغربية الى بيع الأسلحة الى اسرائيل ، ثم أسفرت عن وجهها وأعلنت عن تزويدها اسرائيل بالسلاح والمال ..

.. وهكذا ارتبطت القوى الصهيونية والاحتكارات المالية بالرجعية والعملاء والمأجورين ، وارتبطت أسلحة الدمار بأسلحة الدعاية والاشاعات المسمومة فى هدف واحد لاسقاط الحكم الوطنى والاطاحة بعبد الناصر ..

ان أهداف العدوان الاسرائيلى الامريكى بدأت بالرغبة فى السيطرة المالية على مصر . تماما كما تحدث قبل العدوان البريطانى على مصر أيام ثورة عرابى .. واستعانت بالرجعية والعملاء لتحقيق أهدافها ، وهو نفس الاسلوب الذى استعمل ضد عرابى .. وأخيرا. العدوان ..

ولكن أمريكا نسيت أن عام ١٩٦٧ يختلف عن عام ١٨٨٢ ·

ففى عام ١٨٨٢ كان الاستعمار فى نموه ·

وفى عام ١٩٦٧ نرى الاستعمار فى مرحلة انهياره ·

وفى عام ١٨٨٢ كان عرابى والشعب المصرى يقفان أمام قوى تفوقهما عددا وقوة ·

وفى عام ١٩٦٧ يقف عبد الناصر والشعب المصرى وبجانبهم قوى الشعوب العالمية ، تملك أقوى الأسلحة ··

ان الاستعمار الامريكى الذى بدأ متأخرا عن الاستعمار القديم ، مرتبط بمرحلة انهيار الرأسمالية ، ولا يستطيع الفكاك من المصير المحتوم ·

ان الامبراطورية الامريكية تواجه اليوم ثورات فى جنوب شرق آسيا وفى أمريكا اللاتينية وفى افريقيا واليوم تواجه ثورة الشعوب العربية ··

وفى نفس الوقت تقف الدول والشعوب الاشتراكية بتفوقها العسكرى أمام أية محاولة للعدوان الاستعمارى على شعوب العالم ·

وفى هذه اللحظات تفجر الصين الشعبية قنبلتها الهيدروجينية لتواجه أمريكا قوى الاتحاد السوفييتى من الأمام وقوى الصين من الخلف ··

ان الامبراطورية الأمريكية فى زوال ·· تغرب عنها الشمس كما غربت من قبل على الامبراطورية الفرنسية ، والانجليزية ، والالمانية ··

الفصل الثالث

« عندما يتكلم المال .. تسكت الحقيقة » .

مثل روسي

قبل الثورة

الثورة العرابية هي فى تطورها نموذج للثورات التحريرية التى واجهت الزحف الاستعمارى خلال فترة العصر الذهبى للاستعمار .. والتى امتدت طوال القرن التاسع عشر ..

ففى هذه الفترة ، احتلت فرنسا الجزائر ، وتونس ، ومراكش .. واحتلت انجلترا مصر والسودان وغانا وجنوب أفريقيا .. وامتد نفوذ أمريكا الى دول أمريكا اللاتينية.. وحاولت فرنسا وانجلترا وألمانيا اقتسام الصين ..

مقدمات ..

كان احتلال بريطانيا لمصر جزءا من صراع عالمى يسود كل مكان ..

كان العالم يتغير فى سرعة ، والنظام الاقطاعى الذى ساد أوربا قرونا طويلة ينهار .. ودخلت أوربا مرحلة الثورة الصناعية ، وقامت ثورات الرأسمالية ضد النظم الاقطاعية .. وكانت الثورة الفرنسية نقطة تحول خطيرة فى تلك المرحلة ..

قامت الثورة الفرنسية تعبيرا عن الفكر الانسانى الجديد .. وتأكيدا للتطور الاقتصادى الذى حدث فى أوربا ..

وجاءت حملة نابليون على مصر تكشف الجانب المظلم للثورات الرأسمالية .. ففى رسالة من نابليون الى حكومة فرنسا ، يقول :

« .. ان فرنسا تجنى مزايا كبيرة من توطيد أقدامها فى مصر ، لأنها بطبيعة موقعها الجغرافى ، مركز الاتصال بين الشرق والغرب، وملتقى التجارة التى تتبادلها القارات الثلاثة أوربا وآسيه وافريقيا .. وانه بانشاء قناة تصل مياه البحر الاحمر بالبحر الابيض يمكن السفن الفرنسية أن تصل الى البحر الاحمر وتهاجم أملاك الانجليز فى الهند ، وعلى كل حال تستطيع فرنسا أن تنشىء فى مصر مستعمرة ترسل اليها متاجرها ومصنوعاتها .. »

كانت الحملة الفرنسية صراعا بين فرنسا وانجلترا .. أو صراعا بين الرأسماليين فى فرنسا وانجلترا للبحث عن الاسواق لتصريف بضائعهم ، والسيطرة على الشعوب المتخلفة ..

وفشلت الحملة الفرنسية على مصر .. ولكنها تركت آثارها وراءها .. عرفت مصر الصناعة الحديثة عندما اضطر نابليون الى انشاء المصانع الحربية بعد غرق أسطوله فى أبى قير .. وأقيمت مصانع الجوخ ، ودبغ الجلود ..

وكانت هذه أول بادرة ، أكدت قدرة مصر على التصنيع ومسايرة التطور الاقتصادى الحديث .. صحيح ان هذه المصانع أغلقت بعد انسحاب الفرنسيين من مصر ، ولكن هذه التجربة تركت وعيا جديدا للشعب ، بعد أن كانت حياته مقصورة على الزراعة والتجارة ..

وعرفت مصر خلال هذه الفترة تطور العلم الحديث من خلال العلماء الذين صحبوا الحملة الفرنسية .. عرفت علوم الكيمياء والطبيعة والجيولوجيا والهندسة والرى ..

وكان من البديهى أن يكون من بين جنود وضباط الحملة عناصر تمسكت بروح الثورة الفرنسية ، وتشبعت بمبادىء الحرية

والاخاء والمساواة التى نادت بها الثورة ·· وكان لهؤلاء أثرهم بين المثقفين المصريين ··

وحاول أحد ضباط الحملة أن يحمل نابليون على توزيع الارض بين الفلاحين المصريين كما حدث فى فرنسا ، فألقى القبض عليه ونفى الى واحة سيوه ··

انعكست آثار الثورة الفرنسية على مصر ولكن فى حدود ضيقة ·· فلم تكن الاذهان أو الظروف مهيأة لكل ما حملته الثورة الفرنسية من فكر وتطور وانطلاق ··

ولكن التطورات التى حدثت فى مصر خلال هذه الفترة ، كانت قد أصبحت جزءا من حياة الشعب المصرى ·· وظلت أفكار الثورة الفرنسية تراود الكثيرين من أبناء الشعب ·

وجاء محمد على الذى لم يدرك من ثورة العصر ، سوى جوانبها التقليدية التى تثبت حكمه وتحمى عرشه ·· استعان بالعلم الحديث والصناعات ليخلق قوة عسكرية تحمى سلطانه فى مصر ··

فشل محمد على فى فهم طبيعة الثورة التى سادت العالم فى تلك المرحلة فهى ثورة الرأسمالية ضد الاقطاع ·· وهى ثورة ديمقراطية .. وهى ثورة تحررية .

فلم يقم بتوزيع الأرض على الفلاحين ·· واحتكر الزراعة ·· واحتكر الصناعة ·· واحتكر التجارة ، فكان التطور الذى قام به قائما على أسس خاطئة تتعارض مع طبيعة سير الاقتصاد العالمى الذى كان أساسه حرية التبادل والمنافسة ··

انتقلت ملكية الاراضى الزراعية الى محمد على ·· ووزع مساحات كبيرة من الاراضى البور على الأعيان وكبار الموظفين ··

ومنح أفراد أسرته أراضي واسعة ‥ فحاول أن يخلق طبقة من الاقطاعيين ، فى اللحظة التى كان الاقطاع فيها ينهار في أوربا ٠

أما الصناعة ، ففد أنشأ ٢٩ مصنعا للغزل وثلاثة مصانع للسكر ، ومصانع الأسلحة والذخائر ، وترسانة صناعة السفن ‥ وتيقن للمرة الثانية قدرة مصر على مسايرة التطور الصناعى الحديث ٠

ولكن فى اللحظة التى كانت الطبقة الرأسمالية فى أوربا تنمو وتقود التطور فى بلادها ، عمد محمد على الى ضرب الرأسماليين المصريين الذين كانوا يتمثلون فى أصحاب الصناعات الصغيرة ، والتجار ‥ فاحتكر الصناعة والتجارة ، فلم تشهد مصر فى هذه الظروف الطبقة الرأسمالية التى حملت عبء الثورة والتطور فى أوربا ‥ وظلت أفكار الثورة الفرنسية آراء يتبادلها المثقفون الذين عادوا من البعثات ، ولم تجد هذه المبادىء أو الأفكار الطبقة التى تعمل على تحقيقها ‥

أما الطبقة العاملة ، فلم تكن قد تبلورت ، أو ظهر الفكر الاشتراكى الذى يهيىء لها النضال السياسى ٠

أما فئة العلماء والمشايخ ـ وهى التى قادت المد الثورى أيام المماليك ، فقد فقدت القيادة بعد أن انتقل مركز الثقافة من الأزهر الى المدارس والمعاهد والبعثات ٠

وكان بديهيا فى مثل هذه الظروف أن ينفرد محمد على بالحكم ‥ وأن يمضى فى سياسة الاكتفاء الاقتصادى التى أدت به الى الرغبة فى التوسع ليحصل على المواد الخام لصناعاته ، والبحث عن أسواق لسد نفقاته ‥ وأدركت الدول الاستعمارية خطورة توسع محمد على ، فتكاتفت انجلترا وفرنسا وروسيا ضد أطماعه خوفا على أسواقها ومستعمراتها ٠

واستسلم محمد على ، وقنع بولاية مصر ، وتراجع عن الخطوات الاصلاحية والثورية التي بدأها ، وانتهت مرحلة ، ولكنها تركت علامات جديدة في طريق نضـــال الشعب المصرى ٠٠ فالبعثات والفتوحات التى تمت فى عصر محمد على فتحت الأذهان على التطور السياسى والثقافى والصــناعى الذى كان يســـود أوربا فى تلك المرحلة ٠٠ وكما مهدت الحملة الفرنسية للحركة القومية ، مهدت اصلاحات محمد على للثورة الوطنية ٠

الرجعية :

كان سؤال المرحلة ٠٠ هل تصـــبح مصر جزءا من الثورة الصاعدة فى العـــالم وتنمو كاحدى الدول الكبرى ٠٠ او تهبط درجات التخلف لتصير سوقا ، ومستعمرة تابعـــة لاحدى الدول الرأسمالية ؟

كانت عوامل التطور ، وأسس الثـــورة الرأســمالية ، كما أظهرتها الثورة الفرنسية ، هى ٠٠ قاعدة صناعية حديثة ٠٠ طبقة رأسمالية تحمـــل عبء التطور ٠٠ حيـــاة دستورية تمارس الطبقة الجديدة من خلالها حرية العمل ٠٠ وتحطيم الاقطاع الذى وقف عقبة ضد التطور ٠

وبدت بوادر النجاح فى خلق القاعدة الصناعية المتطورة خلال الحملة الفرنسية وخلال حكم محمد على ، ولكن عناصر الثورة الأخرى ظلت متخلفة ٠٠ فلا حياة دستورية ، ولا طبقة رأسمالية ، ولا حرية فكر ٠٠ وفشلت محاولة الدخول الى طور التطور الرأسمالى ٠٠ وبدأ الضغط الاستعمارى لتحويل مصر الى مستعمرة وسوق تابع للدول الراسمالية ٠

وفى هذه المرحلة لم يبدأ الاستعمار بالعدوان المباشر كما

حدث في أثناء حملة نابليون ·· أو حملة فريزر الانجليزية ·· بل بدأ بالدعاية ·· وانبرى علمـــاء الاقتصـــاد الغربيين فى تعليل أسباب فشل التصنيع .. قالوا : ان مصر بلد زراعى وجوهـا لا يهيىء نجاح الصناعة .. وقالوا : ان نقص المواد الخام أدى الى فشل محمد على فى التصنيع ·· واتهموا اضطراب ادارة المؤسسات بأنه سبب الفشل .. ثم قالوا : أن العامل المصرى ليست لديه القدرة على مسايرة التطور الصناعى ·

هل كان هذا صحيحا ؟

ان هذه العوامل كانت موجودة فعلا ، ونقص الفحم فى مصر كان يقابله نقص القطن فى انجلترا ، ومع ذلك قامت أضخم صناعة نسيج فى انجلترا ·· واذا كان العمال فى مصر قد أحرقوا مصنع أسيوط فان عمال انجلترا أحرقوا أكثر من مصنع وخربوا الآلات ·· أما اضطراب الادارة ، فكان يســود مرحلة التصنيع الأولى ، وشــهدت انجلترا وفرنســـا انهيـار وخـراب عشرات الشركات والمؤسسات الصناعية ·

·· هذه العوامل كانت من طبيعــة مراحل التطور الأولى فى الصـناعة ، ولم تتغلب عليهـا أوربا الا بمرور الزمن ، وممـارسة التجربة ·· واكتشاف الخطـأ والصواب ·· ولـكن الاقتصـاديين الرأسماليين فى الغرب كانوا يهـدفون الى الابقـاء على مصر سوقا لتصريف بضائعهم ·· ومصدرا لنهب مواده الخام ··

وتلاقت أهداف الاستعمار مع الفكر الرجعى الذى ساد عصر عباس ، وشهدت مصر موجة من الاضطهاد ضد كل فكر جديد ··

بدأ عصر عبـاس بتصفية ما تبقى من المصانع التى أنشـأها محمد على ·· ثم أمر باستدعاء بعثات الطلبــة من أوربا ·· وألغى

عددا كبيرا من المدارس ونفى كبار الأدباء والمفكرين والمهندسين الى السودان ٠٠ وبذلك مهد عباس للغزو الاستعمارى ٠

لصوص أوربا :

فى أيام عباس تقدم اليه رجل أجنبى اسـمه روستى يطلب تعويضا عن ضرر أصابه أيام محمد على ، ولم يكن هناك دليـل على ادعائه ٠٠ ورفض عباس ادعاء روستى ٠٠ وتدخل قناصل الدول ٠٠ وأصر عباس على موقفه ٠٠ وتولى سعيد العرش، ودفع التعويض الذى بلغ أربعة ملايين فرنك ٠

وفى عام ١٨٦٢ ، أدت الأزمة الاقتصـادية فى انجلترا الى اغلاق المصانع فى لانكشير، وأخذ آلاف من الرجال والنساء يجوبون شوارع المدن الانجليزية ونظمت اللجان للعناية بالجياع ٠٠ وكان البحارة ينهبون السفن ليبيعوا الغلال فى السوق السوداء ٠٠ وكان لا بد من مخرج لهذا البؤس ٠٠ وكانت مصر ٠٠ وتدفق الآلاف مثل روستى تنهب الشعب المصرى ٠

كان القادمون جميعا مجموعة انتهـازية ، تبحث عن الثروة بأية وسـيلة ٠٠ وكان القرض الأول الذى عقـده سعيد ، فاتحة شهية للرأسماليين والمغامرين فى أوربا ٠

ففى عام ١٨٦٢ . والرأسـمالية الانجليزية تبحث عن طريق للخروج من أزمتها . عقد سعيد باشا أول قرض من بنك فرو هلنج وجوشن بلندن ٠٠ ان الأزمة وافلاس المصانع أدى ذلك بالرأسماليين الى البحث عن مصـادر جديدة للربح . فبـدءوا بتصـدير الأموال للحصول على فوائد لقروضهم ٠

كان مقـدار القرض الاسمى الذى حصل عليـه سعيد باشا ٣٫٢٤٢٫٨٠٠ جنيه انجليزى . أما قيمته الحقيقيـة ٢٫٤٠٠٫٠٠٠

جنيه أى أن مصر خسرت فى بداية القرض ٨٠٠٫٠٠٠ جنيه وتعهدت بوفاء هذا الدين على ٣٠ سنة بفائدة قدرها ٧٪ ، وكانت قيمة القسط السنوى من رأسمال وفوائد ٢٦٤٫٠٠٠ جنيه ، أى أن مجموع الأقساط ٧٫٩٢٠٫٠٠٠ جنيه فى حين أن أصل الدين ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيه ٠

وهكذا دخل جيب الرأسماليين الانجليز فى أول صفقة حوالى ٥ر٥ مليون جنيه ربحا صافيا حصلوا عليها من عرق الشعب المصرى ٠

وجاء عصر اسماعيل بعد عمه سعيد ، لتشهد مصر عملية ابتزاز رهيبة ، مارسها الرأسماليون الأجانب ٠

بلغت القروض التى اقترضها الخديو اسماعيل من البنوك وأصحاب الأموال والمضاربين حوالى ١٢٠ مليون جنيه تقريبا ٠٠ لم يقبض منها الا نصف المبلغ ، أما الباقى فكان يخصم كفوائد وسمسرة ومصاريف ، تحول الى خزائن البنوك والرأسماليين فى أوربا ٠

فالقرض الذى عقد عام ١٨٧٠ ، كان مقداره سبعة ملايين جنيه لم تقبض مصر منه سوى خمسة ملايين ٠

والقرض الذى عقد عام ١٨٧٣ ، وبلغ حوالى ٣٢ مليون جنيه لم يصل مصر منه سوى ٢٠ مليون جنيه ٠

كانت عمليات نصب واحتيال ، قام بها أصحاب البنوك والشركات فى أوربا ضد الشعب المصرى ٠٠ وتحولت الخزانة المصرية الى ممول لاثراء شعوب أوربا ٠

وفى عام ١٨٧٧ ، كانت ايرادات الحكومة المصرية حوالى ٥ر٩

مليون جنيه خصص منهـا نحو سـتة ملايين جنيه تدفع لأصحاب الديون الأجنبية ٠

وكانت القروض مشروطة ٠٠ بعضها كان مضمونا بايرادات الجمارك ، وبعضها بايرادات السكك الحديدية ٠٠ وهكذا فتح الباب أمام الرأسماليين الأجانب للتـدخل ومناقشة أو مراقبـة ايرادات الحكومة المصرية ٠

أما الوسيلة الثانية للنهب التي كان يمارسـها الرأسماليون الأجانب ، فكانت عن طريق الشركات والمقاولين الذين يتولون اقامة المشروعات الحكومية في مصر ٠٠ ويقول مؤلف « بنوك وباشرات » :

« ٠٠ كانت المشروعات المصرية الكبيرة من نصيب من يعرف الوالى منذ الطفولة ، أو من نصيب التـاجر الذى يتناول الطعام مع وزير الأشغال العمومية ، أو المقاول الذى ينام مع عشيقة الوزير ، وفى المستويات العليا من السلطة الحكومية، كانت الصداقة والنفوذ يشتريان بالخدمات التى تأتى فى الوقت المناسب ، وباللطف اللبق والهـدايا ذات الذوق ، أما بالنسـبة للموظفين ، فكانت الرشاوى المكشوفة تؤدى نفس المهمة ٠٠ »

٠ وأنفق على انشاء السكك الحديدية التى أقامتهـا الشركات الانجليزية حوالى ١٣ مليون جنيه ، فى حين كان التقـدير الحقيقى لهذه العمليات لا يتجاوز ٣ ملايين جنيه ٠

وتكلفت عملية انشاء ميناء الاسكندرية ٨٠ ٪ أكثر مما كانت تساوى فى الواقع ٠

والوسيلة الثالثة للنهب تمثلت فى الشركات الأجنبيـة التى أنشئت فى مصر ٠٠ شركة مياه الاسكندرية ومنح امتيازها لمهندس فرنسى ، والبنـك المصرى ورأس ماله انجليزى ، وشركة المطـاحن

المصرية ورأسمالها فرنسي٠٠ وشركة حديد الرمل والشركة المجيدية للنقل البحرى والشركة المصرية للملاحة التجارية ٠٠ ورءوس أموالها أجنبية تحول أرباحها الى الخارج ٠

ثم يأتي دور الأجانب المقيمين فى مصر ، الذين يقرضون الحكومة بفائدة وصلت الى ٢٥ ٪ ٠

انها عملية ابتزاز رهيبة ٠

ووصفت مجلة العالمين ، ما حدث من سرقات ونهب بقولها :

« ٠٠ كان اسماعيل يغترف المال من الخزانة العامة بكلتا يديه، لا ليرضى أهواءه الشخصية فحسب ، بل ليسد نهم الطامعين الملتفين حوله ، فكم من الفرنسيين والايطاليين والانجليز كانوا تعساء فى بلادهم ، ثم نالوا بعد أن هبطوا مصر الرخاء والنعيم ! فقد كان الخديو مستعدا على الدوام أن يهب لهم المراكز والقصور والمنح أو يعهد اليهم بالتوصيات على التوريدات، وماكان أشد دهشة السياح اذ يرون فى القاهرة أو الاسكندرية جماعة من الأوربيين ليس لهم من المزايا الا مظهر الرجل الأنيق ، يقومون بمهمة الموردين للخديو، ويربحون من هذه التجارة أرباحا باهظة ، لا يتصورها العقل ،فليس ثمة وسيلة لجمع الثروة الطائلة أسهل من الحصول على عطاء تأثيث احدى السرايات الخديوية ، أو توريد بعض الصور أو النجف ، وكم من أناس جاءوا من أوربا مثقلين بالديون ، فما كادوا يستقرون فى القاهرة ويأتون الى احدى قاعات الانتظار فى سراى عابدين ، حتى صاروا من أصحاب الملايين طفرة ٠٠ »

٠٠ هكذا أثرت الرأسمالية الأوربية ، وهكذا تكونت ثورات العائلات فى أوربا ٠٠ وهكذا تضخمت الصناعة والبنوك فى الغرب ٠٠ كانت عمليات النهب هذه تتم فى كل المستعمرات وشبه المستعمرات ٠

التدخل الأجنبى :

هل كانت مصر فى حاجة الى كل هذه الديون التى أثقلتها والتى نقلت ثروة مصر الى أوربا ؟!

بالعكس ، كانت هذه الفترة من أكثر فترات الرخاء التى شهدتها مصر ٠

ففى عام ١٧٧٥ بدأت حرب الشعب الأمريكى الثورية التحررية فى سبيل استقلاله ٠٠ وانقطع وصول القطن الأمريكى الى موانى انجلترا ٠٠ وأسرعت مصانع النسيج فى انجلترا فى التهافت على شراء القطن المصرى ٠٠ وارتفع ثمن قنطار القطن من ١٥ ريالا عام ١٨٧٢ الى ٢٣ ريالا عام ١٨٧٥ ، وزاد المحصول من مليونى قنطار الى ٣ ملايين قنطار ٠

كان هذا الثراء المفاجىء فى ثروة مصر ، قادرا على دفع مصر الى مرحلة التطور الرأسمالى ، واقامة صناعة ضخمة تتناسب مع تطور العصر ٠٠ ولكن هذا الثراء نفسه هو الذى دفع المغامرين الأجانب الى التدفق على مصر ٠٠ وكان الخديو اسماعيل أشبه بثرى الحرب ، فهو الحاكم المطلق المتصرف فى كل ايرادات ومصروفات الخزانة المصرية ٠٠ فوقع فى براثن الرأسمالية الأوربية وتبددت الثروة ، ثم تحملت مصر — الديون الباهظة ٠

وكما سنرى فى عام ١٩٥٦ ، عندما كتب الاحتكارى الأمريكى روكفلر الى ايزنهاور ، يقول له بصراحة ٠٠ « يجب أن نقتصر على احراز امتيازات سياسية متواضعة مقابل مساعداتنا الاقتصادية ، وفى بعض الحالات الاستثنائية حتى بدون امتيازات فى مقابلها ٠٠ ان الطريق سيفتح أمامنا بعد ذلك ، ولكن فى مرحلة متأخرة ، لنحصل على الثمن السياسى ومطالبنا العسكرية ٠٠ »

وفى مصر عام ١٨٧٥ ، كانت الـديون قـد مهـدت للثمن السياسى والعسكرى ٠٠ وجاءت بعثة «كييف» من انجلترا لدراسة أحوال الماليـة المصرية ٠٠ وتم انشـاء صندوق الدين ٠٠ ثم جاءت بعثة غوشن وجوبير ٠

وغوشن هـذا هو نجل غوشن الـكبير صاحب بنـك غوشن وفرولنج الذى قدم أول القروض الى الخديو ٠٠ وكان غوشن الصغير وزيرا سابقا لوزارة المالية فى انجلترا ، ثم أصبح عضوا فى مجلس العموم .. واختبر غوشن مندوبا عن الدائنين الانجليز ، وجوبير عن الدائنين الفرنسـيين ٠٠ ان الحـكومة الانجـليزية لم تكن مرتبطة بالرأسماليين الانجليز بروابط المصالح المالية وحدها بل وبروابط الدم ٠٠ كان اللصوص الرأسماليون يسرقون من تحت ، ويتولون الحكم من فوق !٠

ووصلت اللجنة الثنـائية ، وقررت انشـاء مراقبة ماليـة للايرادات والمصروفات من عضـــوين انجليزى وفرنسى ، وتأليف صندوق الدين لتسـلم الأقســاط « والفواتير » ، ووضع السـكك الحديدية وميناء الاسكندرية تحت ادارة مختلطة ٠٠

وفرضت الرقابة الأجنبيـة على المالية المصرية ، وكانت مهمة الرقيبين تدبير المال اللازم لدفع أقساط الديون والفوائد ٠٠ وبدأ جمع الضرائب قبل مواعيدها واضـطر الفلاحون الى بيع المحصـول مقدما ، وخرج المرابون الأجانب يقدمون المال للفلاح ثمنا لمحصوله، فكانوا يشترون منه أردب القمح بخمسين قرشـــا مع أن ثمنه فى السوق ١٢٠ قرشا !

ثم شكلت لجنة تحقيق أجنبية ، لبحث ودراسة الحالة المالية، والتنقيب فى أسرار الحـكومة المصرية ومنحت السـلطة المطلقة فى اجراء تحقيق ، كما تشاء ! واقترحت لجنة التحقيق تشكيل وزارة ،

يدخلها وزيران ، أحدهما انجليزى لوزارة المالية والآخر فرنسى لوزارة الأشغال !٠

ان اللص الذى يسرق رغيفا يحاكم بالحبس ، أما الرأسماليون الأوربيون الذين نهبوا خزانة مصر ، وامتصوا دم الفلاح المصرى ، فقد هبت حكوماتهم تحمى سرقاتهم ٠٠ بل أبشع من ذلك ، نرى اللصوص الذين نهبوا الخزانة المصرية هم أنفسهم الذين انتدبتهم حكوماتهم لتنظيم وادارة المالية فى مصر ٠

انهيار الاقطاع :

كان استسلام الخديو اسماعيل للتدخل الأجنبى ، ايذانا بأن نظام الحكم القائم فى حالة انهيار ٠

والحقيقة التى غفلها اسماعيل من دروس الثورات فى أوربا ، هى أن نظام الحكم الاقطاعى قد انتهى عهده وتحللت أسباب وجوده أمام الثورة الرأسمالية ٠٠ وكان أمام اسماعيل أحد أمرين ، اما أن يتمسك بهذا الشكل من الحكم فيلقى نفس المصير الذى لاقاه ملوك أوربا ، أو يدرك ثورة العصر وينجو من النهاية التعسة التى واجهها غالبية حكام الاقطاع ٠

ولكن اسماعيل كان ابن طبقته ، ولم يستطع أن يتحرر من أفكارها واتجاهاتها ٠٠ واستسلم للمصير ٠٠

كانت الطبقة الحاكمة فى حالة من التفسخ والانحلال منذ وفاة محمد على ، وانغمست فى الملذات والشهوات ٠٠ وبدأ بين أفرادها صراع عنيف من أجل الحكم ٠٠ ودبرت مؤامرة قتل عباس فى مخدعه بقصره فى بنها ٠٠ وحاول أنصاره تنصيب ابنه الهامى باشا بدل الوريث الشرعى سعيد باشا ٠٠ ولكن المحاولة فشلت ٠٠

وبعد وفاة سعيد دبرت مؤامرة اغتيال ولى العهد الأمير احمد رفعت وتولى اسماعيل ..

وكانت المؤامرات تدبر بين القاهرة واسطنبول ، وتشترك فيها الأميرات والغلمان ..

وانغمس الحكام فى الترف .. ففى الوقت الذى عقد فيه سعيد باشا أول قرض أجنبى ، قام بتجميل احدى حجرات الاستقبال فى قصر عابدين بعشرة ملايين فرنك ، واشترى مجموعة من أوانى الشرب تكلفت مائة ألف دولار ، وطلب من أحد المصانع الانجليزية صنع أربعة أسرة للنوم تكلفت كل واحدة منها الفين من الجنيهات ..

وكان بقية أمراء الأسرة الحاكمة ينهجون نفس الحياة ، البذخ والانحلال ، ووصف أحد الأطباء الأوربيين ، الأمير الهامى باشا بأنه « رجل عجوز فى الواحد والعشرين من عمره ».. وكان الهامى باشا قد ورث عن أبيه عباس باشا حوالى ١٠٠ مليون فرنك نقدا وآلاف الأفدنة..ومن خلال علاقة الأمير الشاب برجال الأعمال الأجانب، استمتع باللذات المختلفة اللانهائية .. وبعد عامين من وفاة والده أضاع ثمانين مليون فرنك ، وغطت الديون أرضه .. وتسربت كل هذه الثروة الى الخارج،وبالذات الى أسرة أوبنهايم الذين قاموا بدور القوادين للأمير ، بينما احتلوا أسمى المناصب فى بلادهم وظهروا هناك كأعمدة للمجتمع الرأسمالى .

وتدفقت رءوس الأموال الاجنبية لانشاء دور اللهو وبيوت الدعارة .

وكان الخديو اسماعيل رمزا لهذا كله ، وكان يجلس فوق قمة هذا الفساد .. وبلغ ما أنفقه على انشاء سراى الجيزة وحدها حوالى مليون ونصف المليون من الجنيهات ، وصرف أكثر من خمسة ملايين

جنيه على انشاء بقية القصور في القاهرة والاسكندرية ‥ وملايين أخرى على ضفاف البوسفور وحفلات تحدثت عنها أوربا ، فشهدت مصر حفلات زفاف أبناء اسماعيل التى أطلق عليها « أفراح الانجال » ٠

وبلغت حفلة افتتاح قناة السويس أروع ما يصل اليه الخيال ‥ ولا يكاد يمر عام الا ويسافر الخديو الى الآستانة أو أوربا ، وكانت رحلاته في عواصم أوربا حديث العالم ‥ أموال تنفق بغير حساب ٠

وعرفت مصر حفلات الرقص الغربى ـ التى أقامها اسماعيل فى سراى عابدين والجزيرة ، وبلغت منتهى الفخامة ‥ وكان يدعى اليها الكبراء ورجال السلك السياسى وعقيلاتهم ‥ وكانت جريدة « الوقائع المصرية » تبرز أخبار هذه الحفلات فى صفحاتها الأولى ٠

وانساق أمراء وباشوات مصر وراء الخديو يقلدونه ‥ قصور وولائم ‥ وخمور من واردات أوربا ‥ ومظاهر للزهو والتفاخر فى القصور والأفراح ‥ والملابس والمجوهرات ‥ وعشيقات من أوربا ‥ ان الطبقة الاجتماعية عندما تنهار وتفقد وظيفتها ودورها فى المجتمع ، نكتشف عن أحط قيمها وأخلاقياتها ‥ فخربت بيوت ‥ وضاعت ثروات طائلة ‥ وانتقلت ملكية مساحات واسعة من الأراضى الى المرابين الأجانب ٠

وكلما تهالكت الطبقة الاقطاعية على الفساد ، أسرع نظام الحكم فى الانهيار ‥ وظهر ضعف الخديو فى تراجعه أمام التدخل الأجنبى ، ورضى فى ذل واستخذاء أن يقبل اقتراحات لجنة التحقيق الأوربية ويشكل وزارة أحد أعضائها انجليزى لوزارة المالية ‥ وآخر فرنسى للأشغال ٠

آثار التدخل :

عندما تنهار الطبقة الحاكمة، لابد أن تسقط، وأن تحل محلها قوى جديدة للحكم ٠٠ وكان الاستعمار يعمل على سرعة سقوط أسرة محمد على ليحل محلها ، ويحكم مصر كسوق تجارى تحول أرباحه الى جيوب الرأسماليين فى أوربا ٠

ولم تكن الطبقة الاقطاعية أصيلة فى مصر٠٠ لم يكن لها تراث الاقطاع فى أوربا ، فهى وليدة ظروف طارئة ، فعندما تولى محمد على الحكم ، ووضع يده على كل الأراضى الزراعية ووزع على أبنائه وأفراد أسرته أراضى واسعة بلغت حوالى٢٠٠ ألف فدان٠٠ وتفرعت الأسرة الحاكمة وزاد عدد أفرادها فى عهد خلفاء محمد على ، وبنوا القصور الفخمة وامتلكوا الأراضى الواسعة ٠٠ وعاشوا مترفعين عن الاندماج فى الشعب ، وقد عزلوا أنفسهم عن حياته ، فكانوا يتحدثون فيما بينهم باللغة التركية فى حين يتحدث الشعب اللغة العربية ٠٠ كانوا ينظرون الى الشعب المصرى على أنه فى مستوى أقل منهم ، فكانوا يطلقون على المصريين اسم « الفلاحين » احتقارا وازدراء ٠٠ وكان الشعب يقابلهم بالمثل ويطلق نكاته ونوادره سخرية منهم ، وظلت الأجيال تتناقل القول المأثور « حسنة وأنا سيدك » لتمثل عقلية الأتراك في ذلك الوقت ٠

واختار عدد كبير من أفراد هذه الطبقة الاقامة فى تركيا ، واحتفظوا بملكية أراضيهم الواسعة ، وظلت تصلهم ايرادات الاقطاعيات بوساطة وكلائهم فى مصر ٠

٠٠ وأصيب أفراد هذه الطبقة بأول طعنة من التدخل الأجنبى، عندما ظهر عجز الميزانية عن سداد الديون ، واعتبرت لجنة التحقيق الأوربية ، أن الخديو مسئول عن العجز ، وطلبت منه أن يتنازل عن

أطيانه وأطيان عائلته٠٠ وعرض الخديو أن يتنزل عن أطيانه المعروفة بأطيان الدائرة السنية والدائرة الخاصة وعن ٢٨٩ ألف فدان من أطيان عائلته ٠٠ ولكن تبين أن أطيان الدائرة السنية مرهونة فى ديونه السابقة ، فطلبت اللجنة أن يخصص لسداد العجز أطيانا أخرى للعائلة الخديوية ٠٠ فقبل الطلب ٠

وكان أول أعمال الوزارة الأوربية، عقد قرض جديد من بنك روتشلد الانجليزى مقداره حوالى ٨٫٥ مليون جنيه ، رهنت فى مقابله الاملاك التى تنازل عنها أفراد الأسرة الحاكمة والتى بلغت أكثر من ٤٢٥ ألف فدان ٠٠ وعهد بادارة هذه الأراضى الى لجنة دولية ٠

أماالطبقة الثانية . وهى طبقة كبار الملاك ، وهى التى أعطيت حق ملكية الأراضى خلال حكم سعيد، فقد جمع الكثيرونمنهم ثروات طائلة خلال فترة ارتفاع أسعار القطن ٠٠ وعجزوا عن استغلال هذه الأموال ٠٠ بل اندفعوا يقلدون الأسر الحاكمة فى مظاهر الفخفخة ٠٠ وأسرفوا فى شراء البضائع المستوردة من أوربا ٠

وكان الخديو قد لجا الى هذه الطبقة فى عقد قرض أطلق عليه « قانون المقابلة » ويقضى باعفاء ملاك الأراضى الزراعية من نصف الضريبة المفروضةعليهم اعفاء دائما، اذا دفعوا الضريبة على أراضيهم فى ست سنوات مقدما ٠

وجاء التدخل الأجنبى ، واقترحت لجنة التحقيق الغاء قانون المقابلة ٠٠ وضاعت على هؤلاء الملاك المبالغ الطائلة التى دفعوها ٠٠

ورأت لجنة التحقيق الأجنبية أن تفرض السخرة على الطبقات الميسورة كما هى مفروضة على الطبقات الفقيرة ، ولعلها أرادت أن تقيم عدالة المساواة ! ، ولكنها وضعت نظام الاعفاء من السخرة نظير دفع بدل من المال يؤدى الى الحكومة !٠

ان الاستعمار يؤمن بعـدالة الاستغلال ٠! لا يفرق بين طبقة وطبقة ، انه يبحث عن استنزاف المـال بأية وسيلة ومن أى مصدر ٠٠ انه يواجه أفواها جائعة فى بلاده ، لا بد أن يشبعها والا أكلته٠

وواجهت الطبقة الثـالثة ، مشـاكل التدخل الأجنبى بصور أخرى ٠٠ والطبقة الثالثة كان يمثلها الموظفون من سكان المدن ، وضباط الجيش وأصحاب الصناعات الصغيرة ، والحرفيين ، وهم من يطلق عليهم عادة بالبرجوازية الصغيرة ٠

وينتمى الى هذهالطبقة فئة المثقفين من أبناء الشعب، ويمثلون القيادة الفـكرية ٠٠ وزاد عدد أفراد هـذه الطبقة بعـد توسعات اسـماعيل فى التعليم ٠٠ وانتشـار الصحف ٠٠ وعودة أعضـاء البعثات من الخارج ٠

٠٠ ولقيت هذه الطبقة بفئاتها المختلفة أسـوأ مصير فى ظل القروض المشروطة ، وفى خلال مرحلة التدخل الأجنبى ٠

فقدت طبقة الاقطاع بعض أملاكها ٠٠ وفقدت طبقة كبار الملاك بعض ثرواتها ٠٠ أما البرجوازية الصغيرة ، فكانت تفقـد كل شىء ٠٠ واجهت البطالة ، والموت جوعا ٠

أفلس أصـــحاب الصناعات الصـغيرة والحرفيون أمام تدفق البضائع الأجنبيـة الى السوق المصرية ٠٠ ولم تستطع الصـناعة الناشئة أن تقف أمام منافسة صناعة أوربا ، وخاصة بعد أن ألغيت الحواجز الجمركية تحت الضغط الأجنبى ٠

وزاد عدد الموظفين الأجانب وشغلوا المناصب العليا فى الدولة، ووصل عددهم الى ١٣٢٥ موظفا أجنبيا ، على حين كان عدد الموظفين المصريين لا يتجاوز ٩٢٠٠ موظف ٠٠ وبلغ مقـدار ما كان يحصل

عليه الموظفون الأجانب من مرتبات أكثر من ٣٧٠ ألف جنيه٠٠ وفي نفس الوقت كان صرف مرتبات الموظفين المصريين يتأخر أشهرا متتالية ٠

وكتب مراسل التايمس في الاسكندرية ٠

« مما يلهو به الزوار المتهكمون أن يحصوا الموظفين الأوربيين القاعدين الذين يتقاضون آلاف الجنيهات ، في الوقت الذي لايستطيع فيه مئات من خدام الحكومة الوطنيين الحصول على مرتبات قليلة متأخرة من العام الماضي أو قبله ويستحقونها عن خدمات جليلة قاموا بها فعلا .. »

ورأت لجنة التحقيق الأوربية تحقيق مصروفات الحكومة المصرية ، فكان هذا ايذانا بتوفير عدد من موظفي الحكومة الوطنيين٠

أما المثقفون ، فقد بلغ عدد المنفيين منهم الى السودان حوالى ٩١٢ منفيا ٠٠ وتكرر انذار الصحف ، وعطلت جريدتا « مصر » و « التجارة » نهائيا لنشرهما مقالات لم ترض عنها الحكومة ٠٠ وأنذرت جريدة « مصر الفتاة » ثم عطلت نهائيا ٠٠ ومنعت صحف « النحلة » و « أبو نضارة » و « القاهرة » من دخول مصر ٠

٠٠ وعندما عجزت الحكومة عن دفع أقساط الديون ، قررت تسريح ٢٥٠٠ ضابط من ضباط الجيش ، مضى عليهم ١٨ شهرا ، لم يتناولوا فيها مرتباتهم ٠

وكتب مراسل التايمس ٠

« ان وجود جيش جرار من موظفي الحكومة مشرف على الموت جوعا لفضيحة أحق بالاعتبار من نفس تأجيل الدين العمومي تأجيلا مؤقتا ٠٠ »

ولـكن الرقابة الأوربيـة المتحضرة رفضت سـماع صرخات الجوع ٠

٠٠ لقـد جاءوا لسـداد أرباح القروض ٠٠ ولن يترددوا عن أهدافهم ، حتى ولو اضطروا الى سرقة أكفان الموتى !٠

والطبقة التى تمثل السواد الأعظم من الشعب « الفلاحون » وتحت ضغط الضرائب ، واستعمال الكرباج ، اضطر الفلاحون الى الالتجاء للمرابين الأجانب ٠٠ وبلغت فوائد الربا الفاحش ٤٠٪٠٠ واجتاحتهم المجاعة ٠ وهذا وصفها ٠٠

« ٠٠ فكان من وراء ذلك كله ، أن انتابت أهل الصعيد قاطبة سنة شـديدة ، لم يسمع بمثلهـا منذ أجيال مضت ، فـكنت ترى الأطفال والنســاء هائمين على وجوههم ، متنقلين من قرية الى قرية يستجدون الأكف ليـدرءوا غائلة الجوع ، وكثـيرا ما حملتهم شدة المسبغة على أن يقتاتوا بفضلات الطرق ، وقمـامة الشوارع ، وقد أحصى من أكلهم القحط فى العالم المذكور ، فلم يقلوا عن عشرة آلاف نسمة ٠٠ »

الثورة الفكرية :

لم تكن مصر قد دخلت طور الثورة الرأسمالية ، عنـدما بدأ يتأكد الفكر الاشتراكى فى أوربا ٠٠ فشاهدت مصر ثلاثة تيارات فكرية ، تفاعلت معا لمواجهة طغيان الحكم الرجعى والوقوف فى وجه الاستعمار الزاحف ٠٠ الفـكر الحر أو الليبرالى ، وفـكر الاصلاح الدينى ، وأفكار الثورة الاجتماعية ٠

قام المثقفون بنقل الفـكر العالمى الثورى الى مصر ٠٠ ومهـد الفكر الحر للديمقراطية ٠٠ والمطالبة بالتصنيع ٠٠ واقامة حيـاة نيابية ٠٠ ومحاربة الاقطاع ٠٠ وتحطيم الحكم الرجعى ٠

وتحدث رفاعة رافع .. الطهطاوى بعد عودته من فرنسا عن ثورة عام ١٨٣٠ التى انتهت بعزل شارل العاشر ملك فرنسا .. كما نوه بالدستور الفرنسى وتقييد سلطة الحاكم ونظام الضرائب فى كتابه « خلاصة الابريز فى تلخيص باريز .. »

وتحدث رفاعة رافع عن مصادر الثروة القومية ، فحددها بالزراعة والصناعة والتجارة .. وأشاد بالتطور الصناعى قائلا : « إن الأمة المتقدمة فى ممارسة الأعمال والحركات الكدية ، ذات الكمالات العملية المستكملة للأدوات الكاملة ، والآلات الفاضلة ، والحركة الدائمة، قد ارتقت الى أعلى درجات السعادة والغنى بحركات أعمالها ، بخلاف غيرها من الأمم ذات الأراضى الخصبة الواسعة الفاترة الحركة ، فان أهليها لم يخرجوا من دائرة الفاقة والاحتياج .. »

وفى كتابه المرشد الأمين تحدث عن حرية العقيدة والحرية السياسية .

ويبدو تأثر رفاعة رافع بالتيارات الاشتراكية الوليدة فى أوربا .. فيقول فى كتابه « مناهج الألباب » .

« فأرباب الأراضى والمزارع هم المغتنمون لنتائجها العمومية ، والمتحصلون على فوائدها ، حتى لا يكاد يكون لغيرهم شىء من محصولاتها له وقع ، فلا يعطون الأهالى الا بقدر الخدمة والعمل ، وعلى مقدار ما تسمح به نفوسهم فى مقابل المشقة ، يعنى أن الملاك فى العادة تتمتع بالمتحصل من العمل ، ولا تدفع نظير العمل الجسيم الا المقدار اليسير الذى لا يكافىء العمل .. »

وظلت أفكار رفاعة رافع، تمثل تيارا فكريا رئيسيا أدى دوره التمهيدى للثورة ، فارتفع شعار التصنيع ، وكان الخطباء والطلبة يطالبون فى خطب المحافل باقامة الصناعة وانشاء بنك وطنى ..

كما سادت هذه الآراء فى المقـالات الصحفية ، وتلقت طبقـة كبار الملاك هـذه الشعارات وجعلتهـا من أهدافها الرئيسية ٠٠ والتقت مطالب الجماهير مع أهداف كبار الملاك فى المطالبة بالحياة الدستورية كوسيلة لوقف التدخل الأجنبى ، والحد من طغيان الخديو ٠٠

أما تيار الاصلاح الدينى ، فحمل لواءه جمال‌الدين الأفغانى ، وربط جمال‌الدين بين مسئولية رجال الدين‌والتطورات الاجتماعية، وندد بالاستبداد وطالب بالحرية ٠٠ وكان يعمل على نشر آرائه فى حلقـات للدراسة جمعت العلمـاء والموظفين ٠٠ فحطم قيود الجمود والأوهام ، وخلق تيارات جديدة فى الصحافة ٠

كان الأفغانى قد لمس تدخل الانجليز فى الأفغان، والهند .. وأدرك بمجرد وصـوله الى مصر خطـورة الموقف ٠٠ فأخذ يوجه الأذهان الى الناحية السياسية ضد التدخل الأجنبى ٠

وتلاقى التيار الدينى مع تيار الفكر الحر ٠٠ وانطلقت الموجة الفكرية تدفع الجمـاهير الى‌الثورة ٠٠ وفى خلال سـيرها تلاقت مع موجة جديدة كانت قد بدأت تتبلور فى أوربا ، وأخذ الفكر العربى يتهيأ لاستقبالهـا ٠٠ فتناولت صـحيفة « مرآة الشرق » المذاهب السـياسية فى أوربا عام ١٨٧٩ ، وناقشـت « السوسـياليست (الاشتراكية) والنهيلست (الفوضوية) والكومون (الشيوعية) »، ثم تتناول الصـحيفة فى أكثر من مقال أهداف واتجاهات المذاهب المختلفة ٠٠ واتجهت «مرآة الشرق» فى معارضتها اتجاهااقتصاديا، فلا يعنيها البرلمان ولاتفاصيل الانتخابات ، بقدر ما يعنيها التفاوت الطبقى ، فتهاجم الأمراء فى مصر قائلة :

« ٠٠ انهم شادوا القصور وغرسوا البساتين ، واقتنوا الحور والولدان وتأنقوا فى المآكل ، وتفننوا فى الشراب ، وزينوا الملابس،

وسحبوا مطارف العجب والخيلاء ، وأفراد الرعية على مرأى منهم سغاة عراة يتضورون جوعا ويتلظون ظمأ ويموتون بردا » ٠

ثم نجد عبد الله النديم يردد فى مقالاته كلمات النهيليست، والسوسياليست والكومون ٠٠

بل نرى النديم يهضم الفكر الجديد ويتأثر به ويقدمه للشعب المصرى فى مقالاته ٠٠ ثم فى شعر شعبى تردده الجماهير ٠٠ فيقول :

أهل البنوك والأطيـــان صاروا على الأعيان أعيان

وابن البلد ماشى عريان ممعـــاه ولا حق الدخان

شرم برم حالى غلبـــان

ووجدت طبقات الشعب المختلفة ، قياداتها الفكرية تحدد لها أهدافها ٠٠ فالفكر الحر كان تعبيرا عن كبار الملاك ٠٠ كما عبرت حركة الاصـلاح الدينى عن العلمـاء ٠٠ وحملت حركة الاصـلاح الاجتماعى أمانى الجماهير من الفلاحين والعمال ٠٠

كان كل شيء مهيأ للثورة٠٠انهيار طبقة الاقطاع ٠٠ واستبداد الحكم ٠٠ والحـالة الاقتصـادية المنهـارة ٠٠ والضغط على طبقـات الشـــعب واستنزاف مواردها لدفع أرباح القروض ٠٠ والتدخل الأجنبى٠٠ ثم موجة الفكر الثورى التى اجتاحت الشعب ، وانطلقت تدعو للثورة ٠

الفصل الرابع

« طوبى لمن يكونوا أكثر حرية ..
لأن في الأحرار يكمن الجمال كله ».

مكسيم جوركي

الثورة العرابية

ما هى الثورة ؟

الثورة : قيام طبقة جديدة صاعدة ، تحل محل طبقة منهارة متفسخة فعندما يصل المجتمع الى درجة معينة من التفسخ ، والانحلال ، وتنهار القيم ، ويتضح فشل العلاقات القائمة فى توفير الأمن ووسائل الحياة الاقتصادية للناس . تتحرك قوى الشعب بقيادة طبقة جديدة تحمل قيما جديدة ، وأخلاقيات رفيعة ، ووسائل جديدة لتنظيم الحياة . .

ولم يدرك محمد على تاجر الدخان الذى جاء يحكم مصر ، طبيعة ثورة العصر ، عندما تولى زمام السلطة اثر ثورة الشعب ضد الاستعمار التركى المتخلف وطبقة المماليك ، وظلت التناقضات والتفسخ والانحلال ينخر فى المجتمع المصرى حتى جاء عصر اسماعيل .

حركة الجيش

كان كل شىء فى مصر يمهد للثورة ·· الأسرة الحاكمة متفسخة منهارة أمام زحف المغامرين الأجانب الذين جاءوا لنهب ثروة الشعب المصرى ·· والجوع يسود كل مكان ·· والبطالة منتشرة ·· والموظفون لا يجدون مرتباتهم ·· والقيم الأخلاقية تنهار فى كل صورها ·· وفضائح الخديو اسماعيل ، وأمراء وأميرات البيت الحاكم ، على كل لسان ·· انه عصر الاقطاع فى حالة الانهيار ··

وسيطر الرأسماليون الأجانب على ثروة البلاد ، وأصبح أكثر الملاك الوطنيين أجراء للأجانب ·

وأنشئت المحاكم القنصلية والمحاكم المختلطة ، وبذلك فقدت الدولة سيطرتها على القضاء ·

لم يكن ينقص اندلاع لهيب الثورة ، الا وجود الطليعة الثوريه، وتنظيم طبقات الشعب وخلق تحالف طبقى لمواجهة قوى الحكم الرجعى والتدخل الأجنبى ·

وقامت الجمعيات السرية فى القاهرة والاسكندرية ، وأخذت تجند العناصر الثورية ·· ولكن المد الثورى كان يسبقها ·

وفى ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ ، اجتمع أكثر من ستمائة ضابط، وخطب فيهم البكباشى لطيف سليم،أحد أساتذة المدرسةالحربية ، وطالبهم بالثبات والعمل حتى ينالوا مطالبهم ، وغادروا ثكناتهم يتبعهم طلبة الكلية الحربية ، واتجهوا فى مظاهرة الى وزارة المالية.

وقبل أن يصلوا الى مبنى الوزارة ، اتصلوا بأعضاء مجلس شورى النواب ، وطلبوا منهم مرافقتهم ، فأشترك أربعة من النواب فى المظاهرة ··

ووقف الضباط فى طريق نوبار رئيس الوزراء ، وشدوه خارج عربته ، ولما وصل السير ولسن وزير المالية ، جذبه الجنود من لحيته ، وأرغموهما على الخروج من العربة ، وقادوهما الى وزارة المالية وسجنوهما فى احدى الغرف ، حتى يقرر الضباط مصيرهما ··

وأسرع القنصل البريطاني يستنجد بالخديو اسماعيل لانقاذ سير ولسن ·· وذهب الخديو بنفسه الى وزارة المالية ،وأفرج عن رئيس وزرائه ، ووزير المالية ··

كانت هذه الحادثة شرارة الثورة التى اندلعت واستمرت أكثر من ثلاث سنوات، شهدت مصر خلالها أزهى عصور الحكم الوطنى..

واكتشف الشعب من خلال حركة الضباط قدرة الجيش على قيادة الثورة .. انه القوة الوحيدة المنظمة التى تستطيع أن تقوم بدور الطليعة للثورة .. وكما يقول روزنشتين فى كتاب « المسألة المصرية » :

« وكل شعب زراعى يعيش جماعات متباعدة يضعف أمام الاستبداد داخليا كان أو أجنبيا - فثم الجيش المصرى ، وان شئت فقل الضباط المصريون الذين يستطيعون الوقوف ، بل يقفون بالفعل فى وجه المعتدين الأوربيين اذا ما اضطرهم اليأس الى ذلك ، وان من لغو الكلام أن يعد هذا الحادث وما تبعه من نوعه مجرد شغب عسكرى، فان ما شعر به الضباط هو ما كانت الأمة تشعر به ، غير أن الأمة لم تكن تستطيع التصريح برغباتها ، ولا البدء بالعمل مجتمعة متئمة النظام » .

ويؤكد هذا المعنى السير وليم جريجورى فى مقال نشر فى التيمس عام ١٨٨٢ ، قائلا :

« فالجنود فى الشرق ، كانوا ولا يزالون العامل الأكبر فى الحركات السياسية ، ذلك بأن لهم وحدهم من الاتحاد والشجاعة ما يمكنهم من بلوغ أغراضهم » .

« كان الجيش هو الهيئة الوحيدة التى أوتيت القدر الضرورى من النظام والقوة ، فكان لابد أن يتجمع حوله استياء الأمة عاجلا أو آجلا ليعبر عن نفسه تعبيرا مفيدا .. »

وأدرك الخديو اسماعيل مغزى حركة الجيش ، وحاول أن يستغلها لاستعادة سلطانه من التدخل الأجنبى .. وأعلن اسماعيل

أنه لن يكون مسئولا بعد ذلك عن النظام والأمن ، اذا لم يعزل نوبار من رياسة الوزارة ٠

وأقيل نوبار ٠ ولكن الوزيرين الأجنبيين احتفظا بمنصبيهما ٠٠

وكانت الخطوة الثانية في استعادة السلطات الوطنية من التدخل الأجنبى ، قيام أعضاء مجلس شورى النواب بمقترحات مالية لتخفيض الضرائب التى ينوء بها الشعب ٠

وهاجت الدوائر المالية فى أوربا وأعلنت استحالة وجود مجلس نواب يراقب الميزانية ٠٠ وأعلن سير ولسن وزير المالية فى الحكومة المصرية ، افلاس خزانة مصر ٠٠

وأوعز الوزيران الاجنبيان بفض دورة انعقاد المجلس ، وذهب رياض باشا وزير الداخلية ، ليعلن رسميا انتهاء دورة انعقاد مجلس شورى النواب ٠٠

وكما حدث خلال الثورة الفرنسية ، عندما طلب كبير أمناء الملك فض اجتماع مجلس الامة ، فتصدى له « ميرابو » أحد قادة الثورة الفرنسية ، قائلا ٠٠ « اذهب وقل لمن أرسلوك انا هنا بأمر الشعب ، وانا لن نبرح مكاننا الا بحد السيوف ٠٠ »

٠٠ كذلك وقف النائب محمد راضى يرد على رياض ٠٠ « المجلس لم يزل باقيا له مدة ، ولن ننصرف الا اذا أعطى مجلس النواب حقوقه وأجيبت طلباته ، وها نحن منتظرون الرد »

وفى ٢٩ من مارس ، قدم النواب عريضة الى الخديو اعترضوا فيها على مسلك الوزارة فى امتهان حقوق المجلس ، واحتجوا على المشروع المالى الذى أعدته الوزارة ، وتعلن فيه افلاس الحكومة المصرية ٠٠ كما أعلنوا رفضهم لمشروع الغاء قانون المقابلة ، وعزمهم على الامتناع عن تنفيذه ٠٠

وأصرت الحكومة على فض المجلس ، ولم تحدد موعـــد اجراء الانتخابات الجديدة ..

الحركة الشعبية

واجتمع الأعيان وكبار الملاك فى منزل رئيس مجلس شورى النواب ، ووضعوا لائحة وطنية ، ومشروعا ماليا يعارض فكرة اعلان افلاس الحكومة ، وأوضحوا قدرة البــلاد على الوفاء بديونها ، كما طالبوا بوزارة وطنية واقصاء الوزيرين الأوربيين ..

وبلغ عدد الموقعين على اللائحة ستين من أعضاء مجلس شورى النواب ، وستين من العلماء والهيئات الدينية ، وفى مقدمتهم شيخ الاسلام ، وبطريرك الأقباط ، وحاخام الاسرائيليين ، و ٤٢ من الأعيان والتجار و ٧٢ من الموظفين العاملين والمتقاعدين و ٩٣ من الضباط ..

.. وهكذا تطورت حركة الضباط الى مقاومة منظمة ضمت طبقات وفئات الشعب المختلفة ..

وقدمت مطالب الشـعب الى الخديو ، واستجاب لهـا ... واســتدعى قناصل الدول الأجنبيــة ، وأبلغهم مضــمون اللائحة الوطنية ، وقراره بقبولها .

وسقطت الوزارة الأوربية .. وهاج الرأسماليون فى انجلترا وفرنسا .. ولكن الثورة مضت فى طريقها ، وشكلت وزارة وطنية لم يدخلهــا وزراء أجانب .. وكان أول قراراتها اســتمرار انعقاد مجلس شــورى النــواب ... وأعلن رئيس الوزراء أنه لن توضع قوانين أو لوائح الا بعد عرضها على المجلس واقراره لها .. وكان معنى ذلك وقف عمليات النهب التى مارستها لجان التحقيق والرقابة

الأوربية بتدخلها فى فرض الضرائب وعقد القروض وانتزاع أرباح الأسهم والسندات لحساب الماليين فى أوربا ..

واجتمع مجلس شورى النواب ، وانتخب لجنة دستورية لبحث الدستور الذى تقرر وضعه ..

وقد أقر الدستور المبادىء الاساسية للحياة النيابية لأول مرة فى تاريخ مصر .. وخول مجلس النواب حق اقرار القوانين واقرار الميزانية ، كما تقرر مسئولية الوزارة أمام المجلس ..

وادركت انجلترا وفرنسا ، وأصحاب الديون فى أوربا أن مصر لم تعد مستعمرة للسلب ، وأن وجود القوى الوطنية سيعرقل مشروعاتهم فى استمرار عمليات نهب الخزانة المصرية ..

وأحس الاستعمار التركى القديم أن مصالحه مهددة أمام نمو الحركة الوطنية ، فالجزية والأموال المنهوبة فى صور هدايا ورشاوى ومرتبات للأمراء الأتراك ستصبح تحت رقابة نواب الشعب ... والتقت اهداف تركيا بأهداف الاستعمار الانجليزى الفرنسى ، وقبلت تركيا مشورة انجلترا وفرنسا وصدر قرار عزل اسماعيل .. واستسلم الخديو بعد أن سمح لنفسه أن يقع فى قبضة الرأسماليين الذين أغرقوه فى الشهوات ونهبوا ثروته وثروة الشعب المصرى وغادر اسماعيل البلاد بعد أن لعب به المرابون والدائنون وأصحاب الشركات والمؤسسات المالية ، ووجد نفسه معزولا وسط تيارات النهب العالمية .

وجاء توفيق تحت ضغط القوى الاستعمارية ، وحاول ارضاء القوى التى جاءت به .. أراد تصفية العناصر الوطنية ، فصدر قرار بنفى جمال الدين الأفغانى ، كما حاول احلال العناصر التركية مكان العناصر المصرية فى الجيش .. كما أصدر أوامره بتخفيض عدد القوات المسلحة ..

ولم تستسلم القوى الوطنية أمام الخديو توفيق ، بل مضت فى طريق الثورة لتحديد نفوذ الأجانب ، وأخذ شريف باشا فى وضع الأسس المالية لدفع أقساط القروض وقدمت الوزارة مشروع الدستور الى الخديو توفيق ليوقع عليه ‥ ولكن الخديو رفض تحت ضغط انجلترا وفرنسا اقرار الدستور ‥ واستقال شريف باشا.

واختير رياض باشا الذى أثبت من قبل ولاءه للأوربيين ، رئيسا للوزارة ‥ واجتاحت البلاد موجة من الارهاب مارسها رياض باشا ضد القوى الوطنية ‥ ونفى كثيرا من الوطنيين الى السودان ‥ وصادر الصحف ‥

وتحت ضغط الضرائب الجديدة ، واستعمال الكرباج اضطر الفلاحون الى الالتجاء للمرابين الأجانب ، وبلغت فوائد الربا الفاحش حوالى ٤٠٪ ‥

وزاد عدد الموظفين الأجانب وبلغ ١٣٢٥ موظفا أوربيا، وشغل الأجانب المناصب الكبرى ، وبلغ ما كان يحصلون عليه من مرتبات أكثر من ٣٧٠ ألف جنيه .

وأنشئت مؤسسات وشركات برءوس أموال أجنبية لم يكن لها من هدف سوى الحصول على المال بأحط الوسائل ‥ وكانت تستغل الأيدى العاملة بأرخص الاجور ‥ وتشترى المحصولات من الفلاحين بأبخس الأثمان ‥

وتحركت القوى الوطنية من جديد لتنظيم قوى المقاومة ، وتشكل أول حزب سياسى يمثل الاعيان والمثقفين ، وأطلق عليه أول الأمر « جمعية حلوان » وظل يعمل سرا ، ويوزع المنشورات ضد نهب ثروة الشعب وتسرب الأجانب وسيطرتهم على الحكم ‥ كما طالبوا باعادة املاك الخديو الى الحكومة المصرية ‥

وللمرة الثانية ، يتحرك الجيش ليقوم بدور الطليعة فى مقدمة القوى الوطنية ..

وفى أول فبراير عام ١٨٨١ اجتمع ضباط الجيش واختاروا أحمد عرابى ممثلا لهم ، لرفع شكواهم الى رئيس الوزراء من مظالم وزير الحربية التركى ..

وألقى القبض على عرابى وأصحابه ، وتحركت قوات الجيش من القلعة والعباسية وطره واتجهت بأسلحتها الى قشلاق قصرالنيل وأفرجوا عن زعمائهم ..

وأدركت القوى الوطنيـــة ضرورة ارتباطها بحـــركة الجيش ، وبدأت اتصالات خفية بين شريف باشا ممثلا لكبار الملاك ، وسلطان باشا عن الاعيان وعرابى ممثلا للجيش والشعب ..

وكان الفلاحون يرسلون ممثليهم الى القاهرة يحملون مطالبهم بتخفيف الضرائب ، والتذمر من سلب محصولاتهم وأموالهم ، فكانت غالبية القوى ممثلة فى أروقة الوزارات بممثليها الذين جاءوا يحملون عرائض الفلاحين ..

يوم خالد

وفى ٩ من سبتمبر عام ١٨٨١ شهدت مصر ، يوما من أروع أيامها الوطنية ، عندما أرسل أحمد عرابى الى الخديو يبلغه أنه قادم على رأس قوات الجيش الى سراى عابدين لتقديم مطالب الشعب ..

واحتشـــدت قوى الجيش بأسلحتها وذخيرتها وحاصرت سراى عابدين بمدافعها ، وتجمع وراء صفوف الجيش آلاف من أهل القاهرة هاتفة .. « عرابى .. عرابى .. » كانت مظاهرة شعبية رائعة .

ونزل الخديو توفيق الى الميدان ، وتقدم أحمد عرابى راكبـا

جواده شاهرا سيفه ، وقدم مطالب الجيش والشعب ، وهى ..

- اسقاط وزارة رياض
- زيادة عدد الجيش .
- تولى الطبقة المتوسطة الحكم .

وأشار قنصل انجلترا الذى كان يقف بجانب الخديو عليه باطلاق الرصاص على عرابى .. ولكن الخديو لم يعمل بنصيحة القنصل ، ورضخ الخديو لمطالب الشعب ..

شكل شريف باشا الوزارة الجديدة ، واستعد لوضع الدستور الجديد ولائحة الانتخابات ، وانتصرت الحركة الوطنية .. واهتزت أوربا ..

وأدرك الاجانب مغزى الثورة .. وكتب مراسل التيمس :

« لا فائدة من اخفاء الحقيقة ، وهى أن هذه الحركة لا ترمى الا الى هدم تدخل أوربا فى الادارة المصرية ، وانه اذا كانت هذه النية منذ أسبوعين مقصورة على فئة قليلة من الضباط ، فانها ليست الآن كذلك .. ان سكان الاسكندرية والقاهرة المدنيين على الأقل ، وهم الذين كانوا على وجه العموم لا يهتمون لما يحدث ، أصبحوا يؤيدون عمل الجيش كل التأييد ، وهم الآن أجرأ على الجهر بأغراضهم » ..

وانتقلت الثورة الى مرحلة جديدة ، وطلب شريف باشا من الزعماء العسكريين الانتقال بقواتهم العسكرية من القاهرة الى الاقاليم ، لتجنب الاصطدام بالخديو ..

وغادر عرابى القاهرة الى الشرقية ، كما غادر عبد العال حلمى العاصمة الى دمياط .. وكان يوم سفرهم مظاهرة سياسية ضخمة ،

ألهبت مشـــاعر الجمـاهير ٠٠ ونثرت الورود ٠٠ وكان فى وداعهم الأعيان والتجار والآلاف من أبناء الشعب وألقيت الخطب والكلمات تأكيدا لوحدة ارادة الشعب ٠٠

وفى الشرقيـة ، ظل عـرابى يتنقل بين المدن والقرى يبث أفكاره بين الأعيان والفلاحين ٠٠ وعقدت الندوات وكان الفلاحون يهتفون باسمه فى كل مكان ٠٠

وأصبح عرابى أسطورة الشعب ومعبود الجماهير ٠٠

وخاف الخديو من التفاف الشعب حول عرابى ، فعينه وكيلا لوزارة الحربية ، فعاد الى القاهرة ٠٠

وانطلقت الصحافة تندد بالعهد البائد ، وتطعن فى تقارير الضرائب ومحاباة الأوربيين على حساب المصريين ، وكثرة الموظفين الأجانب ، وسـيطرة آل روتشـلد الماليين على مصلحة الســكك الحديدية ٠٠

كما حملت الصحافة على المواخير وبيوت الخمر ، ودور البغاء التى أخذت تنتشر فى انحاء القاهرة محتمية بالامتيازات ٠٠٠ كما هاجمت ايام حكم الوزيرين الأجنبيين ٠

وألغى اسـتعمال الـكرباج ، وانطلقت صيحة الحـرية بين الفلاحين ٠٠

وأصبحت المراقبة التى أقامتها انجلترا وفرنسا على الميزانية المصرية لفظا لا معنى له ٠٠

وعلى الرغم من قصر المدة التى قامت فيها وزارة شريف ، فانها بدأت بازالة بعض فضائح الماضى ، وأعدت الوزارة القانون الجديد للانتخابات ٠٠ وقانونا لمنع السخرة ٠٠ واصلاح المحاكم المختلطة التى ساهمت فى ظلم الفلاحين ٠٠

وقام عرابى باصلاح حصـون السـواحل ، ونظم احتياطى المدفعية ووزعه على الحصـون ... ودراسـة نصـوص المعـاهدات والاتفاقيـات المعقـودة بين الحكومة المصرية والحكومات الأجنبيـة أو الرعايا الأجانب .. كما أخذت فى دراسة مشـكلة زيادة الموظفين الأجانب فى دوائر الحكومة المصرية ..

وكتب السير وليم جريجورى فى التيمس قائلا :

« لقد قوى عمل الجيش ما فى مصر من رأى عام ، وانى لكبير الأمل بأن المساوى القبيحة التى لا تزال فاشية فى البلاد سيقضى عليها بالصبر والأناة شيئا فشيئا .. لا شـك أنه لولا وجود يد قوية في الحـركة الوطنيـة ما تم اصلاح يذكر ، طالما تكلمـوا عن الاصلاح فى هذا البلد كما تكلموا عليه فى تركيا ولكن الامر لم يتعد دائرة الكلام .. أما الآن فقد شرع فى اصلاحات قيمة كان الباعث عليها علم القوم بوجود عصبة قوية تصر على انفاذها .. » .

وتجلت الثـورة فى أزهى صـورها ، عنـدما أراد الانجليز والفرنسيون أن يمنعوا مجلس الأمة من نظر الميزانية ، واسـتقال شريف .. وتقدم البارودى دون تردد ووراءه الطليعة العسكرية والقـوى الوطنية ، وشـكلت الوزارة الجـديدة وعلى رأسـها رجل عسكرى ..

وكان كل انتصار للثورة يؤكد خطواتها نحو التحرر والقضاء على الرجعية فى الداخل والتخلص من الاستعمار التركى القديم ، والقضاء على الابتزاز المالى والتدخل الأجنبى ..

وتم توسيع الدائرة الانتخابية للشعب ..

وقام مجلس النواب بدراسة الاقتراحات والمشروعات لتعميم التعليم وبناء خزان أسوان .. وفحص شـكاوى الأهالى .. ودفع

الديون التى على الحكومة للمصريين ·· وبدأ دراسة اصلاح النظام القضائى واصلاح الزراعة والرى والمواصلات والادارة ··

ان المعركة تصل أوجها ·· القوى الوطنية تؤكد قدرتها على حكم مصر ودفع الديون ، كما أطلقت الحرية للشعب ·· واندفعت الجماهير نحو وعى جديد ··

وفى خلال هذه المرحلة ، بدأ التفكير فى وقف الجزية التى كانت تدفع لتركيا ، كما ترددت الأفكار حول الغاء النظام الملكى واعلان الجمهورية ، وتحدث زعماء الثورة عن الاصلاح الزراعى وضرورة توزيع الأراضى على الفلاحين ··

وأدرك الاستعمار أنه يفقد مصر كمستعمرة ، وأن الوسائل السلمية لابتزاز ثروة الشعب المصرى لم تعد ملائمة ، فأخذ يدبر للعدوان ·· وجاء الأسطولان الفرنسى والانجليزى الى الاسكندرية، لتهديد الثورة والقضاء على زعمائها ··

ولكن الثورة لم تتوقف ·· ورفضت الطليعة العسكرية الانذار العسكرى ، وثار الضباط فى وجه توفيق ·· واجتمع مجلس النواب وطالب عرابى برفض الانذار وخلع الخديو .. ووقفت بجانبهم طليعة العلماء ورجال الدين ·· وانهالت التلغرافات من القوات العسكرية ومن المدن والأقاليم والقرى تؤيد عرابى ·· وأعلن البارودى التعبئة ··

مرحلة تاريخية

كانت الثورة العرابية ، ثورة حقيقية نابعة من أعماق الشعب، ولم تكن « هوجة » ، كما حاول الاستعمار أن يصفها وأن يشوهها فى أذهان أجيال الشعب المصرى ، ولم تكن انقلابا عسكريا أو فوضى عسكرية ، كما أشاعوا عنها فى خارج مصر وفى داخلها ··

كانت الثورة العرابية ، مرحلة تاريخية لمسايرة التطور الانسانى ، وملاحقة الحضارة الحديثة ، والخروج بالشعب المصرى من مرحلة التخلف الى مرحلة التقدم ..

واستلهمت الثورة العرابية ، كل ما استخلصته الثورة الفرنسية فى نضالها ، وكل ما اكتسبته ثورة البورجوازية أو الرأسمالية فى العالم من أجل تطورها ..

كان التطور الصناعى ، كما نادت به الثورة الفرنسية يقوم على ثلاثة أسس :

- توزيع الأرض على الفلاحين ، والقضاء على طبقة الاقطاع .
- تولى الطبقة الوسطى ، السلطة التشريعية والتنفيذية .
- تدعيم الصناعة ، بالمحافظة على الثروة القومية .
- اطلاق الحريات الاقتصادية والسياسية .

ولم يكن أحمد عرابى فلاحا عسكريا جاهلا ، كما حاولوا تصويره ، بل كان جنديا ثائرا ، ووطنيا راسخ العقيدة . ونستطيع أن نبين أفكاره من حديثه مع مستر بلنت .

تكلم عرابى عن أبطال السخرة التى أنزلها الأغنياء من الباشوات الترك بالفلاحين ، وابطال احتكار هؤلاء الأغنياء مياه الرى عند زيادة النيل ..

وتكلم عرابى عن اصلاح العدالة التى تطرق اليها الفساد فى صورة مخيفة ، وعن تعليم الرجال بل وتعليم النساء ، وعن طريقة الانتخاب التى تنتمى للبرلمان الجديد .

وكشف عن اعداء الثورة فى الداخل قائلا :

« انما هم امراء الأسرة الخديوية وأغنياء الباشوات أولئك الذين توجه ضد مظالمهم حركتنا القائمة ، حركة الفلاحين القومية ، وأنه على حسب مبادىء الحرية الجديدة سوف يكون الناس جميعا منذ الآن سواسية لا فرق بينهم بسبب الجنس أو اللون أو الدين » .

وكانت الخطب والكلمات التى ألقيت خلال الثورة ، توضح أهداف الثورة واتجاهها ..

ففى حفل جمعية المقاصد ـ ألقى أحد الطلبة خطابا طالب فيه الأثرياء بالمساهمة بأموالهم فى انشاء بنك أهلى يستغنى به الأهالى عن الاقتراض من المرابين بالفوائد الفاحشة ..

ومما قاله محمود سامى فى جلساته الخاصة :

« لقد كنا نرمى منذ بداية حركتنا الى قلب مصر الى جمهورية محايدة مثل سويسرا .. وعندئذ كانت تنضم الينا سوريا ويليها الحجاز .. » .

وكان من أهداف الثورة حماية الصناعة الوطنية من غزو البضائع الأجنبية .. فكانت فى مصر صناعات ناشئة كنسيج أقمشة الكتان والقطن والحرير وصناعة الحصر والجلود ، وكانت هذه الصناعات تشغل عددا من السكان يربحون حوالى ١٥٠ ألف جنيه سنويا .. كما كانت هناك صناعة الصابون والعسل ، وتجارة البلح ، وصناعة السكر ، ومعاصر الزيوت وصناعة السجاد ... وتعرضت هذه الصناعات للمنافسة الأجنبية مما عرض المصانع للغلق وتشريد العمال والموظفين .

كما طالب عرابى بتوسيع القاعدة الانتخابية لتشمل قطاعات واسعة من الشعب ، ولكن كبار الملاك عارضوا الفكرة ، ومع ذلك كانت غالبية أعضاء مجلس شورى النواب الذى انتخب أثناء الثورة من أبناء الطبقة الوسطى ..

وأدركت الدوائر الاستعمارية والرأسماليون الغربيون أنه مهما حسنت نيات القائمين بالحركة الوطنية فانهم لا بد أن يمسوا مصالح الأوربيين الكثيرة التى تمثلها المراقبة الأوربية وكثرة الموظفين الأوربيين والمزايا الكثيرة التى يتمتع بها الأوربيون بعبثهم بالامتيازات الممنوحة لهم ، وكانت أوربا الرأسمالية تعلم حق العلم ان مصالحها فى مصر قائمة على النهب والسلب ، وانه اذا ما استقلت مصر واشتد ساعدها عاجلا أو آجلا فلا بد أن يضحى بهذه المصالح من أجل ما هو أهم منها ، ألا وهو مصالح الشعب المصرى ..

ان الثورة العرابية هى المحاولة الثانية فى تاريخ الشعب المصرى للدخول الى مرحلة الثورة الصناعية التى وصلت اليها الحضارة الانسانية .

كانت المحاولة الأولى فى عصر محمد على ، وكانت أسباب فشله عجزه عن فهم طبيعة ومقومات ثورة العصر .

أما الثورة العرابية ، فقد قفزت بالنضال المصرى سنوات طويلة الى الأمام ، ولكنها واجهت قوى الاستعمار فى عصر نموه وازدهاره ، واستطاعت انجلترا وقوى الرجعية فى الداخل أن تضرب ثورة الشعب وأن تعرقل خطواته نحو التقدم والتطور ..

عرابى والمستقبل ..

لم يتجاوز عمر الثورة العرابية ثلاث سنوات وبضعة أشهر .. بدأت بحركة الضباط فى فبراير عام ١٨٧٩ وانتهت بالاحتلال البريطانى فى سبتمبر عام ١٨٨٢ .

وخلال هذه الفترة القصيرة ، انطلقت قوى الشعب المصرى لأول مرة منذ مئات السنين .. وأكدت وعيها ، وقدرتها على مسايرة

التطور الانسانى •• وشهدت مصر خلالها أزهى أيامها ••

وكتب بلنت يصف الأيام التى تلت مظاهرة ٩ من سبتمبر :

« ان ثلاثة الشهور التى أعقبت هذا الحادث الخطير لهى من الوجهة السياسية أسعد الأيام التى شهدتها مصر •• ولقد ألحظ بمشاهدة ما جرى فيها بعينى رأسى فلم أتلق معلوماتى عنها بطريق السماع ولو كان ذلك لشككت فى حقيقتها •• انى لم أر فى حياتى ما يشبه هذه الحوادث وأخشى ألا أرى مثلها فى المستقبل •• ان كل الأحزاب الوطنية وكل أهالى القاهرة قد اتفقت كلمتهم على تحقيق الغاية الوطنية الكبرى •• وسرت فى مصر رنة فرح لم يسمع بمثلها على ضفاف النيل منذ قرون ، فكان الناس فى شوارع القاهرة حتى الغرباء منهم يستوقف بعضهم البعض يتعانقون وهم جذلون مستبشرون بعهد الحرية العظيم الذى طلع عليهم على حين غفلة طلوع الفجر اثر ليلة مخيفة حالكة الظلام » •

وأخذت الصحف العربية تثير الشعب ضد الاستعمار وضد تغلغل الماليين الأوربيين فى شئون مصر ، ووسائل نهب الثروة المصرية ، وتحمل على الأوربيين حملة شعواء وهاجمت المواخير وبيوت الخمر ودور البغاء المنحطة التى أخذت تنتشر فى أنحاء القاهرة محتمية بالامتيازات •

فكيف تلقت أوربا الرأسمالية أنباء هذه الثورة ؟

وكيف استقبلت وزارة شريف التى طلب عرابى بتوليه الوزارة ؟

وكتبت التيمس أيضا :

« ان الحكومة الوطنية الجديدة ، استقبلت فى أوربا باعراض

الدبلوماسيين وسب الحكوميين ولعنة الأسواق المالية » .

ان القوى الوطنية والجيش ترابطت فى قوة ، وخلقت تحالفا فى وجه انجلترا وفرنسا ..

ووضعت الحركة الوطنية وقوى الثورة أهدافها ، وهى التخلص من الحكم الرجعى فى الداخل وطرد المراقبة الأوربية على الميزانية المصرية .. واستقلال المصريين بحكم أنفسهم ..

ولأول مرة منذ سنوات طويلة ، قام الجيش ليعبر عن ارادة الشعب ، واختار حكومة وطنية استطاعت أن تسير بالحكم ثلاث سنوات ، درست خلالها مشروعات على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لمستقبل الشعب .. فناقشت بناء خزان أسوان ، كما ناقشت تعميم التعليم .. ومشاكل الرى والزراعة .. وزاد عدد الجيش ..

وانتقل الحكم فى مصر من يد الأمراء والاقطاعيين الى يد الطبقة الوسطى.. ومارست هذه الطبقة مسئولياتها التشريعية ، وواجهت أعصب أيام فى تاريخ مصر ، ومع ذلك أثبت مجلس شورى النواب الذى مثل قطاعات واسعة من الشعب قدرته على فهم مسئولياته..

وأثبتت النورة أن الشعب المصرى لا يقل استعدادا وقدرة عن غيره من شعوب أوربا فى ممارسة شعائر الثورة الفرنسية ومبادئها التى كانت تسود دول أوربا فى ذلك الوقت ..

وأدرك الشعب المصرى من خلال الثورة العرابية مضمون الاستعمار وأخطاره ، وظلت الحكومة ومجلس شورى النواب فى التضييق على الرقابة الأوربية الثنائية حتى أصبحت عاجزة عن ممارسة أعمال النهب ، وهى التى أتاحت من قبل عددا لا يحصى من المضاربات والمقاولات الصورية بين الحكومة وأفراد المقاولين والماليين

وأكدت الثورة العرابية خلال نضالهـــا ، أن الطريق لتحرير الشـــعب العـــربى لن يتم الا بطرد الاســتعمار التركى المتخلف ، واعلان الجمهورية ·· وتحرير الاقتصاد من الاستعمار الجديد الذى يتسرب على شكل شركات وبنوك ومؤسسات مالية وقروض مشروطة بأرباح باهظة ··

كما كشفت الثورة العرابية عن قوى التضامن العربى ··· فأرسلت الثورة الى الأمير عبد القادر الجزائرى والشيخ السنوسى فى ليبيــا والى عرب طرابلس ·· واتصل رجال الثــورة بالمهــدى فى السودان ·· وجاءت رسائل التأييد من تونس والجزائر ·· وألقيت الخطب تأييدا لعرابى فى مساجد دمشق ·

وهكذا وضعت نواة الكفاح العربى المشـــترك خلال الثــورة العرابية ، لتنمو وتزدهر ··

وأطلقت الثورة العرابية قوى الفــلاحين ، وأثارت مشـــاكل العدالة الاجتماعية ، وطالبت بتوزيع الأرض على الفلاحين ، ونادت بالمســاواة والحــرية والاخاء ·· وكشفت جذور الصراع الطبقى ، وأوضحت معانى الصراع بين قوى تحالف الشـــعب العـــامل وقوى الرجعية والاستعمار ··

لقد أكدت الثورة العرابية ، قدرة الشعب المصرى على ممارسة أسلوب الحياة الجديدة ، وادراك مطالب الحضارة الحديثة ··· ولم تستطع النكسة التى أدت اليها خيانة الرجعية وعدوان الاستعمار أن تحطم روح الثورة العرابية فى نفس الشعب المصرى ، بل ظلت كامنة لتنطلق أقوى مما كانت ·· تأخذ من دروس الماضى ، وتطور الحاضر ·· وتسير الى المستقبل ·

الفصل الخامس

« اخى ، لو شحذوا السيف على
عنقى فلن أركع

ولو فى فمى الدامى حبال سياطهم
تنقع

فلن ارجع عن فجرى ، لن أرجع ؛
لن ارجع

وقد اوشك ان يطلع ؛ قد اوشك
ان يطلع من الأرض التى من ثديها
بركاننا يرضع » .

معين بسيسو

الثورة المضادة

تواجه الثورات فى سيرها ثورات مضادة .. فالثورة ـ وهى قيام طبقة أو طبقات جديدة تريد أن تتسلم السلطة ـ تصطدم فى سبيل ذلك بمقاومة عنيفة من الطبقة المنهارة التى تتشبث بامتيازاتها ، وتريد أن تحافظ على مصالحها وعلى وجودها حتى الرمق الأخير ..

وواجهت الثورة العرابية مقاومة عنيدة من قوى الاقطاع والرجعية فى الداخل .. وقوى الاستعمار التركى والاستعمار الانجليزى والفرنسى من الخارج .

مؤامرات .. واشاعات

قبل أن يبدأ العدوان البريطانى على مصر ، كان قد تحدد موقف الطبقات المختلفة من الصراع ضد الاستعمار .

انحاز الخديو توفيق وأمراء الاقطاع الى جانب الاستعمار منذ الوهلة الأولى للصراع ، ووقف كبار الملاك موقفا وسطا من الثورة ، على حين أيدت جماهير الشعب وقوات الجيش والفلاحون والأعيان قيادة الثورة فى انطلاقها ..

فمنذ تولى الخديو توفيق الحكم ، أخذ يدبر المؤامرات للتخلص من القيادة العسكرية الثائرة ، وقرر القبض على الزعماء الثلاثة أحمد عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى ، ولجأ الى وسيلة قذرة

فاستدعاهم للحضـــور الى ديوان الوزارة لترتيب الاحتفال بزفاف الأميرة جميلة هانم شقيقة الخديو ..

وأحس عرابى ورفيقاه بالمؤامرة ، فأبلغوا زملاءهم الضباط بالدعوة ليرقبوا الحالة ..

وصل عـرابى وصاحباه الى قصر النيـل ، فوجدوا أنفسهم محاصرين بالضـباط الموالين للخـديو ، وكان المجلس العسـكرى منعقدا ، وأصدر القاضى أمرا باعتقالهم ومحاكمتهم ، ونزعت منهم سـيوفهم ، وقادوهم الى قاعة السجن بقصر النيـل بين صفين من الضباط الشراكسة ووجهت اليهم الألفاظ النابية والشتائم ..

ووصلت أنبـاء المؤامرة الى الضـــباط المصريين ، فانطلقوا بقواتهم وأسلحتهم الى قصر النيل ، وأنقذوا الزعماء الثلاثة ..

وفى ٩ من سبتمبر عام ١٨٨١ ، يوم المظاهرة العسكرية ، خرج الخديو لمواجهة عرابى وقوات الجيش ، وعلى يمينه مستر كوكسن قنصل انجلترا فى الاسـكندرية وعلى يسـاره السير أوكلن كولفن المراقب المالى الانجليزى ، وحاول مستر كوكسن قنصل الاسكندرية أن يدفع الخديو الى اغتيال عرابى وأشار عليه بأن يطلق مسدسه على الضابط الثائر ..

وفى أبريل عـام ١٨٨٢ اكتشفت مؤامرة ، قام بها الضـباط الشراكسة لقتل عرابى ورفاقه من كبار رجال الحـركة الوطنيـة ، وألقى القبض على تسـعة عشر ضـابطا ، قـدموا الى المحاكمـة العسكرية ، واعترف أحد الضـباط أن راتب باشا هو الذى دبر المؤامرة وأغرى الضـباط الشراكسـة بقتل عرابى ، وصدر الحكم بادانة أربعين ضابطا تركيـا منهم رفقى باشا ، فحكم بتجـريدهم جميعا من ألقـابهم ونفيهم الى السـودان ، ورفض الخـديو توفيق التصديق على الحكم ، وتمسك عرابى ورفاقه بالتنفيذ ، وثارت أزمة

عنيفة وهاج الرأى العام غضبا على الخديو الذى كشف موقفه العدائى الصريح للقيادة الوطنية ..

وقام أعوان الخديو باغراء الضباط بالمال والمناصب ليقفوا فى الوقت المناسب مع الخديو ، وفكر رياض باشا فى تدبير مشاجرة فى أحد الشوارع يندس فيها من يقتل عرابى .

وتوالت المؤامرات والدسائس فى صفوف الجيش .. مؤامرة يوسف كمال باشا .. ومؤامرة فرج الزينى.. ومؤامرة تعيين داود يكن باشا الشركسى وزيرا للحربية ..

وأخذ الخديو فى تمرين حرسه الخاص على اطلاق النار وكان يكافىء الجند بجنيهات ذهبية لاستمالتهم الى صفوفه .. وأحيط بيت عرابى وعبد العال بالجواسيس ، كما سرت اشاعة فى القاهرة بأن الخديو استصدر فتوى سرية من شيخ الاسلام بقتل عرابى ..

كان هدف القوى الرجعية والاستعمارية التخلص من أحمد عرابى بأى ثمن ، وبأية وسيلة . كان عرابى رمز الحركة الوطنية كلها،كما كان رمزا للتخلص من الرأسماليين الأوربيين الذين نهبوا ثروة مصر . لقد تجمعت فى عرابى أمنيات الفلاحين فى استرداد أرضهم من المرابين ، وأمنيات أصحاب الصناعات فى وقف استيراد السلع الأوربية التى تهدد مصانعهم ، وأمنيات الموظفين فى التخلص من الموظفين الأجانب ، وأمنيات الأعيان فى مراقبة الميزانية وتخفيف الضرائب ، والضرب على أيدى لصوص أوربا .

وكما حاولت الرجعية والاقطاع التخلص من عرابى ، قام الاستعمار بمحاولاته المجنونة ضد الزعيم الذى وقف فى صلابة ضد غزوهم المالى ونهبهم لثروة الشعب ..

وأخذ السير ادوارد مالت يسعى فى حمل محمود سامى

وعرابى وثلاثة من زعماء الحركة ، على أن يوافقوا من تلقاء أنفسهم على ترك مصر نظير معاش سنوى ، واحتفاظهم بألقابهم ، وعهد الى المسيو مونج أحد رجال القنصلية الفرنسية أن يقوم بهذه المهمة لمعرفته اللغة العربية ، ورفض مسيو مونج ، وعهد الى سلطان باشا أن يقوم بعرض الرشوة على عرابى .. وثار عرابى فى وجه سلطان باشا ..

وعرض آل رتشيلد على عرابى مرتبا سنويا ٤٠٠٠ جنيه وعرضت الحكومة الفرنسية مرتبا سنويا آخر قدره ستة آلاف جنيه ، مقابل تركه مصر ..

وفشلت محاولات التخلص من عرابى .. وأخذوا يطلقون الاشاعات والدس ضد الحكومة الوطنية وحركة الجيش ..

وحاول السير أوكلن كلفن تشويه الحكم الوطنى فكتب يقول :

« ان النظام الجديد هو بأسره تحت سيطرة جيش متمرد ظافر .. » .

كما كتب مستر كوكسن يهاجم « عرابى » وحركة الجيش :

« ان ما يتظاهرون به من طموح الى العدل والحرية قد انتهى بأن حلت سلطة الجيش الغاشم محل كل سلطة مشروعة » .

وقال : ان « عرابى » شرع يرقى عددا كبيرا من ضباط الجيش بغير حق ، وأن الخديو اعتمد هذه الترقيات خوف الفتنة ، وكانت الوزارة قد نشرت قانونها الانتخابى الجديد ، فلم ير المستر كوكسن فى هذا القانون غير وسيلة خبيثة لتأييد الحكم العسكرى ، وقال عنه « ان الغرض منه فى هذا البلد أن تكون كل القوة الانتخابية ، لمن رشحتهم السلطة الحاكمة ، والسلطة الحاكمة الآن هى سلطة الجيش » .

وكتب عدة تقريرات عن الاضطراب والفوضى السائدين فى الأقاليم ، كما كتب السير ادوارد مالت القنصل البريطانى عن قلة اكتراث الأهالى بأولياء الأمور المدنيين ، ويعزى ذلك الى سلوك رجال الحزب العسكرى الذين لا يعاملون زملاءهم المدنيين بالاحترام الضرورى لادارة البلاد ، وتحدث عن الرشوة وانتشارها لكثرة التغيير والتبديل فى كبار الموظفين .

وتحدث سير مالت القنصل البريطانى عن الضيق الذى وقع فيه الفلاحون فى سبيل الحصول على المال ، ويقول ان الملاك ينسبون قلة رءوس الأموال ، وما هم فيه من الضيق الى سياسة الحكومة الحاضرة ، التى لا تبعث على الثقة بها .

ولا شك أن سقوط الحكم الاقطاعى الرجعى وقيام العناصر الوطنية بممارسة الحكم لأول مرة يحتاج الى تجارب ويؤدى الى أخطاء ، ولكن الاستعمار والرجعية كانا يجسمان الأخطاء الصغيرة ليحطما الاطار الكبير للحكم الوطنى ، ومما يدعو الى السخرية ، ان سير مالت وسير كوكسن كانا يتحدثان عن الرشوة وهى مهما بلغت لن تصل الى ما حصل عليه الرأسماليون الانجليز من أرباح قرض واحد من قروضهم التى امتصت ثروة الشعب ودم الفلاح .

وكتب تيودور روتشتين يرد على هذه الافتراءات فى كتابه « خراب مصر » يقول :

« الحقيقة أن عهد الوزارة الوطنية كان من أسعد ما رأت مصر وأنه لم يكن عسكرى الصبغة ، بل كان من كل الوجوه أقل العصور تأثرا بارهاب الطبقات العليا ، نعم ان الجيش كان فى ميدان العمل ، ولكنه كان عنصرا حيويا من عناصر الحركة الوطنية »

وكتب السير وليم جريجورى احد الذين انصفوا الثورة

العرابية مقالا فى التيمس ، يفنـــد فيه الافتراءات التى وجهت الى الجيش قائلا :

« لست أخشى القول بأنه قد ارتكب من الفظائع العسكرية فى لندن وحدها فى شهر واحد أكثر مما ارتكب فى مصر كلها منذ ذلك اليوم المشهود يوم ٩ من سبتمبر ، يوم أصبحت يد الضباط هى العليا ، ومع ذلك لم يقل أحد بأن الجيش الانجليزى متمرد عاص .. ان فى مصر حزبا وطنيا يشمل الامة المصرية بأجمعها اذا استثنينا بالطبع طبقتى الاقطاع والمترفين » .

كما كتب يقول :

« انى لكبير الأمل بأن المساوى القبيحة التى لاتزال فاشية فى البلاد سيقضى عليها بالصبر والأناة شيئا فشيئا ، ولا شك أنه لولا وجود يد قوية فى الحركة الوطنية ما تم اصلاح يذكر .. »

ولا شك أن مستر مالت وكوكسن والدوائر الاســـتعمارية وقوى الخيانة فى الداخل كانت تتعمد تشويه الحكم الوطنى وابراز اخطائه والطعن فى أعماله ، حتى تمهد للتدخل البريطانى بعد أن رأت مصالحها المادية فى السلب والنهب مهــددة بالزوال أمام نمو القوى الوطنية .

ولعل كلمات مستر روزل ، تكشف لنا عن مدى الحقد الذى كان يحمله البريطانيون للشعب المصرى من وجود الحكم الوطنى . وبكائهم على زوال أيام الطغيان .. كتب يقول :

« ان الحاكم الشرقى اذا حرم كرباجه ، وحظر عليه أن يسجن من يشاء عجز عن سياسة قوم اعتادوا منذ القدم أن يخضعوا لحكومة فردية قوية .. ان الطريق الذى سارت فيه الحركة منذ عام جعــل الفلاح يعتقد أنه يستطيع الوصول طفرة الى ما يقال له انه حرية »

وبذلت القوى الاستعمارية ، كل جهد فى نشر الاشاعات داخل مصر وخارجها ، واستأجر رءوس الأموال صفحات الصحف الصفراء لنشر أكاذيبهم ومفترياتهم ضد الحكم الوطنى ·· ولم يكن هدفهم سوى عودة أسلوب سرقة الخزانة المصرية ونهب ثروة الفلاح المصرى ··

دول من اللصوص :

لم تكتف الثورة المضادة بالاشاعات والمؤامرات والافتراءات، بل قامت الدوائر المالية فى أوربا بحملة محمومة ضد الحكم الوطنى بدعوى انقاذ ديونها ، وحماية أصحاب رءوس الاموال من الجماعة العسكرية فى مصر ·

• عرض رئيس وزراء انجلترا على فرنسا اقتراحا بأن يرسل الباب العالى فى تركيا الى مصر قائدا يعطى السلطة التامة فى اعادة النظام الى الجيش المصرى ، وأن يرافق هذا القائد قائدان آخران أحدهما انجليزى والثانى فرنسى ، وأن يتبع القائد التركى مشورة هذين القائدين ··

• وصرح غمبتا رئيس وزراء فرنسا أنه :

« يعارض أشد المعارضة فى أى تدخل من جانب المجلس فى أمر الميزانية ·· »

ويرى ··

« أنه يجدر بفرنسا وانجلترا ألا تلين قناتهما لئلا يشجع ترددهما ما يطمع فيه الأعيان من بسط سلطتهم على الميزانية »

• وبرز بسمارك ، وأرسل باسم الحكومتين الألمانية والنمساوية احتجاجا شديدا الى الحكومة المصرية على الطريقة التى

تنوى أن تتبعها فى معاملة أصحاب الديون السائرة ، وعلى توانيها فى اجابة مطالبهم ، وأرسل فى الوقت نفسه الى حكومتى انجلترا وفرنسا مذكرة جاء فيها أن « المانيا لا تقصد غير الدفاع عن مصالح رعاياها المالية وانها تترك المسألة السياسية لانجلترا وفرنسا . »

.. وهكذا تتكشف أهداف الثورة المضادة عن رغبة الدول الرأسمالية والاحتكارات العالمية فى المحافظة على ما نهبته وما تريد أن تنهبه من مصر ..

وكان غمبتا رئيس وزراء فرنسا ، يهدف الى تقوية مركز فرنسا فى الخارج بتشديد قبضتها على شمالى افريقيا وتقوية علاقاتها بانجلترا ، وكان من رأى غمبتا أن أوربا بوجه عام وفرنسا بوجه خاص ، لا تصنع الديمقراطية للتصدير، ولهذا كان ينظر الى الحركة الوطنية فى مصر بعين الاحتقار ويعتبرها « تعصبا اسلاميا » أو « أوهاما ثورية » وعصيانا عسكريا ، ولهذا كان يتوق الى اخماد أنفاس الحركة الوطنية المصرية قبل أن تستفحل وتؤدى الى ازدياد المقاومة للاستعمار الفرنسى فى شمالى افريقيا .

وكان غمبتا على اتصال بالماليين اليهود وأخصهم آل روتشلد الذين كانوا يحملون معظم سندات الدين المصرى ، ويهدفون الى تشديد القبضة على مصر ضمانا لأموالهم .

ولم يكن غمبتا رئيس وزراء فرنسا هو وحده رجل الدولة الذى تربطه علاقات المصلحة والصداقة مع الاحتكاريين والرأسماليين العالميين ، فكان اللورد غوشن أحد وزراء الأحرار فى بريطانيا رئيسا لبنك فرهلنج وغوشن ، وهو البنك الذى عقد أول قرض لمصر بفائدة ٨٪ ، وطالب غوشن بعد ذلك بلجنة تحقيق لبحث حالة الميزانية المصرية ، وكان معنى ذلك تسليم ميزانية البلاد الى الاجانب

والسماح لهم بالتصرف فيها وفق أهوائهم ، كما كان هدفهم فرض ضرائب جديدة والاستيلاء على موارد اخرى ..

وارتبطت أهداف الاقطاع والرجعيـــة فى الداخل ، بأهداف الاستعمار العالمى .. فأرسلت فرنسا وانجلترا مذكرة مشتركة الى الحكومة المصرية ، جاء فيها :

« فالمرجو أن تبلغوا توفيق باشا بأن الحكومتين الفرنســية والانجليزية تعتبران أن تثبيت سمو الخديو على العرش طبقا لأحكام الفرمانات التى قبلتها الدولتان رسميا هو الضمان الوحيد فى الحال والاستقبال لاستتباب نظام وتقدم وسعادة مصر ورفاهيتها ، وهى الأمور التى تنظر اليها فرنسا وانجلترا بعين الاهتمام ، والحكومتان متفقتان اتفاقا وطيدا على بذل جهودهما المشتركة لمقاومة كل أسباب المشاكل الداخلية والخارجية التى قد تهدد النظام القائم فى مصر ، ولا يخامرهما شك فى أن الجهر بعزمهما فى هذا الصدد سيكون له أثره فى انتفاء الأخطار التى يمكن أن تستهدف لها حكومة الخديو .. ومن المحقق أن هذه الأخطار ستلقى من فرنسا وانجلترا اتحادا وثيقا للتغلب عليها وتعتقد الحــكومتان أن ســمو الخديو يجد من هذه التأكيدات الثقة والطمأنينة والقوة التى هو فى حاجة اليها لادارة شئون الشعب المصرى والبلاد المصرية » .

وقابل الشعب المصرى المذكرة الاستعمارية بالسخط العـام فى حين قبلها الخديو شاكرا بطبيعة الحال ..

وأرسلت فرنسا وانجلترا أسطولا الى الاسكندرية للقيـــام بمظاهرة عسكرية تأييدا للخديو وتهديدا للثورة .

وأخذت الصحف التى كانت تمولها القنصلية البريطانية فى نشر المقالات العنيفة ضد عرابى والحركة الوطنية .

وفشلت كل المحاولات التى بذلت لابعاد عرابى واسقاط الحكم الوطنى ، وبدأ التمهيد للتدخل العسكرى الاستعمارى بعد أن لمس الرأسماليون الاوربيون اصرار الحكومة الوطنية على مراقبة الميزانية .

الرجعية فى الداخل

وقف كبار ملاك الاراضى فى مصر بجانب الثورة العرابيه عندما أحسوا أن أملاكهم مهددة بالضياع أمام زحف القروض الأجنبية وزيادة الضرائب لسداد الأرباح ..

وكان يمثل هذه الجبهة شريف باشا وسلطان باشا ..

كان الاستعمار يرسم ويخطط للفصل بين العناصر المدنية والعناصر العسكرية فى الثورة .. وكان السير أوكلندا كلفن يأمل أن تكون العناصر المدنية فى الحركة الوطنية أكثر اعتدالا وأسلس قيادا من الجيش ، وأنه اذا تحقق هذا الأمل وأمكن التخلص من الجيش وقواده بوسيلة من الوسائل أمنت عواقب الثورة .

وكان يرى أن ليس فى هذه الخطة شيء مستحيل التنفيذ ، فان الحزبين اللذين قاما بالحركة الوطنية كانا يمثلان فى الحقيقة طبقتين مختلفتين متضادتين فالأعيان يكونون طبقة الملاك الموسرة ومعظمهم من الأتراك والشراكسة ، أما الجيش فرجاله من الفلاحين .

وشريف باشا نفسه كان تركى الأصل ومن أغنى أغنياء مصر ، لذلك كان آخر ما يرغب فيه أن يدافع عن حقوق الفلاحين ،

على حين كان ضباط الثورة يخطبون فى الفلاحين ويؤكدون لهم ان الاراضى التى يمتلكها الأثرياء من حق الفلاح .

وظهرت بوادر خيانة الرجعية عندما أكد شريف باشا للسير ادوارد مالت أنه ينوى « فى المستقبل دعوة مجلس شورى النواب للانعقاد ، وأنه يأمل أن يصبح هذا المجلس الممثل الشرعى لحاجات مصر الداخلية ، وبذلك تزول عن الجيش الصفة التى انتحلها لنفسه فى الحركة الأخيرة » .

وكشف شريف باشا عن حقيقة موقفه من الشعب ، بعد أن رفعته الثورة وجعلت منه رئيسا للوزارة الوطنية ..

وظهر الخلاف الشديد بين شريف باشا وعرابى عندما صدر الأمر العالى بعقد مجلس شورى النواب ، فان « شريف » كان يريد أن ينتخب المجلس على القاعدة الضيقة : قاعدة عام ١٨٦٦ التى لا تسمح بممثلين جدد لطبقات الشعب ، وكان عرابى يصر على تنفيذ قانون الانتخاب الأكثر ديمقراطية والذى وضعه شريف باشا نفسه في الأشهر الأخيرة من عهد اسماعيل ، والذى حال عزل اسماعيل دون تنفيذه ، ولا شك أن « عرابى » كان على حق ، فمن العدل أن يبدأ النظام الجديد الذى أقامته ثورة ٩ من سبتمبر بترقية النظم السياسية بحيث تقف سدا فى وجه التدخل الاوربى ، ودافع عرابى عن رأيه بمنتهى الشدة وأيده كثير من الأعيان ، ولكن « شريف » لم يتراجع عملا بنصيحة المراقب البريطانى السير أوكلند كلفن .

وظهر موقف شريف باشا المتردد والمتخاذل عند وضع القانون الأساسى لتحديد سلطة البرلمان ، وقرر شريف بعد استشارة المراقبين الأجانب ، ألا يكون للمجلس اختصاص البحث فى جزية

الباب العالى والدين العام ، وكل النفقات التى فرضها على الخزانة قانون التصفية وغيره من اتفاقيات الديون والقروض الدولية ٠٠

ورفض مجلس النواب هذه اللائحة ، واجتمع النواب ووضعوا لائحة جديدة ، نصت على عرض الميزانية على مجلس النواب لبحثها ومناقشتها ، وقام وفد من النواب وتوجه الى سراى عابدين وطلب من الخديو تشكيل حكومة لاقرار اللائحة الجديدة ٠

واستقال شريف ٠٠ وانفصل عن الثورة ، بعد أن لجأ الى القنصلين الانجليزى والفرنسى يطلب منهما تقديم احتجاج على موقف مجلس النواب ٠٠

رجل آخر اسمه محمد سلطان باشا ٠٠

بدأ سلطان حياته فلاحا بسيطا فى نواحى المنيا ، واستطاع تحت حكم اسماعيل أن يصل الى المناصب العليا ، على الرغم من عدم حصوله على التعليم الكافى ، وأصبح مفتشا عاما على الوجه القبلى واستطاع أن يستغل منصبه فى الاستيلاء على مساحات شاسعة الأطراف من الاراضى فى مديرية المنيا ، بحيث أصبح من كبار أعيان البلاد ، ان لم يكن عميدهم ، وكان سلطان ينتهج أسلوبا انتهازيا منذ بداية الثورة ٠٠ أقام علاقات سرية مع الخديو ، وتظاهر بتأييد الثورة فاختير رئيسا لمجلس شورى النواب ، وظل يترقب الفرصة حتى استطاع أن يغرى بعض النواب بالانشقاق على الثورة ٠٠ ولكن غالبية المجلس ظلت على ولائها للثورة ٠

وحاول سلطان أن يستميل بعض الوزراء الى صفه بحيث يستطيع عزل عرابى والبارودى ، ثم تنحيتهما عن الحكم ولكنه فشل ٠

وحدث العدوان ٠٠ وانضم سلطان الى صفوف القوات الانجليزية ، وكان على رأس الخيانة ٠٠

وعلى أثر وصول الأسطول البريطانى الى ميناء الاسكندرية انقسم النواب ، وانضم العدد القليل من الأثرياء والاقطاعيين الى صفوف الخديو والانجليز ..

سلطان تركيا :

كانت تركيا تمثل الاستعمار المتخلف الذى يكتفى بالحصول على الجزية والرشوة والهدايا .. وكان السلطان ورجال حاشيته يبيعون الألقاب والنياشين لأمراء مصر وأثريائها .

وظلت تركيا على حالتها من التخلف ، ولم تقم فيها صناعات او رءوس أموال تنافس الشركات والرأسماليين الاوروبيين. وأطلق على تركيا فى ذلك الوقت لقب « الرجل المريض » .. وكانت الدول الاستعمارية تترقب وفاة هذا المريض لترث التركة وتوزع دول الخلافة بينهم ..

ووقف السلطان من الثورة العرابية موقفا عدائيا ولو أنه فى نفس الوقت كان فى خوف من احتلال انجلترا وفرنسا لمصر ..

وفكر السلطان فى ارسال جيش احتلال ليعيد نفوذ الخلافة سيرته الاولى قبل محمد على ، ولكن انجلترا وفرنسا حالت دون تنفيذ الفكرة ..

وأخيرا أوفد السلطان وفدا الى مصر دون علم الدول الاوروبية وكان هدف البعثة ، تأكيد سلطان الخديو وتصفية الثورة وحل مجلس شورى النواب والقبض على الوطنيين ..

ووصلت البعثة الى الاسكندرية وطلب رئيسها من المصريين اطاعة الخديو ممثل السلطان ، ولكن البعثة أدركت أن الشعور العام فى صف عرابى .. ثم حاولت استمالة رجال الازهر فردوا عليهم

بعنف ،ووقف أحد شيوخ الأزهر أمام البعثة مندداً بموقف الخديو توفيق وطالب بعزله ..

وفى اليوم التالى قام طلبة الأزهر بالمظاهرات تأييدا لعرابى ضد السلطان ..

وعادت البعثة الى تركيا بعد أن نال رئيسها من الخديو ٥٠ ألف جنيه رشوة وهدايا ذهبية ..

وكشف الاستعمار القديم عن وجهه ، عندما هبطت القوات الانجليزية فى الاسكندرية .. وأمام ضغط بريطانيا وافق السلطان على اعلان « عصيان عرابى » .

وهاج الرأى العام العربى والاسلامى ، وأرسلت خطابات مجهولة الى السلطان تهدده بالخلع ، وفى الآستانة قام شيوخ المساجد بالدعاء لعرابى فى خطبهم .. ودعا أحد الخطباء الى حمل السلاح دفاعا عن مصر ..

وأراد السلطان أن يصفى الموقف فى مصر عن طريق العلماء ، فكتب اليهم يطلب منهم أن يمنعوا المصريين من ارسال المؤن والمتطوعين الى عرابى ، وأن يقنعوا عرابى بالقاء السلاح باسم الشريعة ، ورد ثلاثة من كبار علماء الأزهر على السلطان يحذرونه من هذه السياسة ويقولون له انهم انما يطيعون أوامره وأوامر الخديو طالما أنها تتمشى مع أحكام الشريعة ، وأنهم سيعتبرون «عرابى» قائدا عاما للقوات المصرية ، طالما أن أعماله تتمشى مع الشريعة وأن المصريين لن يلقوا السلاح ، الا اذا انسحب الانجليز من الاسكندرية ، وأنهم مجمعون جميعا على المطالبة بخلع توفيق ، وعلى أن القضية المصرية ليست متصلة بشخص عرابى بل بخلاص البلاد ..

وسافر أحد علماء الأزهر الى دمشق مندوبا عن عرابى وقابله معظم العلماء وأعيان المدينة وجماهير الشـــعب السورى بالتأييد والدعاء لعرابى ..

وظلت الغالبية العظمى من رجال الأزهر وشيوخه على ولائها للثورة باستثناء أقلية كان على رأسها شيخ الاسلام محمد العباسى الذين ظلوا سندا للخديو وتلقوا مقابل ذلك الهدايا والنياشين من السلطان ..

وقررت الغالبية العظمى من العلماء خلع الشيخ محمد العباسى من منصبه وتنصيب الشيخ محمد الانبابى شيخا للاسلام وكان يمثل رجال الأزهر المتحررين ويعبر عن وجهة النظر القومية .

وأصدر علماء الأزهر فتوى بأنهم لن يطيعوا الســلطان اذا ما انضم الى الأوروبيين .

وأعلن الشيخ عليش أحد علماء الازهر فتواه بأنه لا يصح أن يكون توفيق حاكما بعد أن باع مصر لأعدائها واتباعه نصـــائح الانجليز ، ولذلك وجب عزله ، وأن مصر تؤيد « عرابى » ..

خيوط المؤامرة :

كشفت سنوات الثورة عن أعداء الشعب المصرى ، كما كشفت عن أصدقائه ..

وقف أصحاب المصالح المشتركة معـا .. تركيا التى كانت تنهب جهد وقوت الشعب بأخذ الجزية والهدايا والرشـــاوى .. انجلترا وفرنسا والنمسا الذين كانوا يمثلون دول الاستعمار الجديد فى ذلك الوقت وكان هدفهم ســـيطرة الشركات وأصحاب رءوس الأموال الأجانب على ميزانية الشعب المصرى ، ثم الخديو والاقطاعيون

الذين ابتزوا دم الشعب وسكبوه فى ملذاتهم وشـهواتهم وأقاموا القصور وعاشوا حياة البذخ على حساب الشعب ٠

ومنذ اليوم الأول لقيام عرابى أيد سـلطان تركيا تثبيت توفيق على العرش ٠

وكما يقول محمود الخفيف فى كتابه « أحمد عرابى » :

« كان توفيق يسلك تجاه الثورة العرابية مسلك لويس تجاه الثورة الفرنسية ، مع فارق واحد وهو أن الخديو ، كان من ورائه الانجليز ٠ فلما لجأ اليهم توفيق لم يقض هذا العمل عليه ، وانما قضى على مصر ٠٠ »

ألقى الخديو بنفسه فى أحضان الانجليز منذ استعان بالمراقب الانجليزى لمواجهة مظاهرة عابدين العسكرية ٠٠

وظل توفيق على اتصال دائم بقناصل انجلترا وفرنسا يطلعهم على المطالب العرابية والأزمات الوزارية ، ويأذن لهما بمصاحبته وهو يستقبل الوزراء ٠

وحاول توفيق أن يضرب الثورة بمؤامرات الاغتيال والدس ، كما حاول استغلال سلطاته ، فأقال شريف باشـا ثم تراجع ٠٠ وأقال وزارة البارودى ، ولكنه كان أضعف من أن يحقق سلطانه٠٠ وعزل « عرابى » من وزارة الحربية ، فقامت جمـاهير الشعب ، والهيئات ، ورجال الدين الاسلامى والمسيحى وكل الطوائف وأعادت « عرابى » ٠٠

وتأكد الخديو توفيق أنه أضعف من أن يواجه الشعب وحده ولجأ الى أحضان الانجليز ٠٠

وقام كلفن العضو الانجليزى فى لجنة المراقبة المالية بتخويف

توفيق من السلطان والعرابيين .. كما قام كلفن ومالت القنصل البريطانى بتضليل الرأى العام فى الداخل والخارج ، بالسيطرة على الصحف والصحفيين المأجورين ، وكان كلفن نفسه مراسلا لاحدى الصحف ، وكان مراسل التيمس يستقى منه المعلومات ، أما شركتا روتر وهافاس فقد كانت كل منهما تعطى ألف جنيه فى العام من خزانة مصر ! ..

وعلى اثر مظاهرة ٩ من سبتمبر ، كتب كلفن تقريرا قال فيه:

« أرى أن ليست الحالة الحاضرة بطبيعتها الا هدنة وأن ما وصلنا اليه من التسوية ليعطينا مهلة نستجم فيها ونلم فيها بالقوى التى تعمل حولنا ونسعى فى الاستفادة منها أو القضاء عليها » .

وفى ديسمبر عام ١٨٨١ ، اتصل وزير خارجية انجلترا اللورد جرنفل بوزير خارجية فرنسا ليون غمبتا وطالبه بتضامن الدولتين فى العمل ازاء ما يحدث فى مصر .

وأرادت انجلترا أن تمنع مجلس شورى النواب من النظر فى الميزانية ، وكتب القنصل البريطانى الى وزير خارجيته :

« ان التدخل المسلح سيصبح أمرا ضروريا ومحتوما اذا تشبثنا بمنع المجلس من التصويت على الميزانية .. »

وبدأت الدولتان تعدان العدة للتدخل المسلح والعدوان على مصر .. وارسلت الدولتان مذكرة الى الحكومة الوطنية تطالبان فيها بابعاد عرابى من مصر ، وارسال على فهمى وعبد العال بعيدا عن القاهرة واستقالة الوزارة ..

وجاء فى الانذار أن هذه المطالب تقدم بناء على وطنية سلطان باشا ! ..

وهكذا التقت الدول الاستعمارية والخديو وسلطان باشا ..

ورفضت الحكومة الوطنية مذكرة القوى الاستعمارية ..

كان الصراع يجرى بسرعة وعنف .. وأدت التناقضات دورها بين القوى الرجعية .. ووجدت تركيا نفسها بعيدا ، بعد أن مهدت لانجلترا وفرنسا تدخلهما .. ثم بدأت انجلترا ترسم لابعاد فرنسا .. انه صراع الرأسماليين على اقتسام الاسواق والغنيمة من عمليات النهب .. وحاولت فرنسا أن تحتفظ بالنفوذ الأكبر لها فى مصر ..

وكتبت « التيمس » اللندنية ترد على الاشاعة القائلة بأن انجلترا وفرنسا على وشك اعلان حمايتهما المشتركة على مصر ، يقول :

« ان فكرة احتلال انجليزى فرنسى لمصر لا تلقى استحسانا ، ان طول عهدنا بالادارات الثنائية التى يقف فيها تنافس الرءوس عقبة فى سبيل التقدم يجعلنا نشك فى استقامة العمل مع مثل هذا الاشتراك .. كذلك يتساءل الناس ، ماذا لفرنسا من المصالح الحقيقية فى مصر ؟ .. لا شك أن مصرفا من مصارف باريس الكبرى قد تورط فى اقراض مصر ، ولكن خمس سنين من الحماية الانجليزية كفيلة بنجاته من ورطته » .

وهكذا لم يعد الحديث عن احتلال مصر مغلفا بكلمات السلام أو حماية الخديو أو استتباب الأمن بل أعلنت الدوائر المالية الانجليزية أهدافها الحقيقية وهى أنها قادمة لجباية الضرائب وجمع الأموال لسد نهم الرأسماليين فى انجلترا وفرنسا وتسديد أرباحهم وأقساط قروضهم ، وفتح الأبواب أمام الشركات وجعل مصر سوقا لبضائعهم ورءوس أموالهم ..

وحاولت انجلترا تهدئة الحالة لتنفرد بالعمل ، وبعد أن تقرر

ارسال سفن فرنسـيـة وانجليزية ، عادت انجلترا وسحبت هى وفرنسا قطعهما البحرية بعد أن ظلت ٢٤ سـاعة فى ميناء الاسكندرية ٠٠

وكانت كلما اشتدت التهديدات والانذارات الاستعمارية من جانب فرنسا وانجلترا ، كان أعضاء مجلس شورى النواب يتمسكون بحقوق الشعب ، وكانت الجماهير تعلن تأييدها لعرابى وتنـادى باسقاط الخديو ورفض الانذارات والتهديدات ٠٠

وقد أقر مجلس شورى النواب لائحـة المجلس الجديدة وكان من أهم مواد القانون الجديد :

• المادة التى تنص على « أن للنواب حق مراقبة أعمال الموظفين العموميين فى دور انعقاد المجلس ٠ »

• والمادة التى تنص على أن كل معاهدة أو تعاقد بين الحكومة وطرف آخر وكل امتياز أو التزام ، لا يكون قانونيا الا بعد موافقة المجلس ٠

وكان هذا اسوأ نذير للموظفين الأوروبيين الذين لم يكن لهم فى مصر غير السلب والنهب ٠

وأخذ المجلس فى تطبيق هذه المواد ، وأرسـل القناصل تقريرات تصف « الاضطراب الذى بدأ ينتشر » ٠

وأمام الأخطار ازداد تحالف قوى الشعب ترابطا ، واندفعت جموع البوليس ورجال الجيش والعمال والفلاحون الى جانب الثورة٠

موقف الثورة :

حاولت الثورة أن تحدد موقفها من أعدائها فى الداخل والخارج بعد أن تبين لها موقف القوى المعادية ٠٠

وناقش رجال الثورة مع علماء الأزهر فكرة اقصاء الخديو واسقاط الحكم الملكى واعلان الجمهورية ·· فاعترض العلماء ، ويذكر الشيخ محمد عبده أن الوطنيين وجدوا بعض العلماء غير مستعدين تماما لهذه الفكرة ، وأنهم كانوا متخلفين عن زمن الثورة.

كما كان من الصعب ضرب قوى الرجعية التركية على حين أن عددا كبيرا من ضباط الجيش من الأتراك والشراكسة ··

واعتمد عرابى على قوة الثورة ، وموقف الطبقة الوسطى داخل مجلس شورى النواب وتأييد الجماهير فى تدعيم الثورة والسير بها الى الأمام ··

وكان فى استطاعة عرابى أن يحقق أهداف الثورة ، لو أن القوى الاستعمارية لم تتدخل وتخلق هذا الترابط بينها وبين القوى المعادية فى الداخل ··

ولم تكن هناك قوى خارجية تؤيد « عرابى » ، فلم يجد حوله قوى صديقة ، بل كان العالم فى ذلك الوقت تتقاسمه الدول الاستعمارية وتوزع الاسلاب وتتنازع على الاسواق ، وتزحف بشركاتها ورءوس الاموال ··

·· ووقف الشعب المصرى ، أمام الثورة المضادة بكل قواها ·· قوى الاستعمار المالى من الخارج وقوى الرجعية من الداخل ··

وأوشك الشعب على الانتصار ·· ولكن اللحظة الحاسمة لم تكن قد أتت ··

وجاء العدوان ··

كان الهدف من العدوان ، هو التخلص من عرابى والحكومة الوطنية وحل مجلس شورى النواب ·· لاعادة الرقابة الأوربية على الميزانية ، وضمان سداد الأرباح والقروض ··

وكانت الدول الاستعمارية تدرك ، أنه طالما بقى عرابى على رأس الثورة ، فلن يحققوا أهدافهم من نهب الخزانة المصرية ، وفرض الضرائب على الفلاحين ·· فالثورة تمضى فى طريقها من انتصار الى انتصار ··

وأعلن عرابى ··

« لتتأكد انجلترا أن أول بندقية تطلقها على مصر ستحرر المصريين من كل المعاهدات والاتفاقيات ، ومعنى ذلك انهاء الديون والرقابة .. سندمر قنواتنا ونقطع مواصلاتنا ، وتم الاتفاق مع الزعماء المدنيين فى كل بلد فى سائر أرجاء العالم الاسلامى ، وانى أحذر مرارا وتكرارا من أن أول ضربة توجهها بريطانيا أو حليفاتها الى مصر ستتسبب فى اسالة الدماء انهارا فى طول آسيا وأفريقيا وعرضهما » ·

وهدد عرابى بحرق المدن ، كما أحرق الروس موسكو فى عام ١٨١٢ أمام زحف نابليون ، وكما قطع الهولنديون قنواتهم عام ١٦٧٤ ·

وعلق الكاتب الانجليزى بلنت صديق عرابى على هذا القرار بقوله :

« ان هذا هو القرار اليائس الأخير الذى اتخذه شعب يرى نفسه مهددا بخضوعه مرة أخرى للعبودية » ·

ولكن « عرابى » لم يستطع أن يحقق تهديداته وقراراته بعد أن طعنه السلطان باسم الدين وأعلن عصيانه ، فتحطمت وحدة القوى الاسلامية ، كما تآمرت قوى الخيانة والرجعية فى الداخل وتحالفت مع قوى العدوان ، واستسلم عرابى بعد أن وجد نفسه وحيدا مع الشعب ضد العدوان والتآمر ··

ولكن الشعب لا يموت ·· فليست الثورة الا حلقة من سلسلة معارك سابقة وانتصارات قادمة ··

الفصل السادس

« كان مثلي يتألم

كان سرا مغلقا لا يتكلم

كان يعلم :

انه لا بد هالك

وستبقى بعده الشمس هنالك

فى ليالى بعثها شمس الجزائر

تلد الثائر فى اعقاب ثائر » —

عبد الوهاب البياتي.

العدوان الاستعمارى

كان العـدوان وما زال الوسـيلة البدائية لتحقيق أهداف الانسان المتخلف .. فلا يكفى التقـدم الصـناعى أو العلمى لخلق الانسـان المتحضر ، بل هناك الشـعور الانسانى الذى يكمن فى الايمان بالمساواة والاخاء والحب المتبادل ..

ولكن الرجل الذى يجعل أهدافه جمع الثروة والثراء ولو على أشلاء الأطفال وجثث النساء ودماء الشعوب ، وجوع الملايين ... مثل هذا الانسان يحطم كل شىء فى سبيل نزواته .

ومنذ ظهـرت النزعـة الرأسـمالية واتجهت الى التوسـع والاستعمار ، وشعوب العالم تتمزق تحت وابل الرصاص وانفجار القنابل ووحشية أعمال القتل ..

مؤامرة قذرة

واجهت الثورة العرابية العدوان .. أرسل الخديو مبعوثـا خاصا الى أوروبا يسـتعدى الدول الكبرى على الحـركة الوطنية ، ويطالب بالتدخل الأوروبى المسلح ، مفضلا أن يكون هذا التدخل انجليزيا ..

ولم يكن الخديو فى حاجة الى السقوط فى هذه الفعلة الشنعاء ، فان انجلترا كانت تدبر للعدوان دون وسيط .. وأرسل قنصلها فى مصر مستر مالت الى لندن يقول :

« اننى أرى ضرورة حدوث ارتباكات حادة قبل الوصول الى أى حل شاف للمسألة المصرية ، وأنه من الحكمة التعجيل بهـــذه الارتباكات بدل محاولة تأخيرها » ٠

ولكى تحدث هذه الارتباكات ، قام مالت بالاتفاق مع القنصل اليونانى بتسليح الجاليتين اليونانية والبريطانية فى الاسكندرية٠٠

وفى ١١ من يونيــه تعرضت الاســكندرية لمذابح داميــة بين الوطنيين والأجانب قتل فيها عدد كبير من الجانبين ٠

وأعلن فى مجلس العموم البريطانى فيما بعد أن هذه المذبحة دبرت بالاتفاق بين الخديو ومحافظ الاسكندرية ٠٠

وذكر الشيخ محمد عبده فى مذكراته أن الخديو وقت الحادث أبرق الى محافظ الاســكندرية أن يســتعين بجنود من الأســطول البريطانى ، لا بفرق من الجيش المصرى ؛ كأنما يستعجل توفيق الاحتــلال ويخشى أن تفلت الفرصـــة من يده ٠ ويقــول الشــيخ محمد عبده :

« وفى يوم الحادث توجهت الى السراى فرأيت موظفيها فى جذل عظيم مما حدث وكانوا يبالغون فى رواية الأخبــار ويضحكون من عهد عرابى بالمحافظة على الأمن العام »

وأعلنت انجلترا أنها لا تثق فى استتباب الأمن والنظام ٠٠

وهــكذا توافرت الفرصـــة لانجــلترا لتحقيق ســـياســتها الاستعمارية ٠٠ وادعى قائد الأسطول البريطانى الذى كان يرابط فى الاسكندرية أن الســلطات العســكرية فى مصر تقــوم بتحصين طوابى الاسكندرية وسد مداخل المدينة خلف الأسطول البريطانى ٠

وفى ١٠ من يوليو أنذر القائد البريطانى بأنه ســـيضرب

الاسكندرية بعد مضى ٢٤ ساعة ، اذا لم تسلم قلاع الاسكندرية ليحتلها وينزع سلاحها . وبلغت انجلترا الدول بهذا القرار وذكرت أن ضرب الاسكندرية انما هو دفاع شرعى عن النفس ! .

وقرر عرابى رفض طلب القائد البريطانى ووافقه مجلس الوزراء .. وذكر عرابى فى مذكراته :

« تقرر بالمجلس المذكور بأنه لا يمكن اجابة طلب الأدميرال المذكور لما فى ذلك من الخزى والعار الذى يلحق بالمصريين الى الأبد حيث ان الاستحكامات والطوابى المذكورة ما أنشئت الا لحفظ الثغور والعساكر وما وجدت الا للدفاع عن الوطن العزيز والذود عن حياضه ، فلا يجوز لهم أن يخربوا معاقلهم بأيديهم لمجرد طلب العدو الطامع فى بلادهم ، بل الواجب عليهم أن يدافعوا عن بلادهم ويقوموا بما تحتمه عليهم واجباتهم الحربية الى آخر رمق من حياتهم دفاعا عن شرف الوطن .. » .

وكان الخديو قد هرب من القاهرة الى الاسكندرية وفى تلك الليلة انتقل من سراى رأس التين فى موكبه الرسمى الى سراى الرمل وبقى بها حتى تم الاحتلال وعاد الى سراى رأس التين وتلقاه الأدميرال الانجليزى ووضع البوارج على مقربة من القصر لحمايته .

وعندما سأل أحد الضباط المصريين ، الخديو توفيق عن رأيه لو ضرب الانجليز الاسكندرية ..

فرد الخديو :

« فلتحترق المدينة جميعها ولا يبقى فيها طوبة على طوبة ، حرب بحرب ، كل ذلك يقع على رأس عرابى ، وعلى رءوس أولاد الكلب الفلاحين .. » .

وفى الساعة السابعة من صباح ١١ من يوليو عام ١٨٨٢ ،

أطلق الأدميرال البريطاني أولى قذائفه على مدينة الاسكندرية ..

وظل تبادل النيران مستمرا بين قطع الأسطول وقلاع الاسكندرية من الساعة السابعة صباحا حتى الواحدة والنصف وكان الدفاع حتى تلك اللحظة رائعا ..

ثم استأنف الاسطول الضرب بعد الثانية واستمر يرسل قذائفه الوحشية على القلاع والبيوت ، واندلعت النيران ..

ووقف الشعب مع جنوده فى بطولة رائعة يدافع عن مدينته ويذكر عرابى فى مذكراته :

« وفى أثناء القتال تطوع كثير من الرجال والنساء فى خدمة المجاهدين ومساعدتهم فى تقديم الذخائر الحربية واعطائهم الماء وحمل الجرحى وتضميد جراحهم ونقلهم الى المستشفيات » .

وقال الشيخ محمد عبده :

« تحت مطر الكلل ونيران المدافع كان الرجال والنساء من أهالى الاسكندرية هم الذين ينقلون الذخائر ويقدمونها الى بعض الطوبجية الذين كانوا يضربونها ، وكانوا يغنون بلعن الأدميرال ومن أرسله » .

وقال محمود فهمى باشا :

« ورأيت فى ذلك الوقت بعينى ما حصل من غيرة الأهالى بجهة رأس التين وأم كبيبة وطوابى باب العرب ، وهمتهم فى مساعدة عساكر الطوبجية من جلبهم المهمات والذخائر وخراطيش البارود والمقذوفات هم ونساؤهم وأولادهم وبناتهم ، والبعض من الأهالى صار يعمر المدافع ويضربها على الأسطول » .

وظل رجال المدفعية المصرية يطلقون قذائفها فى حماسة أدهشت خصومهم كما قال جون نينيه .

ولكن قذائف المدافع المصرية ، كانت تسـقط فى البحر فى منتصف المسافة بينها وبين سفن الأسطول ، وعلى الرغم من ذلك أصابت المدفعيـة سـبع مدرعـات اصـابات بعضها خطير وبعضها ضئيل ..

ويصف جون نينيه أحداث ذلك اليوم قائلا :

« لقد أدى الجميع واجبهم رجالا ونساء كبارا وصغارا ولم تكن ثمة أوسمة أو مكافآت تستحث أولئك الفلاحين على أداء واجبهم ، وانما كانت تثير الحماسة فى نفوسهم عاطفة الوطنية والثورة على ما استهدفوا له من فظائع ..

ويقول جون نينيه :

« وقد مرت من فوق سطح المنزل الذى كنت أقيم به بالقرب من محطة الرمل خمس قذائف من رسائل « الانسانية الغربية » ، أصابت احـداها مدرسـة فدمرتها ، وأصابت ثلاث بعض قصـور الأغنياء ، وقتلت الخامسة أحد عشر شخصا ..

ووقف الضرب فى السـاعة السـادسة مسـاء .. وقد بعث الأدميرال الانجليزى ، الموت والدمار فى أنحاء المدينة ، وقتل النساء والأطفال ليحمى أرباح وأقساط الماليين الانجليز ..

وقرر عرابى اخلاء الاسكندرية من الجيش ليبتعد بقواته عن نيران مدافع الاسطول .. وتراجع الى كفر الدوار لاقامة تحصيناته.

أما الخديو ، فقد عاد من الرمل الى الاسكندرية فى نفس القطار الذى أرسل اليه ليعود الى القاهرة .. ووضع نفسه صراحة تحت حماية الأدميرال الانجليزى ..

أرسل الخديو الى عرابى يطلب منه الحضــور الى الاسـكندرية مع قوات الجيش لتسلم المدينة من الأدميرال الانجليزى.. وكانت الرسالة خدعة مكشوفة ، وكان هدف الخديو منها القبض على عرابى وتسليمه الى الانجليز ..

وأدرك عرابى الخدعة .. فأصدر الخديو قرارا بعزل عرابى من منصـبه .. ورد عـرابى بأن أرسـل برقيـة الى جميع المديريات والمحـافظات يعلن للشـعب فيها انضـمام الخـديو الى الانجليز ، ويحذرهم من اتباع أوامره ، ويدعوهم الى الاستعداد وجمع ما يلزم للقتال ..

وأرسـل عرابى خطابا خطيرا الى يعقوب سـامى باشا وكيل وزارة الحربية فى القاهرة ، يعلن اليه فيها خيـانة الخديو للبلاد ، ويدعوه الى عقد جمعية من الكبراء والعلماء للنظر فى الأمر واصدار قرار بشأن الخديو ، وفيما يجب عمله لصـالح الأمة وتقرير مدى صلاحية هذا الوالى عليها .

واسـتقر الرأى فى القـاهرة ، على دعـوة مجلس من وكلاء الوزارات وبعض كبار الضباط وكبـار الموظفين ، وقد انعقد هذا المجلس وعرف باسم المجلس العرفى ، وظل يدير شئون الحرب والادارة طول مدة القتال .

وقرر المجلس دعوة جمعية عامة تضم رؤساء الأديان والعلماء والأعيان وكبار موظفى الدولة والتجـار ، وشـهدت القاهرة أروع اجتمـاع تاريخى ضم اكثر من خمسـمائة مواطن يمثلون طبقـات الشعب العامل من جميع المديريات والمحافظات ..

وتليت فى الاجتماع فتوى شرعية بأن الخديو وقد انحاز الى العدو المحارب لبلاده يعد مارقا من الدين ..

ثم قرروا عدم الاعتراف بقرار الخديو الصادر بعزل عرابى •
والتفت جماهير الشعب حول عرابى تهتف له « الله ينصرك يا عرابى »

ولم يهتم عرابى بقرار عزله ، ووقف فى خطوط كفر الدوار يعد قواته لصد العدوان •• وأقام خيمته وسط الجنود ، وكان يفد اليه فيها غير الضباط واركان حربه ، الاعيان والعلماء وكبار التجار وغيرهم من ابناء الشعب ••

••كان عرابى رمز التخلص من جشع الاجانب واستبداد الاتراك والاقطاعيين ••

وكما يقول محمود الخفيف فى كتابه :

« قل أن نجد فى تاريخ الحروب حربا كهذه الحرب التى لم ينفق فيها قرش واحد من خزانة الدولة ، والتى قامت على بذل الشعب طائعا من قوته وماله ودمه ••

وكانت ترد الى كفر الدوار كل يوم اعانات الشعب من المال والقمح والشعير والبقول والسمن والخضر والفاكهة والخيل والماشية والجمال •• حتى حطب الحريق ••

وكتب عرابى بعد انتهاء القتال :

« ان جميع النفقات التى لزمت لمائة الف جندى مصرى فى أثناء الحرب كانت كلها تبرعات من الأمة المصرية بغير تمييز بين العقائد ، فقد بدأت الحرب ولم يكن هناك أكثر من عشرة آلاف جندى تحت السلاح ، ولا أكثر من ألف ومائتى بدلة عسكرية فى المخازن ، وحتى هذه لم تكن كاملة ، ولم يكن لدينا أكثر من ألف وخمسمائة عدل من الحبوب ، ولكنه عند نهاية الحرب كانت لدينا فى مستودعات الجيش وفى المديريات المختلفة والمخازن ما يزيد قيمته على مليون من الجنيهات من المال والمنتجات الزراعية والبقر والجاموس والغنم والأقمشة ، وكل ذلك قدم هدايا من الأمة للجيش المدافع عن

وطنها ·· ولم ينفق على الجيش فى أثناء القتــال درهم واحد من خزانة الحكومة ··

وانضمت الى الجيش النظــامى آلاف من المتطوعين ، كانوا أضعاف الجيش الرسمى ، ووزعوا على أعمال مختلفة تتصل بالجهد الحربى ··

انتصار كفر الدوار

قام عرابى بسد ترعة المحمــودية ليمنع الميــاه العــذبة عن القوات الانجليزية فى الاسكندرية ··

وفى ٥ من أغسطس بدأ الانجليز هجومهم ، وزحفوا من الرمل بقيادة الجنرال اليسون وتصــدت لهم القــوات المصرية وبعد ثلاث ســاعات ونصف اضطر الانجليز الى التقهقــر وفــروا عــائدين الى الاسكندرية مهزومين ··

وفى اليوم التالى عادت القوات الانجليزية بعد أن ضاعفت عدد الجنود ·· وقابلتهم القوات المصرية وتبادل الجيشان اطلاق النار ، ثم تقارب الجيشان واختلطت القوات وبدأ قتال بالسلاح الأبيض·· وأظلم الليــل وشــعر الانجــليز بضعف مقــاومتهم وانسحبوا الى الاسكندرية والقوات المصرية تطاردهم حتى اختفوا فى الظلام ··· واستشــهد من المصريين ٢٩ جنــديا وضابطا ··· وترك الانجليز وراءهم فى ميدان المعركة ١٧ قتيلا وشوهد عدد من الانجليز يحملون قتلاهم وجرحاهم ، كما لوحظ فى اليوم التالى للمعركة أن آثار جر الموتى ظاهرة فى أكثر من مكان ··

وعجز الانجــليز عن زحزحــة المصريين عنــد كفر الدوار أو اختراق خطوطهم · فانتظروا وصول الامدادات ··

وأرسل الخديو يهنىء الانجليز على انتصاراتهم !. وفى الوقت نفسه أصدر بلاغا يحذر فيه المصريين من مشـايعة عرابى ، ورماه بالعصيان والثورة وتوعد كل من يؤيده بالعقاب ..

وتوالت الامدادات على القوات الانجليزية فى الاسـكندرية ، فوصل ١٤ ألفا من المشاة و ٣ فرق من الفرسان وألف من رجال المدفعية وخمسمائة من المهندسين ..

وفى ١٩ من أغسطس أعاد الانجليز محاولة الهجوم على كفر الدوار بقيادة الجنرال ولسلى الذى جاء خصيصا من انجلترا لقيادة العدوان ..

وزحفت القوات الانجليزية فى هذه المرة بقوات ضخمة نقلتها القطارات المسلحة ، كما تقدمت قوات أخرى من جهة الرمل ... والتحم الجيشان ودارت معركة عنيفة استمرت ثلاث ساعات حتى غربت الشمس .. وارتد الانجليز بعد أن خسروا عددا كبيرا من قواتهم ..

وأعاد الانجليز هجومهم ثلاثة أيام متتالية، كانت المعارك فيها حتى غـروب الشـمس ، وكان المصريون يردونهـم كل يوم الى الاسكندرية بعد دفاع قوى مجيد ..

وأدرك الانجليز أنهم لن يسـتطيعوا اختراق تحصـينات كفر الدوار ، فبدءوا فى الاعداد للانتقال الى ميدان آخر ..

وفى نفس الوقت ، أصدر الخديو توفيق منشورا الى ضـباط وجنود الجيش يدعوهم فيه الى طاعة ولسلى وأوامره ، كما لو كانت صادرة من توفيق .. « فمن يخضع له فكأنه خضع لنا شخصيا ، ومن خالفه كان عاصيا لنا ويعامل معاملة العصاة .. » .

كما وجه الخديو الى الشعب بلاغا قال فيه : « ان العسـاكر

الانجليز يعدون فى هذه الحالة نائبين عنا فى قطع دابر المفسدين وتطهير البلاد منهم .. » .

ولكن الشعب كان يزداد ايمانا بثورته .. ويزداد تمسكا بزعيمه وقائده ..

احتلال القناة

قرر الانجليز نقل المعركة ومهاجمة مصر من ناحية الشرق .. وفكر بعض زعماء الثورة فى ضرورة ردم قناة السويس ..

وأرسلت انجلترا الى الدول الكبرى تخبرها أن تلقت أنباء مزعجة ، مؤداها ان خططا وضعت ضد القناة نفسها ، وتسألها عن علاج الحالة التى قد تفضى الى كارثة بالتجارة الدولية ..

وتبادل عرابى وديلسبس الرسائل ، وأدى ديلسبس دورا قذرا ، فأرسل الى عرابى تلغرافا قال فيه « يستحيل أن يدخل الانجليز القناة .. يستحيل » .

وكان هدف ديلسبس أن يفوت على عرابى سد القناة ... ووصل الأسطول البريطانى واحتل بورسعيد ثم تقدم الى الاسماعيلية واحتلها ، وجعلها قاعدة لزحفه ، ووضعت بارجة عند مدخل القناة لمنع مرور البواخر التجارية .

لم يكتف الانجليز باحتلال القناة ، بل استعانوا بسلطان باشا على رشوة البدو القاطنين غربى القناة بين الاسماعيلية والصالحية .. وكان سلطان باشا يرافق الجيش الانجليزى نائبا عن الخديو ليقدم له كل المساعدات . وأصدر الخديو أمرا بالترخيص للقوات الانجليزية باحتلال القناة ..

لم تحترم انجلترا القوانين الدولية .. ولم تتردد فى جعل

القناة منطقة قتال ، وقاعدة حربية .. ومنعت مرور السفن حتى تم لها احتلالها .. ولم يكن اعتراض ديلسبس وشركة القناة على الانجليز الا عملية شكلية لمنع العرابيين من سد القناة ..

ووضع الخديو ستة من ضباط الجيش المصرى فى خدمة الجنرال ولسلى ، أربعة من الضباط الأجانب الذين كانوا يخدمون فى الجيش المصرى ، واثنين من الاتراك ... وسافر الضباط الستة من الإسكندرية الى الاسماعيلية ..

وقامت المخابرات الانجليزية بدورها، والقى القبض على اثنين من البدو عند مرورهما بالقرب من معسكر كفر الدوار ، واعترفوا بأن جنديا انجليزيا اسمه جيل حمل ثلاثين ألف جنيه من قائد الأسطول ليوزعها على البدو فى منطقة القناة ..

كما قام سلطان باشا بتوزيع ورشوة الخونة بنفسه بعد أن أدرك الانجليز أن قيامهم بهذا العمل لا يفيد ، ويجعل الخيانة مفضوحة .. واستطاع سلطان باشا شراء سعود الطحاوى من البدو ، ويوسف خنفس ، وعبد الرحمن حسن قائد فرقة الاستطلاع السوارى ، وراغب ناشد وهو قائمقام فى المقدمة ..

وقام عثمان بك رفعت ياور الخديو باغراء عدد من ضباط الجيش، وخاصة الذين كانوا من أصل شركسى وأقنعهم بأنه لا فائدة من المقاومة ، ومن الخير لهم الانسحاب من صفوف عرابى والانضمام الى الخديو قبل فوات الفرصة ..

وسط هذا الجو المشحون بالخيانة والغدر والكذب والخداع ، ثبتت القوات الانجليزية أقدامها على القناة وجاءها المدد من القوات الهندية .. وتقدمت تحتل المسخوطة والمجفر والقصاصين ... وقاومت القوات المصرية التى كانت فى هذه الجبهة فى استبسال وشجاعة أمام قوات تفوقها عددا وعدة ..

وانتقل عرابى الى الميدان الشرقى ، فسافر من كفر الدوار بالقطار ، واستقبلته الجماهير فى الزقازيق استقبالا رائعا ، وفى مقدمتهم الأعيان والعمد والموظفون ورجال الطرق الصوفية،ورددت الجماهير هتافها « الله ينصرك يا عرابى » .

وكان النساء والصبية على خط السكة الحديد يرددون أغنية « يا مولانا يا عزيز أهلك عسكر الانجليز » ، وكان أحد الشباب يهتف « الله ينصرك » وتردد الجماهير قائلة « يا عرابى .. » .

الشعب والخيانة

انطلقت الجماهير فى كل مكان .. فى المدن .. فى القرى .. فى الشوارع .. فى البيوت .. فى المساجد ... فى الكنائس... ترسل الى عرابى بالتأييد .. وتبعث اليه بكل ما تملك ..

كانت النساء تتبرع بحليهن من أجل الجيش ... والشباب يندفعون الى معسكرات التدريب ليخوضوا المعركة .. وهرع الشيوخ الى المساجد يدعون الله أن ينصر عرابى .

أما المراقب المالى الانجليزى ، فقد أخذ الاموال الموجودة فى خزانة المالية ، وأودعها احدى قطع الاسطول البريطانى .. وكذلك الأموال الموجودة فى صندوق الدين حملها أعضاء القومسيون الى السفن الحربية .

ورد الشعب على هذا الغدر بالتبرع .. وقدموا الى الجيش ثروات طائلة .. وكان البعض يتبرع بكل ما يملك ... وآخرون يتبرعون بنصف ما يملكون .. وتقدم الفلاحون بأولادهم الى عرابى لعدم قدرتهم على التبرع ، ولأنهم لا يملكون سوى أبنائهم ... وقدمت الفلاحات الاوانى النحاسية .. وأخرج الشعب كل ما كان يخزنه من حبوب أو سمن وقدمه الى الجيش ..

ويقول الشيخ محمد عبده فى مذكراته :

« لقد رأيت المواطنين جميعا ينفرون الى الحرب فى شوق وحمية لقتال المعتدين ، لا فرق بين فلاح وبدوى ومدنى ، وكانت الغيرة الوطنية تملأ قلوب الجميع ·· وكانت شوارع القاهرة تغص فى المساء بالاستعراضات العسكرية من الشبان يجولون شوارعها وهم ينشدون الاناشيد الوطنية التى تشيد ببطل الحرية ، ويهتفون للزعيم الثائر أحمد عرابى ·· وفى كل اجتماع اينما كان ، وفى أى وقت حين يرد اسم البطل أو تذكر الحرب يتجه الناس بالدعاء له بالنصر على الأعداء » ·

ولم تكن مصر معزولة عن العالم العربى ، ففى تلك الايام الخالدة وضعت بذرة تضامن الشعوب العربية ..

ففى الشام حمل الرجال السلاح ، وأعدوا كتائب المجاهدين ·· ولكن الاستعمار التركى حال دونهم والوصول الى مصر ··

وفى تونس أخذت الصحافة العربية تشيد بعرابى وتلقبه بحامى العرب ، وهرع الناس الى المساجد ، وصلوا فى مسجد القيروان يدعون الله أن ينصر أحمد عرابى وأن يخذل الانجليز ··

ويقول برودلى :

« ·· كان العربى فى تونس يهمس فى أذن الآخر ، لقد ظهر اخيرا منقذ العروبة من الاستعمار ·· » ·

وسرت موجات الكراهية ضد الأوروبيين فى كل البلاد العربية، وأثار اعتداء الانجليز على مصر ذكرى اعتداء فرنسا على المغرب ·· ورأى العرب جميعا فى عرابى بطلا للحرية أمام الاستعمار ··

ووسط المد الثورى الصاعد ·· وحماس الجماهير ·· والتفاف

الشعوب العربية حول عرابى ، أعلن السلطان ، تحت ضغط بريطانيا « عصيان عرابى » فى منشور طويل نشرته صحف الآستانة ..

وكانت انجلترا تحث السلطان ، وتترقب صدور هذا الاعلان بعد أن لمست عنف مقاومة القوات المصرية فى كفر الدوار وخسائرهم فى الميدان الشرقى . وبذلت انجلترا كل جهودها من ضغط ورشوة لحاشية السلطان واغراء وهدايا لرجال الباب العالى حتى أصدر السلطان الاعلان المشئوم .. وجاء فى هذا الاعلان :

« .. تحقق الآن رسميا أن عرابى رجع الى زلاته السابقة ، واستبد برياسة العسكر بدون حق ، فيكون قد عرض نفسه لمسئولية عظيمة ولا سيما أنه يهدد أساطيل دولة حليفة للدولة العلية السلطانية ..

وبناء على ما تقدم يحسب عرابى باشا وأعوانه عصاة ليسوا على طاعة الدولة العلية السلطانية ..

وأن معاملة عرابى باشا وحركاته وأطواره مع حضرة السادات الأشراف هى مخالفة للشريعة الاسلامية الغراء ومضادة لها بالكلية .. » .

وهكذا دفع الانجليز السلطان الى استغلال الشريعة الاسلامية لتحقيق أهدافهم ..

وأسرع الخديو ، وعهد الى سلطان باشا بتوزيع جريدة الجوائب التى نشرته، فقام وفد برياسة سلطان الى الاسماعيلية يحمل أعدادا ضخمة من « الجوائب » ، وأخذوا فى توزيعه بين ضباط وجنود الجيش ..

كما أخذ سلطان نفسه يتنقل فى المدن والقرى يوزع « اعلان العصيان » ويدعو العمد والاعيان الى مساعدة الانجليز ..

وأحدثت المنشورات أثرها ، وأخذ بعض الضباط يتحدثون عن مخالفتهم لأوامر السلطان واعتبار ذلك خروجا على الدين وكتاب الله ورسوله .. وأن من مات منهم يموت عاصيا وليس شهيدا ..

وحاول عرابى أن يقنعهم بأن « اعلان العصيان » دسيسة انجليزية .. ولكن عبثا ..

ولم يكتف الانجليز والخديو بذلك ، فيقول نينيه فى كتابه :

« وكان بجانب الأمناء فى جيشنا بالشرقية فريق من الخونة يسوقهم الانجليز ويمدونهم بالمال ويحرضهم توفيق ، وفريق من الشراكسة الباشوات الذين يحقدون على جنس الفلاحين المصريين .. »

وظل سلطان باشا يرافق الجيش الانجليزى فى زحفه ... واستطاع أن يشترى بالمال بعض ضباط الجيش المصرى ..

ووسط هذا الجو من المؤامرات والرشوة والتجسس والخيانة خاض عرابى معاركه ضد قوات الاستعمار الانجليزى .

معركة التل الكبير

انتهت المعارك الأولى فى الميدان الشرقى دون خسائر تذكر بين القوات المصرية وقوات الاستعمار .. وأثبتت القوات المصرية قدرتها على صد العدوان ..

وفى ٢٨ من أغسطس استعدت القوات المصرية للهجوم ... واندفعت قوى الجيش فى حماس وقوة واستطاعت أن تجلى الانجليز عن مواقعهم ، وظلوا يشددون عليهم حتى وصلت امدادات جديدة للانجليز .. وظلت المعركة سجالا بين الطرفين حتى هبط الليل ، وتوقف القتال ..

وأدت هذه المعركة التى أطلق عليها « معـركة القصـاصين الأولى » الى توقف زحف قوات الاسـتعمار ، واضطر الانجليز الى الترقب والانتظار حتى يستعينوا بسلاح الرشوة والخيانة ..

وفى ٩ من سبتمبر بدأت القوات المصرية هجوما جديدا ... وكانت الخطة التى رسـمت تؤكد انتصـار القـوات المصرية ، كما اعترف القائد البريطانى نفسه ..

ولكن الخيانة أدت دورها ، وقام الضابط على يوسف وهو أحد الضباط الذين اشتراهم سلطان باشا بافشاء خطة المعركة ، بل أبشع من ذلك سرق الرسم الأصلى الذى رسمه عرابى بيده وأرسله الى الجنرال ولسلى .

ويقول الشيخ محمد عبده :

« فى واقعة القصـاصين كان الرسـم كما ينبغى ، وكانت العساكر المصرية يجب أن تزحف فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل على الجيش الانجليزى ، وما راع القواد المصريين الا وجود الفرق الانجليزية زاحفة .. وكانت الخيانة وصلت والنقود قد وصلت الى قلب الجيش والى كثير من الضباط بسعى سلطان باشا .. »

وانقلبت المعركة بسبب الخيانة من الهجوم الى الدفاع ، وعلى الرغم من ذلك كاد الدوق أوف كنت يقع أسيرا فى أيدى القوات المصرية ، لولا تراجع قوات الضابط الخائن على يوسف ..

وظلت المعركة دائرة من منتصف الليـل حتى الصـباح ، واستمرت فى قوتها وعنفها ..

وكانت القوات المصرية فى انتظار وصول قوات محمود سامى البارودى ، لتقوم بدورها فى المعركة ، ولكن الخيانة أدت هنا أيضا

دورها ، وقام البدو المأجورون من ســـلطان باشا بتضليل القوات المصرية ، فلم تصل أرض المعركة الا بعد انتهاء المعركة ..

ان معركة القصاصين أوشكت أن تكتب تاريخا جديدا فى حياة الشعب المصرى ، وأوشكت أن تكون مولد عصر جديد تتحرر فيه مصر من تركيا والاســـتعمار الانجليزى والرجعية والاقطاع التى تمثلت فى الخديو وعناصر الخيانة ..

ولكن المعركة لم تنته بالنصر ، كما كان متوقعا لها ..

وقد ذكر عرابى أن السير شارلز ولسن أحضر له خطة المعركة حين كان فى ســـجنه بالقاهرة ، وسأله اذا كانت من رسم يده ، فأجاب عرابى نعم . فرد عليه قائلا .. « انها خطة جيدة وربما كنتم بها تنتصرون علينا .. »

انتهت معركة القصاصين الثانية، وبدأ الاستعداد لمعركة التل الكبير ..

قام آلاف الفلاحين المتطوعين بانشاء خطوط الدفاع عن التل الكبير بسرعة، وكانت عبارة عن خنادق تمتد نحو ستة كيلومترات..

وفى يوم ١٢ من سبتمبر أرسل الضابط الخائن على يوسف من مقدمة الجيش الى عرابى يؤكد له أن الانجليز لن يتحركوا اليوم .

كان فى مقدمة الجيش المصرى ، فرقة استطلاع من السوارى يقودها ضابط اسمه عبد الرحمن حسن ، وأخرى يقـودها على يوسف .. وقد قبل الاثنان الرشوة ، ولم يعرف ما ناله الضابط عبد الرحمن ولكن على يوسف كان يشكو أنه لم يأخذ سوى ألف جنيه مع أنه وعد بعشرة آلاف جنيه ! ..

وفى مساء اليوم الذى أكد فيه الخائن على يوسف أن الانجليز لن يتحركوا ، بدأت القوات الاستعمارية زحفها بالليل ، وشـــدد

ولسلى تحذيره لجنوده ، بألا يرتفع صوت فى أثناء تحركهم ·· وكان اعتمـاد القائد البريطانى فى تقدمه على الضـبـاط الأتراك الموالين للخديو ··

وتقدم جيش ولسلى ، وكان عبد الرحمن يحرس الطريق مع فرقته ، فترك الجيش الانجليزى فى سلام ·· ومر الجيش الانجليزى على مقربة من على يوسف ، فلم يكتف بترك قوات العدو تمر فى سلام ، بل وضع لها الفوانيس فى الطرق التى تمر بها ..

وكانت القوات المصرية نائمة فى خطوطها معتمدة على تقارير على يوسف ·· كان المفروض أن تحمى قوات الطلائع المقدمة ·· ولكن الطلائع أفسحت الطريق ··

وأحاطت القوات الانجليزية بالقوات المصرية ، وانطلقت البنادق والمدافع تفتك بالمصريين ·· وقام الجنود من نومهم مذعورين بعد أن أخذتهم المباغتة ·· وبدءوا يبحثون عن طرق النجاة من الموت الذى يحيط بهم ··

ووسط الغدر والخيانة تبرز عظمة الشعب فى أبنائه ·· وقام الضباط الأبطال محمد عبيد ، وأحمد فرج ، وعبد القادر عبد الصمد، وحسن رضوان، وتقدموا بقواتهم التى لاتزيد عن أربعة آلاف جندى، وصمدوا أمام القوات الغادرة وظلوا يقاتلون حتى استشهد معظم أفراد القوات ·· وظل محمد عبيد فى موقعه حتى وقع شهيدا مع قواته ·· وظل حسن رضوان يقاتل وأوقع بالقوات الاسـتعمارية خسائر فادحة حتى سقط جريحا فى الميدان ، ولما حمل أسيرا الى ولسلى وقام يقدم له سيفه كما تقضى التقاليد العسكرية ، لم يأخذه منه احتراما له ، وأثنى على بسالته ··

وكان عرابى يصلى الفجر ، عندما فوجىء بالقتال ، واتجه الى

ميدان المعركة ، ووقف بجانب محمد عبيد ، وشاهد فرار الجنود فحاول أن يردهم ..

وظل عرابى فى ميدان القتـــال ، حتى اقترب الانجليز من موقفه ، وبقى ثابتا فى مكانه ، ونصحه طبيبه بالابتعاد عن المعركة .. ولوى خادمه لجام فرسه .. واتجه عرابى بحصانه الى القاهرة يستعد لمعركة جديدة ..

انتهت معركة التل الكبير ، بعد ان فقد المصريون ألفين من الجنود الذين كانوا نائمين ، بينما لم تخسر القوات المصرية فى كل المعارك السابقة أكثر من مائتى جندى ..

وهللت الصحف الرأسمالية لانتصار القائد البريطانى .. كما هلل له أصحاب رءوس الأموال .. ومنح لقب لورد .. هل كان هذا لانتصاره ؟ ان ولسلى لم‌يبرز براعة عسكرية أو انتصارا حربيا، بل قام بأقذر خدعة فى ميدان القتال ، وأحرز نصرا رخيصا بالرشـــوة والخيانة .. ولكن الرأسماليين الاستعماريين لا تهمهم الوسيلة ، مادام هدفهم تحقق فى الاستيلاء على السوق التى تغزوها شركاتهم ورءوس أموالهم ، ويتحكمون فى ميزانيتها وضرائبها ..

الاستسلام ..

أراد عرابى أن يجمع قواته فى بلبيس وضواحيها ، وأن يدعم قواته بالقوات المعسكرة فى العباسية ، وقطع الخطوط الحديدية الى الزقازيق ، ونسف قناطر الشرقية على العدو ..

ولكن على الروبى نصـــحه بالذهاب الى القـــاهرة ، ليبحث الاستعدادات اللازمة لاستئناف القتال ..

واجتمع المجلس العرفى فى القاهرة ، ووقف عرابى يطالب

باستمرار القتال ·· فمازالت هناك حامية القاهرة بمدفعيتها وحامية دمياط ·· وحامية كفر الدوار ··

وتوالت كلمات الحاضرين ·· وأكدوا استعداد الشعب للدفاع عن بلاده ·· والمخازن مليئة بالأسلحة والمؤن والذخائر ·· وكانت هناك ذكريات الثورات التى أشـــعلها أهل القـاهرة ضد نابليون وكليبر خلال الحملة الفرنسية ··

ولكن الخيانة كانت قد أدت دورها ··

ودخلت القوات الانجليزية الى القاهرة ، واستقبلتها نساء رجال الخديو ورجال الاقطاع بالزغاريد ··

·· ولكن الشعب فى باب الشعرية والحسينية تهيأ للثورة ·· وخرجت الجموع تحمل ما تجده من سلاح لتشعل نيران الانتقام ·· وأسرع رجال الخديو من جديد ليهدئوا الشعب الثائر ··

وعاد الخديو من الاسكندرية الى القاهرة ، واستقبله القواد الانجليز ·· واصطفت على الجانبين قوات الاحتلال تحرس الخديو فى طريقه الى مصر !

وبدأ جو من الانحلال الخلقى والسياسى ، وتقدم سلطان باشا ومعه عدد من الاقطاعيين بهدايا الى قادة الاحتلال ·· وأرادوا أن يجمعوا التبرعات ، ولكن الشعب لم يتبرع ، فدفعوا ثمن الهدايا من جيوبهم . وقدموا الى الجنرال ولسلى ســـــيفا من الذهب محلى بالمجوهرات ، وأهدوا الى الأميرال سيمور طبنجة محلاة بالماس ··

ومنح الخديو سلطان باشا عشرة آلاف جنيه من الذهب ، كما أنعم عليه بالنيشان المجيدى من الدرجة الاولى وأنعمت عليه ملكة انجلترا بوسام سان ميشيل وسان‌جورج فأصبح يحمل لقب«سير»·

واعتقل عرابى والزعماء الوطنيون ، انتظارا لمحاكمتهم .. وكان الخديو يرسل أتباعه وأعوانه الى عرابى فى سـجنه ليوجهوا اليه الاهانات ..

ويروى عرابى فى مذكراته :

« .. وبعد سـاعة جاء ليزوزنى بشارة تكلا محرر الأهرام وظننت أنه قادم ليعزينى وليبدى عواطفه نحـوى ، وقد كان ممن يدينون بمبادئنا قبل الحرب وأقسم بدينه وشرفه أنه واحد منا وأنه يعمل لحرية وطننا ، وقد عددناه فى الحق من الوطنيين ، ولكنه لما دخل على توقح أشد التوقح ثم قال : أى عرابى ماذا صنعت ، وماذا حل بك ؟ ورأيت أن الرجل خائن ولا شرف له ،ولما لم أجبه أدار ظهره وانصرف .. »

.. وبدأت محاكمة العرابيين ..

وشـهدت قاعة المحكمة صور البطولة فى أروع مظاهرها .. وظل عرابى مرفوع الرأس ، وعندما سألوه عن حقيقة مناداته بعزل الخديو ، أجاب بالايجاب ..

ورد عرابى على سؤال آخر ، قائلا :

« لا أظن أن أحدا من المصريين على اختلاف مذاهبهم يسـمح بالتدخل الأجنبى فى بلاده ، وكل ذى ذوق سليم يجب أن يعلم أن الأمة المصرية بأجمعها لا تسمح بذلك .. »

وعندما سئل عرابى عن احدى الرسائل التى كتبها فى أثناء الثورة ، قال :

« نعم ، صدر منى هذا الجواب الذى هو عبارة عن الأخذ بالحزم فى اظهار الحقيقة والعمل بالحق .. »

وكتب عرابى ..

« اننا كنا ندافع عن وطننا بطريقة تقرها شريعة الله والانسان، وكل من يقول غير هذا ، كائنا من كان فهو عبد للهوى والمال .. »

وشهدت المحاكمات شيخا فى الثمانين من عمره ، يهز قوى البطش والطغيان .. سئل الشيخ حسن العدوى ، عما اذا كان قد وقع على قرار يقضى بأن الخديو توفيق يســـتحق العزل ، فضرب الشيخ المائدة بقبضة يده ، وصرخ فى وجه المحكمة :

« أيها الباشا ، أنا لم أر الورقة التى تتحدث عنها ، ولا يمكننى أن أقول شيئا عما اذا كنت وقعت عليها أو ختمتها بخاتمى ، ولكنى أقول لك ما يأتى ، انك اذا أحضرت الى ورقة تحتوى على مثل هذا المعنى الذى ذكرته ، فانى أبادر بالتوقيع عليها ، وختمها بخاتمى فى حضورك الآن . أاذا كنتم مسلمين ، أتستطيعون أن تنكروا أن توفيقا باشا ، وقد خان بلاده وذهب الى الانجليز ، لم يعد يصلح لأن يحكمنا ؟ »

وصمتت المحكمة ، ولم تجرؤ على استدعاء الشيخ حسن العدوى لسؤاله مرة ثانية ..

لم يمت الشعب المصرى .. ظل رائعا فى حزنه ، وفى ألمه .. يرقب مرور الدقائق والساعات والأيام .. والسنين ..

الفصل السابع

« السيف الذى لا تغمده فى قلوب
السادة المجرمين ..
تغمده فى قلوب الفقراء والأبرياء»

بول ايلوار

الاحتلال البريطانى

جاء الاحتلال .. جاء للسلطان الذى أصدر فتوى « عصيان عرابى » .. وجاء للخونة الذين باعوا وطنهم بجنيهات ذهبية زائفة .. وجاء للمتمردين الذين خدعوا بكلمات الاستعمار البراقة ..

.. وكانت بريطانيا تصدر الوعود ، والعهود ..

أرادت أن تطمئن السلطان ، فقال اللورد جرنفل فى رسالة له قبل العدوان :

« ان سياسة حكومة جلالة الملكة بالنسبة لمصر لا ترمى الى غير سعادة هذه البلاد وتمتعها التـــام بما نالته من الحرية بمقتضى الفرامانات السلطانية المتوالية .. »

وأرادت أن تخدع الخديو .. فأرســــل اميرال الأســـطول البريطانى قبل ضرب الاسكندرية يقول :

« أنا أمير الاسطول البريطانى أرى الفرصة سانحة لأن أسرع فأؤكد لسموكم أن حكومة بريطانيا العظمى لاتنوى فتح مصر .. وأن غرضها الوحيد هو أن تحمى سموكم والمصريين من العصاة .. »

وأرادت أن تفتت وحدة قوى الشعب ، لتسقط حكم عرابى الوطنى ، فصرح السير تشارلس ويلكى فى مجلس العموم ، أثنـاء المعارك قائلا :

« ان رغبة حكومة جلالة الملكة هى أن تترك المصريين وشأنهم بعد أن تخلص مصر من الطغيان العسكرى ٠٠ ونحن نثق بأنه خير لانجلترا أن تقوم فى مصر حكومة حرة ، لا حكومة مستبدة ٠٠ »

وفى أغسطس عـــام ١٨٨٢ ، صرح جلادستون فى مجلس العموم :

« لقد سألنى السيد الفاضل ، هل فى نيتنا أن نحتل مصر احتلالا غير محدود ؟ قد أذهب فى جوابه بعيدا ، فأقول : انه مهما نأت من شىء ، فلا شك فى أنا لن نأتى هذا ، انه مناقض لمبـادىء حكومة جلالة الملكة وآرائها مناقضة مطلقة ، مناقض لعهودها التى بذلتها لأوربا ، ويمكننى أن أقول انه مناقض لآراء أوربا نفسها »

كلمات ٠٠ وكلمات ٠٠ وعهود ٠٠ وأكاذيب ٠٠ تماما كالتى نســـمعها اليوم من الاســـتعمار الامريكى الجديد ٠٠ « مشروعات للتنمية» و «رفع مستوى الشعوب » و «حكومات حرة» و «الدفاع عن العالم الحر ٠٠ »

ولكن الاستعمار هو الاستعمار ٠٠ وبقيت انجلترا تحتل مصر ٧٥ عاما ٠٠ فماذا فعلت ؟

ثمن الخيانة :

كان أول من دفع ثمن الخيانة ، سلطان تركيا الذى أصدر فتوى « عصيان عرابى ٠٠ » فمنذ اليوم الأول للاحتـــلال ارتفعت اعلام انجلترا فوق الدور وفى شوارع القاهرة ٠٠ وفرضت انجلترا حكمها ، وحاول السلطان أن يحدد موعدا للجلاء ٠

ودارت مفاوضات فى الآستانة ، واخفقت ٠٠ وظل الحال على هذه الصورة ، حتى قامت الحرب العالمية الاولى ، وأشعلت انجلترا

الحرب في البلاد العربية ضد تركيا ·· وانتهت الحرب بانتهاء العلاقة نهائيا بين تركيا ومصر ··

والخديو ·· ظن الخديو أن الانجليز سيعيدون اليه سلطاته التى انتزعها الشعب ·· وحدث خلاف فى أول أيام الاحتلال بينه وبين قادة الانجليز ، فأبرق اليه اللورد جرانفل مهددا متوعدا فى أسلوب خشن ولفظ قاس ·· فقال :

« ·· انه ليس هذا أوان ظهور الحكومة المصرية بمظهر المعارضة والممانعة ، وان استمرارها على الاباء يعرضها للفشل والخطر ، ولا تكون هذه النتيجة مقتصرة على الوزارة وحدها ، بل تتناول مركز الخديو نفسه ·· »

أما الرجعيون والاقطاع والمرتشون ، فقد أحسوا بعد العدوان أنهم غاصوا فى وحل الخيانة ، وأن الأجيال من أبنائهم ستظل تحمل وصمة خيانة الوطن الى الأبد ·· وكتب بلنت فى يومياته :

« زارنى عبد السلام المويلحى ، وأخبرنى أنه كان صديقا حميما لسلطان باشا ومن أعوانه ، وأنه كان أحد الذين انضموا اليه فى خصومته لعرابى ، ولكن الأسف يتملكهم جميعا الآن لأنهم لم يتحدوا ، وهو لا يقر مسلك سلطان فى أثناء الحرب ، فقد خدع القنصل البريطانى سلطان باشا الذى غرر به ليفعل ما فعل واعدا اياه وعدا واضحا أن حقوق البرلمان المصرى سوف تحترم··ولما رأى الرجل الشيخ بعد الحرب مبلغ ما خدع به حزن حزنا شديدا ، ومات وهو يأمل أن يسامحه عرابى ، وألا ينتقل اسمه فى الاعقاب موسوما بالخيانة الوطنية » ·

أما المتمردون الذين رفضوا رأى عرابى بالسير فى المعركة حتى النهاية ، فقد واجهوا أبشع صور الاستعمار ·· واسفر أمامهم وجه بريطانيا القبيح ·· وجه الرأسماليين الانجليز ·

بدأ الاحتلال بتصفية العناصر الوطنية ·· وألقى القبض على جميع الوطنيين من الضباط والعلماء وخطباء المساجد والتجــار والاعيان ، ولم يستثن سوى الجواسيس ، والمنافقين ·· وامتدت الاغتيــالات الى المديريات والمحافظات وقبض على العمد والأعيان والقضاة ·· وعامة الناس ·· وبلغ عدد من فى السجون أكثر من ثلاثين ألفا من المصريين ··

وانتهز حكام المديريات من صنائع الانجليز فرصة القبض على الاعيان ، واستولوا على ثرواتهم ، حتى أثروا وامتلــكوا الاراضى الواسعة ، أما من قاومهم ، فكانت توجه اليه تهمة تأييــد عرابى ، وينفذ فيه حكم الاعدام ·

وشكلت المحاكم العسكرية ·· ولجان التحقيق ·· وساد جو من الارهاب والتخويف للقضاء على أية نزعة قوميــة أو اتجاهات حرة ·

وكان أول ما فكر فيه الاحتلال ، الغاء الجيش المصرى ، وخلق جيش صغير يرأسه ضباط من الانجليز ·· وأصدر الخديو مرسوما بتجريد جميع الضباط الذين أيدوا « عرابى » من رتبهم وحرمانهم من أى حق فى المعاش أو مرتب الاستيداع ··

وصدر مرسوم بتسريح الجيش ، وعهد الى السير فالنتين بيكر وهو ضابط انجليزى بتنظيم جيش جديد ·· وأنعم الخديو عليــه برتبة فريق ·· فأصبح يعرف باسم « الفريق بيكر » ·

وقرر الفريق بيكر اقصاء من تبقى من الضباط الوطنيين من الجيش وتعيين كبار الضباط من الانجليز ·

·· ثم أصدر الخديو مرسوما بتعيين سير افلن وود أحد قواد الحملة الانجليزية سردارا (قائدا عاما) للجيش المصرى ··

وصار الجيش فى قبضة الاحتلال .. ونقص عدده الى ستة آلاف .. وأقصى الضباط المصريون عن ادارات الجيش الهامة .. وكان الضباط المصريون لا يبقون فى الجيش الا اذا أبدوا ولاءهم للاحتلال والقواد البريطانيين ..

وأغلقت المدارس الحربية التى كانت تضم قبل الاحتلال أكثر من ألفى طالب ، وبقيت مدرسة واحدة حدد عدد طلبتها بـ ١٠٠ طالب .. يلحق بها ساقطو الشهادة الابتدائية .

وألغيت المصانع الحربية وبيعت آلاتها .. وأودعت الذخائر فى قلعة القاهرة ، وكان يقوم بحراستها ضباط من الانجليز ..

كما ألغيت قوانين اصلاح الجيش .. وكذا ألغيت البحرية المصرية ، ولم تبق من السفن الحربية ، سوى « المحروسة » لتصبح يختا خاصا للخديو ..

وعطلت الترسانة البحرية .. وألغيت المدرسة البحرية .. وأغلق حوض اصلاح السفن ..

.. وكان يصحب ذلك كله فصل الموظفين والعمال وتشريدهم وتشريد عائلاتهم وتركهم يتضورون جوعا دون عمل أو مرتبات .

وأصدر الخديو مرسوما ، بتعيين بيكر باشا مفتشا عاما للبوليس ، وعاونه عدد من الضباط الانجليز والكونستابلات .. وكان الكونستابل الانجليزى يتقدم أى ضابط بوليس مصرى ..

وألغى النظام الدستورى الذى وضعته الثورة العرابية ، وبذلك ألغيت الرقابة على الميزانية .. وعادت وسائل النهب لتسديد أرباح القروض والأقساط للأجانب .

وعاد التعليم الى الوراء ، وألغيت مجانية التعليم ، ووقفت

حركة انشاء المدارس وأغلق بعضها ، وتقرر جعل التعليم باللغة الانجليزية ، وحل المدرسون الانجليز محل المصريين ٠٠ ومسخت برامج التعليم ، واستبعد التاريخ القومى الصحيح من مناهج الدراسة ٠٠

أما فى التعليم العالى ، فلم يبق من المدارس العليا عام ١٩١٠ سوى أربع ، وهى : الحقوق ، والطب ، والهندسة ، والمعلمين ٠٠ وانحطت برامج التعليم فيها ، واقتصرت على اعداد موظفين مطبوعين بالخضوع والولاء للاستعمار ٠

وألغى التعليم الصناعى ، وانتهت البعثات الخارجية ٠٠ وهكذا أغلقت فى وجوه الطبقة الوسطى أبواب الوظائف ، بعد أن شردوا من مراكزهم التى كانوا يشغلونها فى المؤسسات التى أغلقها الانجليز ٠٠ وسدت فى وجوه أبنائهم المدارس ٠٠

ومن الناحية الاجتماعية ، انتشرت الخمور بين سكان المدن ثم سكان الريف ، وانتشرت محال بيع الخمور فى القرى بين الفلاحين، وفى أحياء العمال ٠٠

كما انتشر البغاء ، وأصبح مهنة رسمية ، تمنحها الحكومة الرخص ٠٠

وانتشرت دور اللهو غير البرىء ، وجاء الأفاقون من راقصات أوربا والقوادين ، وضاعت ثروات كبيرة ، وكما يقول « الرافعى » فى كتابه :

« انتشر الفقر والبؤس فى الطبقات الكبيرة ثم المتوسطة والصغيرة ٠ »

لم يكن العدوان هدفا ٠٠ لم ترسل بريطانيا أسطولها وجيوشها لتحرز نصرا عسكريا ٠٠ بل كان الهدف الحقيقى ، اسقاط

الحكم الوطنى وابعاد عرابى ، وحاولت بالرشوة والمؤامرات .. كما عرضت على عرابى مرتبا ضخما ليترك مصر .. ولما فشلت اضطرت الى استعمال القوة ، وأسلوب الغزو .

ولم يكن اسقاط عرابى والحكم الوطنى الا وسيلة لهدف أكبر، هو تمكين الرأسماليين الأوربيين من بسط نفوذهم المالى على مصر .

وكما أوضح اللورد كرومر بعد الاحتلال ، بقوله :

« والأوربى لا يقيم فى مصر ، الا اذا كان « سيصنع » مالا من اقامته فيها ، والأوربى لا يستطيع أن ينتج مالا ما لم تكن حياته وما ملكت يداه محمية ضد خطوات الحكومة التعسفية التى كانت الى وقت قريب سيئة جدا ، والتى يظن أنها قد ترجع الى أحوالها السابقة اذا انسحبت يد بريطانيا الحاكمة » .

.. والحكومة التعسفية التى يقصدها كرومر ، هى حكومة عرابى .. ويوضح عبد الرحمن الرافعى ، أهداف العدوان بقوله :

« اجتمع الى جانب الاستعباد السياسى ، الاستعباد الاقتصادى والمالى وهو أشد وطأة وأخطر أثرا من الأول ، وبينما كانت البلاد فى حاجة الى وقايتها من تغلغل النفوذ الاقتصادى الأجنبى ، لكى تحافظ على مواردها المالية من الضياع ، وجد هذا النفوذ على العكس كل رعاية ومساعدة ، بحيث لم توجد دولة فى الشرق تغلغل النفوذ الأجنبى فى حياتها المالية والاقتصادية ، مثلما تغلغل فى مصر ، ويرجع السبب الاول فى ذلك الى الاحتلال وسياسته الاقتصادية »

ويكشف جوزيف تشمبرلن أهداف السياسة الاستعمارية وهو من أكبر دعاة الاستعمار الامبريالى .. بقوله :

« فى الاستعمار فقط .. فيه الحل الوحيد لأزمتنا الاجتماعية ذلك أن البطالة والسلام لا يلتئمان ، وليس فى بريطانيا فرصة

للقضـــــاء على البطـــالة ، وانى لأراها فى تنمية أسواقنا القديمه والاستيلاء على أسواق أخرى جديدة » .

ويؤكد هذا المعنى استعمارى امريكى .. يمهـــد للاستعمار الجديد طريقـــه .. وقف السناتور بيفردج يخطب فى بوسطن عام ١٨٩٨ ، فقال :

« ان المصانع الأمريكية تنتج أكثر مما يســـتطيع الشعب الأمريكى أن يستعمله ، والارض الامريكية تنتج أكثر مما يســـتطيع أن يســـتهلك .. لقد كتب القدر سياستنا ، يجب أن تكون ـ وستكون ـ تجـارة العالم بين أيدينا . وسنتسلط عليها كما علمتنا أمنا انجلترا ـ سننشىء مراكز تجارية فى العالم كله ، كنقط لتوزيع الانتاج الامريكى ، سنغطى صـــفحة المحيط باسطولنا التجارى ـ سنبنى أسطولا حربيا يتمشى مع عظمتنـــا ، وحول مراكز تجارتنا ، ستنمو مستعمرات عظيمة تحكم نفسها بنفسها وترفع علمنا وتتجر معنا .. »

.. هذه هى أهداف الاستعمار البريطــــانى .. وهذه هى أهداف الاستعمار الامريكى ..

فكيف نفذت انجلترا ســـياستها الاستعمارية فى مصر بعد الاحتلال ؟

كان تصـــــدير البضائع هو هدف الرأسمالية عندما بدأت نموها فى أوربا .. وبعد ذلك تحول تصدير البضائع الى تصدير رأس المال ..

وشهدت مصر منذ انتهاء عصر محمد على الغزو الرأســـمالى الاوربى بالبضـــائع ورءوس الاموال .. ثم أصـــبحت القروض

والشركات هى السمة الغـالبة لغزو الرأسمالية لمصر ٠٠ وكان الصراع بين حكومة عرابى الوطنية وبين الرأسماليين الأوربيين ٠٠ وكان الهدف الرئيسى للثورة العرابية ، وقف التدخل الاوربى ، والغاء المراقبة الثنائية على المالية المصرية ، وطرد الوزيرين الفرنسى والانجليزى من الوزارة المصرية ٠٠

وجاء الاحتلال ٠٠ وسيطر الانجليز منذ السـاعة الأولى على مالية البلاد بتعيين مستشار مالى بريطانى ، أصبح صـاحب الأمر والنهى فى الشئون المالية للحكومة والبلاد ٠٠ ووضعت الامتيازات الاجنبية لحماية الأجانب وشركاتهم وأموالهم ٠٠

وانهـالت رءوس الاموال على مصر ٠٠ وأسست البنـوك الأجنبية ، وشركات الرهون العقـارية ، والشركات الماليـة ، والشركات الزراعية ، وشركات البناء ، وشركات النقل ، والشركات الصناعية والتجارية ، وشركات الفنادق ٠٠ وأنشئت شركة الدلتا المصرية للخطوط الحديدية ، والشركة المصرية لأراضى الدلتـا ، وشركة الأسواق المصرية ، وتحتكر ادارة ١٢٠ سوقا ٠٠

والمال الأجنبى يزداد ٠٠ ففى عام ١٨٩٢ كان لايزيد عن ٧ ملايين جنيه ٠٠ فيصل عام ١٩٠٢ الى ٢٦ مليون جنيه ويقفز فى خمس سنوات حتى يبلغ ٨٧ مليون جنيه ، ثم يصل عام ١٩١٤ الى ١٠٠ مليون جنيه ٠٠

فاذا أضيفت ديون مصر ، وفروع البنوك الأجنبية فى مصر ، كان المال الاجنبى المستغل عام ١٩١٤ حوالى ٢٥٠ مليون جنيـه ، كانت أرباحها تبلغ ٢٥ مليون جنيـه ، تحول الى الخارج لتدخل جيوب الراسماليين فى اوربا ٠٠

وبينما كانت أرباح رأس المال الاجنبى تزداد ، زادت ديون

الشعب المصرى ، وفى ذلك تقول لجنة الميزانية فى مجلس شـورى القوانين عن ميزانية عام ١٨٩٤ ٠٠

« ان الأمة المصرية سائرة فى طريق الفقر وعسر الحال ، وهذا يزيد على توالى الأيام ، وتداول الأعوام ، وحسبنا فى بيان ذلك أن الديون الخصوصية المسجلة فى سجلات المحاكم بلغت من عام ١٨٧٦ الى مارس عام ١٨٨١ نحو ١٢ مليون جنيه ، ثم فى أوائل عام ١٨٩١ بلغت فوق العشرين مليون جنيه ، وبلغ قدر الاطيان المرهونة نحو مليون وثلثمائة ألف فدان وكسور ، والعقارات نحو تسـعة آلاف ومائة ، وهذا خلاف الديون غير المسجلة ، أعنى أنها تضاعفت تقريبا فى عشرة أعوام ، ولا شك أن هذه الحالة لو دامت لم يمض الا سنوات قليلة حتى يتضاعف هذا الدين ، ويصـبح معظم الاراضى المصرية مرهونا ، ويصـــبح الاهالى أجراء يعملون لدائنيهم فيما كانوا يملكون ٠ »

وقد تحملت الخزانة المصرية نفقات الحرب التى دفعتها انجلترا لحملة الاحتلال ، كما تحملت أيضا نفقات جيش الاحتلال ٠٠ وقدرت التعويضات التى دفعتها الحكومة المصرية تعويضـــا للأجانب عن خسائرهم بعد ضرب الاسكندرية بمبلغ ٤ ملايين جنيه ٠

ثم وضعت انجلترا سياسة مالية لتسديد أرباح القروض التى على مصر ٠٠ فرفعت الرسوم على استيراد الدخان وحصلت على مليون و ٢٠٠ ألف جنيه ، وفرض البدل العسكرى ، فحصلت الخزانة على ١٥٩ ألف جنيه ، ومن بدل السخرة حصلت على مبلغ ٨٨ ألف جنيه ٠

ولجأت الادارة البريطانية الى حيل غريبة للحصول على أرباح رءوس الاموال الاجنبية تدل على الشعوذة وخفة اليد ٠٠ ففى عام ١٨٨٧ ، تقرر دفع مرتبات الموظفين فى أول الشهر الذى يلى عملهم

بعد أن كانت تدفع في آخر الشهر ، وقد أدت هذه الحيلة الى دفع مرتبات أحد عشر شهرا فقط ، واستفادت الخزانة بمبلغ ٢٠٠ ألف جنيه ·

التدهور في الحياة ·

كانت مصر قبل الاحتلال البريطاني ، تنتج معظم ما تحتاج اليه من محصولات زراعية ، كما كانت الصناعة المحلية قائمة على اشباع حاجة السكان ·

وقامت سلطات الاحتلال بعد غلق المصانع الحربية ، بتصفية مصنع الورق ببولاق ، ودار سك النقود ، وباعت البواخر النيلية ، كما باعت مغازل القطن ومصانع النسيج ··

وفقدت الصناعة في مصر مكانتها التي كانت لها قبل الاحتلال ·· وكانت حال الصناعة فى مصر يشابه حال الصناعة فى أمريكا وانجلترا ، ولكن الصناعة الامريكية والانجليزية وجدت الحماية لتتطور ، أما فى مصر فانهارت تحت وطأة الاضطهاد وفتح الابواب لاستيراد البضائع الاجنبية ··

وأعلن كرومر حاكم مصر فى ذلك الوقت « انه ليكون ضارا بمصالح كل من انجلترا ومصر تشجيع أية صناعة قطنية محمية فى مصر ! » ·

وفرض كرومر ضريبة ٨٪ على انتاج المنسوجات المصرية ، ليقضى عليها لحساب مصانع الغزل والنسيج فى لانكشير ·

وكانت خطة الاستعمار تحطيم الصناعات الصغيرة ، ليفتح المجال للسلع الانجليزية وتحل محل المصنوعات المصرية ·

وشرد نتيجة هذه السياسة أكثر من مائتى ألف من صغار الحرفيين ، بما فرض عليهم من ضرائب باهظة وقوانين جائرة ··

ويعترف كرومر بنتيجة هذه السياسة فى تقرير له يقول «من يقارن الحالة الراهنة بالحالة التى كانت منذ ١٥ سنة ، يرى فرقا ضخما ، فالشوارع التى كانت مكتظة بدكاكين أرباب الصناعات والحرف من غزالين وخياطين وصباغين وخيامين وصانعى أحذية .. قد أصبحت مزدحمة بالقهاوى والدكاكين المليئة بالبضائع الاوربية .. أما الصانع المصرى ، فقد تضاءل شأنه وانحطت كفايته على مر الزمن ، وفسد لديه الذوق الفنى الذى طالما أخرج فى العصر القديم المعجزات فى مفاخر الصناعة » .

ولم تكتف بريطانيا بعدم انشاء ، ولو صناعة واحدة ، فحسب ، بل قتلوا بالفعل كل ما من شأنه أن يعود ببعض التقدم الصناعى .. وكان كرومر يرى ان انشاء مصنع فى مصر معناه اغلاق مصنع فى انجلترا .

وكان رؤساء المصالح الحكومية فى مصر من الانجليز ، وكانوا يفضلون شراء السلع البريطانية ، وكان المكتب الرئيسى لمشتريات الحكومة المصرية قائما فى لندن وليس فى القاهرة وكل موظفيه من الانجليز ..

لم تخسر مصر صناعاتها فحسب بل بدأت تخسر أرضها .. فالضرائب المنوعة التى بلغت ٣٣ نوعا ، قد القت بالفلاحين البائسين فى أحضان المرابين والممولين ، واستولى الملاك الاجانب على جزء كبير من الارض الزراعية ، وأصبح أكثر الملاك الوطنيين يعملون بالأجر عند الاجانب .

وتكونت شركات الأراضى برءوس أموال فرنسية وانجليزية، ومن أهم هذه الشركات .

• شركة أراضى أبو قير برأسمال بريطانى ومقرها لندن .

وكان عملها اصلاح وتملك أراضى أبى قير التى تبلغ مساحتها ٣١ ألف فدان ، وكان رأسمال الشركة ٣٠٠ ألف جنيه ، وصافى ربحها السنوى نحو ٤٧ ألف جنيه .

• شركة أراضى كوم امبو ورأسمالها مليون و٨٠٠ ألف جنيه وتملك ٣٠ ألف فدان .

• شركة أراضى البحيرة ، ورأسمالها ٧٥٠ ألف جنيه ، وتملك حوالى ٣٩ ألف فدان .

• الشركة المصرية الجديدة ، وتأسست فى انجلترا ورأسمالها ٣٧٥ ألف جنيه ، وتملك ٤٥٢٨ فدانا .

وعشر شركات أخرى ، وكلها برءوس أموال أجنبية ..

وقد أدت السياسة الاستعمارية فى الريف الى حالة من البؤس والشقاء من الصعب وصفها .. وقد كتب سير ادجر فنسنت المستشار المالى يصف حالة الفلاحين ، فقال :

« لقد راعنى ما رأيت فى رحلتى فى الصعيد من املاق الفلاحين .. ان بؤس الفلاحين فى تلك الجهات .. ليفوق كل ما رأيت فى غير مصر من البلاد .. »

وحتى سلطان باشا كتب يقول :

« ان البلاد لم تبلغ من البؤس مثل ما هى فى الوقت الحاضر، فالفلاحون بالنظر لديونهم وهبوط أسعار محصولاتهم قد غدوا فى ضنك يستحيل معه أن يجبى أكثر من نصف ضرائب السنة القادمة .. »

وكان بديهيا أن يصل الفلاح الى هذا الدرك من الشقاء ، مادام أصبح البقرة الحلوب التى تدر الأرباح لحملة الأسهم والسندات ..

ولم تخسر مصر مالها وصناعاتها وعرق بنيها والكثير من أرضها فحسب ، بل واجه الموظفون الوطنيون أياما شـقية ‎٠٠‏ رواتبهم متـأخرة ، والموظفون الاجانب مميزون عليهم ، وتحدثت جريدة التيمس اللندنية عن كثرة عدد الموظفين الأجانب قائلة :

« ‎٠٠‏ لقد أصبح مما يلهو به الزوار الساخرون أن يحصـوا عدد الموظفين الاوربيين الذين يتقاضون آلاف الجنيهات فى الوقت الذى لا يستطيع فيه مئات من موظفى الحكومة الوطنيين الحصول على مرتبات قليلة متأخرة من العام الماضى والذى قبله ‎٠٠‏ »

وهكذا حطم الاستعمار فى مصر كل شىء ‎٠٠‏ اسـتولى على الأرض من ملاكها القدامى ‎٠٠‏ وامتص دم الفلاح الى درجة المجاعة ‎٠٠‏ وأغلق المصانع ، وحطم الصناعة ، وشرد الموظفين والعمال ‎٠٠‏ وملأ الوظائف بالأجانب ‎٠٠‏ وسيطر على الجيش والبوليس ‎٠٠‏ واستنزف ثروة الشعب المصرى ليسدد ارباح الشركات والقروض ‎٠٠‏

وفى سبيل فرض السياسة الاستعمارية ، ألغيت الصحف الوطنية ، ولم تبق الا الصحف المؤيدة للاستعمار والتى تحصل على معونات من السلطات الحاكمة ‎٠٠‏ ثم صدر قانون المطبوعات ‎٠٠‏

وفى ٤ من يوليو عام ١٩٠٩ ، صدر قانون عجيب ينص على وضع بعض الأشخاص تحت رقابة البوليس ‎٠٠‏ وأصبح أى شخص ولو لم تثبت عليه تهمة أو جريمة يحال الى لجنة خاصـة ، ولهذه اللجنـة أن تحكم عليه بتحديد اقامته تحت رقابة البوليس لمدة لا تتجاوز خمس سنوات ، وكان المفروض أن هذا القانون قد صدر لمحاربة الجرائم ، ولكن سرعان ما طبق على الحالات السياسـية ‎٠٠‏ ووضعت قوائم بأسماء المشتبه فيهم ، وفى خلال سـتة أشهر ، ضمت هذه القوائم أكثر من ١٢ ألف مصرى ‎٠٠‏

الاحتلال والحرب :

ارتبطت سياسة الاحتلال فى مصر بالحرب .. وكانت الحرب قد أصبحت ضروزة من ضروريات النظام الرأسمالى ..

ففى أواخر الفرن التاسع عشر ، تأزمت المشاكل الاقتصادية والسياسية بين الدول الرأسمالية الاستعمارية ، وأصبحت مسألة تقسيم الأسواق واعادة توزيعها بين الدول الرأسمالية الكبرى مشكلة حادة ..

ورأت الدول الاستعمارية التى بدأت عهد الغزو فى وقت متأخر ، انها مغبونة .. فالعالم قد تم تقسيمه ، ولم تعد هناك شعوب حرة يمكن استعبادها ووجدت الولايات المتحدة واليابان وألمانيا أن من حقها اقتسام المستعمرات ومناطق النفوذ من جديد للحصول على المواد الخام،وتوزيع بضائعها وتصدير رءوس أموالها.

وتشكلت كتلتان استعماريتان تقف كل منهما فى مواجهة الأخرى .. ضمت الأولى بريطانيا وفرنسا .. وضمت الاخرى المانيا والنمسا ..

واشتعلت الحرب العالمية الاولى بين الكتلتين الاستعماريتين واشتركت فيها فيما بعد اليابان والولايات المتحدة وتركيا ..

كانت المانيا تحلم بانشاء « المانيا العظمى » فى وسط أوروبا كما كانت تحلم بانشاء امبراطورية استعمارية فى افريقيا بالاستيلاء على المستعمرات البريطانية والفرنسية والبلجيكية ، وأرادت المانيا أن تزيح منافستها الرئيسية بريطانيا وأن تحطم سيادتها البحرية ..

وكان الاستعماريون البريطانيون يريدون تحطيم المانيا بوصفها أخطر خصم لهم فى السوق العالمية ، ويريدون اضعاف قوتها الاقتصادية والقضاء على الاسطول الالماني واغتصاب المستعمرات الالمانية .. كما كانت بريطانيا تهدف الى الاستيلاء على تركة تركيا فى الشرق العربى ..

أما فرنسا فكان هدفها القضاء على قدرة المانيا الاقتصادية والمالية ، واحتلال المستعمرات الالمانية فى افريقيا ..

وانتهت الحرب العالمية الاولى وبلغ عدد القتلى حوالى ١٠ ملايين وعدد الجرحى والمشوهين أكثر من ٢١ مليونا ، وأضعفت الحرب بعض الدول الاستعمارية من الناحية الاقتصادية ، أما أمريكا فقد أثرت ، وبلغ ما جنته من ارباح حوالى ٩٦٥ مليون دولار ..

وتأثرت مصر من وراء وجود قوات الاحتلال البريطانى .. ففى نوفمبر عام ١٩١٤ أعلنت الاحكام العرفية ، وشددت الرقابة التى وصفتها صحيفة التايمز بأنها « أقل كفاية من رقابة أى بلد تحت الحكم البريطانى وأشدها بطشا وأكثرها عسفا » ، وفى ديسمبر أعلنت الحماية على مصر ، وفى عام ١٩١٦ ، استدعى احتياطى الجيش المصرى الى الخدمة ، وابتداء من عام ١٩١٧ اشتد الاستعمار فى طلب الرجال والمؤن والجمال ..

ويقول ليفتنانت الجود فى كتابه « مصر والجيش » :

« ظهر فى عام ١٩١٦ انه اذا لم تستخدم السخرة ، فلن تتوافر الامدادات اللازمة للفرق الاحتياطية المصرية ، ولذا فقد كان الحصار يضرب على جموع الريفيين فى أثناء ذهابهم الى الأسواق ثم يرسلون الى أقرب « نقطة عمل » وبينما كانت الأغلبية تقابل مصيرها بالتسليم ، كان البعض يبدى مقاومة ، وكان آخرون يفرون

الى المنـــاطق المجاورة ، ولكن كانت نهاية هؤلاء جميعـــا واحدة ، فالمقاومة تخمد ، ويقبض على الفارين ثم يســـلمون الى ضـــابط القرعة ٠٠ »

وكان الضغط يزيد ٠٠ ويزيد كلما اتسعت العمليات الحربية ٠٠ وطالت خطوط التموين ، وكان المصريون أكفأ العناصر التى جندتها القوات البريطانية فى اقامة الجسور ومد السكك الحديدية ٠

وبدأ الفـــلاحون يفرون من القرى ، فأخذت قوات البوليس والجيش تهاجم القرى لجمع المتطوعين بالقوة وارســـالهم الى مراكز العمل تحت حماية عسكرية ٠٠ كانت السلطات العسكرية البريطانية تريد رجالا بأى ثمن ، فلم تتردد عن استعمال أبشع الوسائل ٠

وجندت بريطانيا من المصريين أكثر من ١٧٠ ألفـــا فى فرق المواصلات بالجمـــال ، وقدر مجموع المصريين المجندين فى مختلف القوات بحوالى المليون ٠

واستولى مكتب الامدادات بنفس الطرق على المحصـــولات ، وأجبرت الحكومة على أن تدفع ٣ر٥ مليون جنيه مساهمة منها فى نفقات الحرب ، وســـلم مبلغ ٦٠٠ ألف جنيه الى الصليب الاحمر البريطانى ، وهو مبلغ فرض اجباريا على القرى فى مصر ٠

واشتد الحكم العرفى ، والرقابة ، وقانون الاجتماعات الذى يحرم اجتماع أكثر من خمسة أشخاص ، وابقاء مئات من المصريين فى السجون لمجرد الشبهة ٠ بالاضافة الى الضغط الاقتصادى ٠٠

كل هذا حدث فى الحرب العالمية الأولى ، ولم تكن مصر قاعدة عسكرية ، أو فى تحالف عسكرى ٠٠

ومن البديهى أن مصر تحت الاحتلال البريطانى ، وفى ظروف الحرب فتحت أبوابها للقوات العسكرية التابعة أو المتحالفة لبريطانيا

.. فكان الجنود البريطانيون السكارى يأخذون البراقع بالعنف من فوق وجوه السيدات المصريات .. كما حدثت اعتداءات وحوادث خطف ..

وكان الجنود الاستراليون يظنون أن مصر بلاد انجليزية ، وأن المصريين دخلاء .. ويعجبون كيف سمح لهؤلاء العبيد (المصريين) أن يأتوا الى هذه الديار .

ويقول الدكتور جست :

« .. سمعت غير واحد من الاستراليين يقول : لو كان الأمر بيدى لما أبقيت على واحد من المصريين فى هذه البلاد ! . »

ويقول :

« ومما زاد الطين بلة أن الجنود عند مجيئهم وجدوا الحانات كلها مفتوحة الأبواب ليل نهار .. فأدى ذلك الى حدوث مخاز اشمأزت منها نفوس المصريين وملأت قلوبهم غيظا واحتقارا .. » .

ونشرت « مس درهام » مقالا فى جريد الديلى نيوز الانجليزية تقول فيها :

« أقسم لو كنت مصرية لما ترددت فى بذل النفس لطرد الانجليز من مصر ، وانى والحق يقال كنت أخجل اشد الخجل لانتسابى لبلادى .. » .

.. وهكذا ، شاءت الحرب ، أن تشهد مصر آثار الأحلاف العسكرية قبل أن تظهر الأحلاف .. وأن تعيش حياة القواعد العسكرية ، قبل أن تصبح الأحلاف والقواعد العسكرية سياسة رسمية يعلنها الاستعمار ويجر الشعوب الى الارتباط بها .. ويدفعها الى الحروب ..

بداية المقاومة :

لم يكن الحال كله ظلاما .. بل خلال السواد انطلقت ومضات النور من أجل الغد ..

وأطلق الفلاحون أول اشارات المقاومة عام ١٩٠٦ ، عندما حاول بعض الضباط البريطانيين صيد الحمام فى قرية « دنشواى » وأصابوا أمرأة وأحرقوا جرنا للفلاحين .. وهجم عليهم فلاح شيخ فى الخامسة والسبعين من العمر .. لم ترهبه بنادقهم أو أزياؤهم العسكرية ، وأخذ يجذب من الضابط الانجليزى بندقيته .. وهاجم أهل القرية الضباط الانجليز بالطوب والعصى .. وكانت هذه الحادثة أول شرارة للمقاومة ..

وفى عام ١٩١٠ حاولت بريطانيا مد امتياز قناة السويس ، وتصدى شاب وطنى لرئيس الوزارة المصرية الذى أراد أن يوقع الاتفاق وأطلق عليه الرصاص .. وسقط قتيلا ..

وفى عام ١٩١٥ أطلق شاب الرصاص على السلطان حسين لقبوله عرش مصر فى ظل الحماية البريطانية ..

وبعد شهرين ، ألقيت قنبلة على السلطان حسين فى الاسكندرية ..

وفى عام ١٩١٦ اجتمع المجندون للحرب من الريف فى ثكنات عين شمس ، وساروا فى مظاهرة الى ميدان عابدين ، احتجاجا على معاملة البريطانيين .. وتركت هذه المظاهرة صدى بعيدا ..

وعندما أراد السلطان حسين زيارة مدرسة الحقوق ، نظم الطلبة اضرابا صامتا ، واتفقوا على عدم الحضور فى ذلك اليوم .. ونفذوا اتفاقهم .. وكان هذا اول عمل سياسى يتم بشكل منظم ، فاهتمت به السلطات البريطانية .. وفصلت ٥٤ طالبا ..

وبدات الحياة ..

الفصل الثامن

« قد يخبو لهيب الحرية أحياناً..

ولكن جمرها لن ينطفىء » .

توم بين

مصر .. والاشتراكية

وقف

الشعب شامخا .. كأنه الجبال .. كأنه الأمواج .. كأنه العواصف تهدأ لتثور .. ولم يكن الاحتلال بالنسبة له الا حدثا عابرا ، ينتهى كما انتهت عشرات ومئات الغزوات عبر آلاف السنين .

وظهر اصرار الشعب على المقاومة ، عندما قرر عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية ،وروحها الناطق، ولسانها الساحر العنيف، الا يسلم نفسه لسلطات الاحتلال .

اختفى النديم .. وحشدت قوات الاحتلال ، والحكومة العميلة كل قواتها للقبض عليه .. وبثت الجواسيس فى كل مكان .. وفشلت جهودها .. وأعلنت عن مكافأة ألف جنيه لمن يقبض على النديم حيا أو ميتا .. وقررت عقوبة الاعدام لمن يخفيه .. وتوالت انذاراتها ووعودها فى الصحف .. ووزعت منشوراتها على المديرين والعمد ، تريد النديم .

وسخر الشعب من كل الوعود والوعيد .. ووقف الشعب عملاقا يحمى ثائره .. وظل النديم مختفيا تسع سنوات بين الفلاحين فى القرى .. وفى المزارع .. يكتب .. ويراسل زعماء الثورة .. كأنه روح الشعب لا يهدأ ولا ينطفىء .

ويظهر النديم بعد أن زاد ايمانا بالفلاحين ، وحبا للشعب ، وثقة فى الغد .. واستأنف كفاحه .. وأصدر مجلة « الأستاذ »

ليسخر من الاحتلال ومن الباشوات ·· وهاجم الاستعمار فى عنف ·· وتحدث من جديد عن الصناعة ·· والحرية ·

وصدر الأمر بالنفى ·

عاد النديم من منفاه ليلقى فى مصر شابا يتقد حماسا ويلتهب وطنية ·· ونقل النديم الى الشاب الثائر أسرار الثورة العرابية ·· أهدافها · كفاحها · الخيانات · والدسائس ·

كان هذا الشاب ·· مصطفى كامل ·

وارتفع صوت مصطفى كامل صارخا ·

« لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس » ·

وانطلق مصطفى كامل فى مصر ·· وسافر الى أوروبا ·· ووجه نداءه الى مجلس نواب فرنسا يطلب من فرنسا أن تساعد مصر على استرجاع حريتها واستقلالها ·· وسافر الى النمسا ·· واتصل بكبار الصحفيين والسياسيين ·· وسافر الى ألمانيا ·· وتركيا ·· والمجر ·

وعاد الى مصر ·· وأنشأ الحزب الوطنى ·· وأخذ يخطب شارحا قضية مصر · ويطالب « بالجلاء » وأصدر جريدة اللواء ·· وجدد الدعوة الى الصناعة ، فكتب فى جريدته :

« ·· ان الاهتمام بالصناعات يخلق روح الصناعة ، وهو بلا مراء أسمى خدمة تقدم اليها وأكبر سعادة تجهز لرجال الغد · »

ووقعت حادثة دنشواى ، وصدر حكم الاحتلال بالاعدام على أربعة ، والأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين ، والسجن سبع سنوات على ستة ، والحبس والجلد على ثمانية ·· كل هذه الأحكام لمصرع

ضابط انجليزى واحد ٠٠ وارتفع صوت مصطفى كامل فى العالم منددا بالمجزرة ، وكشف وحشية الاحتلال ٠

٠٠ وبدأت مع مصطفى كامل حركة جديدة ، هزت الاستعمار ٠٠ وأيقظت الوعى ٠

وكان مصطفى كامل ، قد حاول أن يحرك نخوة الخديو عباس الذى تولى الحكم بعد توفيق ٠٠ كما حاول أن يستثير فى فرنسا مبادىء المساواة والحرية ٠٠ وأراد أن يدفع فى الاقطاع هزة وطنية ٠

وفشل مصطفى كامل ٠٠ فالخديو يتآمر على الحركة الوطنية ، وفرنسا تساوم انجلترا ، وأقرت فرنسا احتلال انجلترا لمصر ، مقابل اطلاق يدها فى مراكش ٠٠ والاقطاع فى حالة استسلام للاحتلال ٠

ويتجه مصطفى كامل الى الجماهير ٠٠ ويقول :

« ان العزلة التى صرنا اليها بعثت فينا روحا جديدة ٠٠ ان الأمم لا تنهض الا بنفسها ، ولا تسترد استقلالها الا بمجهوداتها ٠٠ ليخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد للمطالبة بالحق الوطنى والحرية الأهلية والاستقلال المقدس٠ »

محمد فريد :

كان محمد فريد منهجا جديدا فى السياسة المصرية ٠٠ تولى زعامة الحزب الوطنى بعد وفاة مصطفى كامل ٠٠ وأدرك منذ الوهلة الأولى ، أن مواجهة الاستعمار تتطلب تفكيرا علميا ٠

ان النكسة التى حدثت للثورة العرابية ، لم يكن سببها الشعب

بل خرجت الجماهير من الحسينية وبولاق تطالب بالمقاومة الشعبية ٠٠ كما كانت بقية قوات الجيش على استعداد لاستئناف القتال ٠٠ ولكن النكسة حدثت بعد خيانة الخديو والاقطاع ٠٠

وكانت بذور الفكر الاشتراكي التى نقلها أفراد البعثات المصرية من أوروبا ، قد أخذت فى النمو ٠٠ وتابع محمد فريد القيـــادات الاشتراكية فى أوروبا ٠٠ وأدرك أن الثورة العالمية دخلت مرحلة جديدة ، ولم تعد مبادىء الثورة الفرنسية تمثل ثورة العصر ، بل حلت محلها أسس الفكر العلمى ، والنورة الاشتراكية ٠٠ كما أصبح واضحا أن مصر أمام أحد أمرين ،اما ان تسلك الطريق الى الاشتراكية لتساير الحضارة الأوروبية الحديثة وتصبح جزءا من الثورة العالمية ضد الاستعمار والاستغلال ، واما أن تتخلف عن ركب التطور ، وتظل بلدا تابعا متخلفا مستعبدا ٠٠

واتجه محمد فريد بالحركة الوطنية وجهة جديدة ، وحاول أن يربط بين حركة المثقفين وحركة انعمال ٠٠ كما حاول أن يربط بين المشاكل السياسية والمشاكل الاجتماعية ٠٠

وكان محمد فريد واضحا حين قال فى خطبة له :

« اشرحوا للعامل ٠٠ أخرجوه من الظلمات الى النور ، اشرحوا له حالة اخوانه فى أوروبا ٠٠ وما هم فيه من سعادة نسبية بفضل العلم والاتحاد والتضامن ٠٠ »

وقال :

« العمال في بلادنا مهملون كالفلاح » ٠

ثم أوضح القوة التى يمكن أن يمدها بتنظيم العمال للحركة الوطنية فى كفاحها ضد الاستعمار ، بقوله :

« نقابات العمال قوة هائلة تخضع لها الحكومات وتطأطىء رأسها أمامها ٠٠ »

٠٠ كان محمد فريد ، واعيا بجوهر الاستعمار ، وحقيقة أهدافه ٠٠ فكان لا يرى فى الاستعمار مجرد احتلال لمصر ، بل هو ابتزاز واستغلال لأموال المصريين وثروة الشعب ، وكان يرى أن العبء الأكبر من هذا الابتزاز يقع على الفلاحين والعمال ، فالأجانب من أصحاب الشركات الزراعية والمرابين والاقطاعيين يسلبون الفلاح أرضه ويبتزون جهده ، والحكومة تثقله بالضرائب لتدفع فوائد الديون لأصحاب السندات من المستعمرين ٠٠

أما العامل المصرى ، فقد لقى الجوع والتشرد والموت على يد الاحتلال ٠٠ فعندما أراد الانجليز أن يجعلوا من مصر مزرعة قطن ، حاربوا صناعة الغزل حتى اندثرت ، وتشرد العمال عاطلين ٠٠

وكما يحدث فى كل المستعمرات استغل الرأسماليون الأجانب الأيدى العاملة المصرية ، بأرخص الأجور فى الشركات التى أنشئوها ويصف محمد فريد ، حال العمال فى ظل الاحتلال ، فى مقال نشرته الديلى نيوز عام ١٩٠٨ بقوله :

« الى الآن لا توجد بمصر قوانين خاصة بحماية العمال ولا قوانين تحدد سنهم ، ولا عدد الساعات التى يجب أن يقضوها فى العمل ، فتجد العامل مثقل الكواهل بلا رحمة وخصوصا فى معامل الدخان ، ومعامل حلج القطن ، حيث يشتغل الأطفال ذكورا واناثا فى وسط من أردأ الأوساط من الوجهة الصحية والأدبية » ٠

٠٠ هكذا كان محمد فريد مؤمنا منذ عام ١٩٠٨ بأن حل المسألة الوطنية وطرد الاستعمار مرتبط بالتغيرات الاجتماعية التى يجب أن تحدث فى مصر ٠٠ وكان يرى أن التغلب على قوى الاحتلال السياسية والعسكرية والاقتصادية تتطلب تنظيم القوى الحقيقية

للشعب .. فلو أن قوى الجماهير كانت منظمة خلال الثورة العرابية ، لما استطاعت قوى الاستعمار والخيانة والاقطاع أن تقضى على الحكم الوطنى ..

واهتم الحزب الوطنى فى أثناء رياسة محمد فريد ، بانشاء مدارس للعمال في بولاق والخليفة وشبرا والعباسية ، كما أسس الحزب جمعية للخطابة فى حى الخليفة يتناوب فيها العمال والطلبة الخطابة ، وساهم فى انشاء أول نقابة للعمال فى مصر عام ١٩٠٩ باسم « نقابة عمال الصنائع اليدوية » وبلغ عدد أعضائها فى نهاية العام الأول أكثر من ٨٠٠ عامل .

واهتم محمد فريد بالعمال الزراعيين ، فجاء فى حديث له :

« يجب ايجاد النقابات الزراعية حتى تشتغل بتخفيف الضرائب عن الأطيان وتحسين حال الفلاح .. حيث لا خلاص له من بؤسه وشقائه ، الا بتشكيل نقابات زراعية للدفاع عن حقوقه أمام الحكومة، وأمام الملاك الذين يزيدون عليه الايجارات بمناسبة وغير مناسبة ، وأمام المرابين الذين يأخذون منه ما يبقى لهم بين جشع الملاك وظلم الحكومة .. »

وكان لهذا أثره فى زيادة قوة الحركة الوطنية ، فهب الشعب فى مظاهرة ضخمة عام ١٩٠٩ ضد القيود التى فرضها الاحتلال على الصحافة ، وتجمع آلاف الشباب من طلبة المدارس العليا والأزهر وطوائف التجار والعمال ، وساروا فى مظاهرة احتجاج .. وتجددت المظاهرة فى الأيام التالية واصطدم المتظاهرون برجال البوليس ..

وهكذا استطاع الحزب الوطنى أن يجذب العمال الى المعركة السياسية بعد أن بعث الوعي فى صفوفهم ..

كما ربط محمد فريد بين كفاح الشعب المصرى ، وحركة السلام العالمية ، فدعا عام ١٩١١ الى تأسيس جمعية السلام فى وادى

النيل تكون لها علاقة رسمية بمكتب السلام الدائم فى أوروبا ، وكان محمد فريد أول من قال بأن الجلاء عن مصر هو خدمة للسلام العالمى ، وأن مصلحة السلام العالمى أن تستقل مصر وأن تنال حكومة وطنية ..

كما ربط محمد فريد قضية استقلال مصر ، بقضية الاشتراكية الدولية ، فلم يترك ، وهو فى منفاه فى أوروبا مؤتمرا دوليا اشتراكيا الا وتقدم له مذكرة بمطالب مصر ، كمؤتمر بروكسل عام ١٩١١ ، ومؤتمر برن عام ١٩١٩ ..

لقد أدرك محمد فريد منذ وقت مبكر ، أن قضية مصر الوطنية هى جزء من قضية الاشتراكية العالمية ..

ورأى الاستعمار فى هذا المنهج السياسى الجديد خطرا حقيقيا على وجوده،فلفق أول قضية ضد الزعيم الوطنى ، وصدر الحكم بسجنه ستة أشهر .. وزاره كوكس باشا مدير مصلحة السجون وقال له :

ـ انى أسعى للعفو عنك اذا وعدت بتغيير خطتك .

ورد محمد فريد :

ـ ان ما تطلبه مستحيل .

فقال كوكس باشا :

ـ انى لا أطلب منك تغيير مبادئك بل تخفيف لهجتك .

ورفض محمد فريد .. وقضى مدة الحكم فى السجن ، وخرج ليكتب .. « قضيت هذه المدة في السجن دون أن أشعر بأقل ضيق. وكنت كلما شعرت بأن شيطان الضجر يسعى لأن يجد الى نفسى سبيلا ، تذكرت ما قاساه خدام الوطن فى كل البلاد ، مثل ايطاليا والفرنسيين وأحرار الأتراك فى عهد عبد الحميد ، وما يقاسيه الآن

أحرار بولونيا والروسيا فى سيبيريا وفى السجون تحت حكم القيصر من أنواع التعذيب كالضرب بالسياط والموت جوعا ·· فأقول فى نفسى ان هذا الحبس لا شىء بجانب حبى لمصر ، أمى العزيزة ، فيذهب عنى الضجر ، وتزداد عزيمتى اشتدادا ·· »

وفى مارس عام ١٩١٢ ، ألقى محمد فريد خطابا ، وأكد فيه تمسكه بالاتجاهات الاشتراكية ··

تحدث عن مشروع الجامعة المصرية ·· وتحدث عن الحركة التعاونية ، ونقابات العمال والفلاحين ·· ومدارس الشعب ·· ودعا الشعب الى الجهاد وجاء فى خطبته ··

« ·· انظروا الى تحكم الشركات الأجنبية ، مثل شركات الترامواى ، والسكك الحديدية ، وماشاكلها فى العمال ، وانظروا الى الفلاح المستأجر ، والى ما يفرضه عليه مالك الأرض من الايجار الباهظ ، تجدوا أنه فى أحط دركات الفقر ، فالعامل لا يحصل على قوت يومه الا بعد أن يشتغل ١٢ ساعة كل يوم على الاقل ، والفلاح لا يصل الى ما يسد الرمق من أردأ أنواع الخبز الا بشق الأنفس ·· »

ورأى الاستعمار ، أن هذا المنهج السياسى الجديد يمثل خطرا حقيقيا على وجوده ·· فدبر محاكمة ثانية لحبسه ·· واجتمع أصدقاء محمد فريد وقرروا سفره الى الخارج ·· ومنذ ذلك اليوم عاش محمد فريد منفيا فى أوروبا ··

·· وفى أوروبا حضر محمد فريد مؤتمر السلام فى جنيف ·· ومؤتمر السلام فى هولندا ·· ومؤتمر الأجناس المضطهدة فى لندن ·· وظل يتابع ارسال المذكرات الى المؤتمرات الدولية ، ومؤتمر الصلح ·· والمؤتمرات الاشتراكية ··

ومات محمد فريد ·· وحاول الاستعمار والرجعية ، وضع

ستار كثيف بين أفكار محمد فريد والحركة الوطنية ٠٠ ولكن حركة التاريخ لا تتوقف ٠٠

الحركة الاشتراكية :

لم يكن محمد فريد أول مصرى يتابع الفكر الاشتراكى فى ظهوره ونموه وتطوره ٠٠ سبقه رفاعة رافع الطهطاوى ، عندما كان فى فرنسا وعاش معارك الفكر والثورات السياسية ٠٠ كما تحدث النديم عن « السوسياليست » أى الاشتراكية فى مقالاته عندما كان يقارن بين الثراء الفاحش للأسرة المالكة والاقطاعيين ، والفقر المدقع الذى تعيشه جماهير الشعب ٠٠

وكان اتصال مصطفى كامل بأوروبا من أجل القضية الوطنية وسيلة لاتصال الفكر السياسى فى مصر بالفكر السياسى المتطور فى أوروبا ٠٠ وفى مقدمته الفكر الاشتراكى ٠٠

ودرس محمد فريد الاشتراكية ، وأدرك أن القضية الوطنية لا يمكن أن تحل ، ما لم يأخذ الكفاح الوطنى منهجا اشتراكيا علميا لمواجهة الرأسمالية والاستعمار العالمى فى نموه وبطشه ٠٠

واتصل محمد فريد ، بالتيارات ، والمنظمات الاشتراكية فى أوروبا ٠٠ وكانت خطواته بداية لمنهج جديد ، لا يقوم على العاطفة وحدها أو الحماس وحده ، بل اتجه الى مواجهة الاستعمار بسلاح الفكر السياسى العلمى ، والمنهج الاشتراكى ٠٠

فما هى الاشتراكية ؟

ولدت الاشتراكية ، خلال أحداث الثورة الفرنسية ، وكانت جنينا ينمو خلال القرن السابع عشر ٠٠

وقد نذهب أبعد من ذلك لنرى الحضارات القديمة ، والأديان

كلها قد مهدت الفكر الانسانى وغذته بالمعرفة والحقيقة والسمو ليصل الى الاشتراكية ..

ففى الحضارة الفرعونية القديمة خلال الأسرة الخامسة نجد ثورة الفلاحين ضد الملوك والأثرياء الجشعين .. ثم نجد أثر هذه الثورة على الأفكار .. فيقولون :

« لا ترفع ابن الشخص العظيم على ابن الشخص المتواضع بل قرب اليك الانسان على حسب كفايته الشخصية » .

وفى الحضارة الصينية القديمة .. ما بين عامى ١٠٦١-١٠٨٦، نقرأ كلمات وانج آن شى ..

« يجب أن تسيطر الدولة على جميع شئون التجارة والصناعة والزراعة وتصرفها بنفسها ، وأن يكون الهدف الذى ترمى اليه من وراء ذلك غوث الطبقات العاملة ،وأن تحول بينها وبين أن يذلها الأغنياء ، ويطحنوها طحن الرحى » .

وتعتبر تعاليم المسيحية قمة الاشتراكية الخيالية من الوجهة الأخلاقية الدينية ..

وفى القرآن الكريم ، قال تعالى : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض » ويرى المفسرون أن هذا المبدأ معناه أن الناس متساوون جميعا فى الاستفادة من خيرات الأرض والسماء ، مادام الخطاب للناس جميعا ، والله قد بذلها لهم من غير ثمن ، وذللها لهم من غير تمييز بين فئة وفئة أو أمة وأمة ..

ان هذه التمهيدات فى الحضارة القديمة ..وهذا السمو الروحى فى الأديان ، كانت له آثاره البعيدة فى الفكر الاشتراكى ..

وقامت الثورة الفرنسية ، مع نمو الصناعة وظهور الرأسمالية

•• ووجد الشعب الفرنسى أن النظام الاقطاعى يقف فى طريق التطور الصناعى ويسبب الابتناء والفقر لجماهير الشعب ••

وانطلقت ثورة الرأسمالية ضد الملك وأمراء الاقطاع •• وقامت الجماهير الشعبية بحمل عبء الثورة •• فهاجمت سجن الباستيل وأطلقت سراح المسجونين السياسيين •• كما حملت الجماهير عبء القتال ضد أعداء الثورة فى الداخل والخارج •• وبذلت دماءها وحياتها فى سبيل حياة أفضل •• ونادت بالمساواة والاخاء والحرية.

وانتصرت الثورة الفرنسية ، ولكن سرعان ما انطلقت الرأسمالية تبحث عن مصالحها ، وتهاونت مع الرجعية وبقايا الاقطاع ونصبت المدافع فى شوارع باريس توجه نيرانها الى جماهير الشعب ••

وقامت حركة « بابيف » ، ونادت بالحق الطبيعى لجميع الناس على قدم المساواة فى التمتع بالخيرات التى توفرها الطبيعة ، كما نادوا بالغاء كل من الثراء والفقر لمصلحة السعادة البشرية •• وقالوا بأن هناك التزاما عاما على الجميع بأن يعملوا ، وحقا عاما للجميع فى أن يتعلموا ••

وكانت حركة « بابيف » نتيجة خيبة الأمل فى الثورة •• فقد عقدت عليها آمال كبار •• وكل ما بدا منها أن القطاعات الفقيرة فى الشعب الفرنسى ازدادت فقرا •• فالفلاحون حصلوا على الأرض ، أما العمال فلم يحصلوا الا على الجوع والتعطل ••

وجاء دستور الثورة لينص على شروط للانتخاب ، لا تسمح الا لأفراد الطبقة الوسطى بتمثيل الشعب فى البرلمان ••

وبدأت الرأسمالية تبحث عن موارد جديدة وأسواق تستولى عليها وشعوب تستعبدها •• واستولى نابليون على بلجيكا أغنى مناطق

أوروبا فى ذلك الوقت من الناحية الاقتصادية والصناعية ·· ثم اتجه نابليــون شرقا وغربا فى أوروبا ليجعلها ســوقا للرأسمالية الفرنسية ·· ثم خرج من أوروبا ليستولى على مصر ، ويقطع الطريق الى الهنــــد فى وجه انجلترا ·· وبدأ صراع عنيف على اقتســـام الأسواق ·

وأدركت شعوب أوروبا ، أن مصالح الناس فى وطن واحد لا يمكن أن تكون واحدة ، وأن الطبقة الرأسمالية الاستعمارية تزداد غنى على حساب الرأسمالية الصغيرة والمثقفين والعمال والفلاحين ، الذين ينحدرون الى مهاوى الافلاس والفقر ·· فالمصانع الكبيرة تلتهم المصانع الصغيرة ·· والعمال يعانون من البطالة ·· والفلاحون يقعون فى براثن ارتفاع الأسعار ·· وتواجه الجماهير أزمات الرأســـمالية الدورية ·· كما تساق الجماهير الى الحرب كالخراف لملء جيوب فئة أو طبقة بالثراء على حساب الآخرين ··

وهكذا ظهرت كلمات الاشتراكية ، والطبقات ·· وبدأ صراع رهيب بين الرأسماليين الاستعماريين وبين طبقات الشعب العاملة وشعوب المستعمرات ··

ومضى الفكر الاشتراكى فى تطوره ، ونموه ، يضيف كل يوم جديدا الى الدراسات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ويكشف أسرار تطور المجتمعات ، وأسس تقدمها وحقيقة الصراع فى المجتمعات والتناقضات فى العالم ·· وأسباب الثورات والحروب ·· والأسس الموضوعية لظاهرة الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية ··

وظهرت مدارس ومذاهب متعددة فى الاشتراكية ·· الاشتراكية الخيالية ·· واشتراكية الدولة ·· والاشـــتراكيون الاقتصـــاديون والفوضويون ·· والاشتراكية النابية ·· وخاضت الاشتراكية صراعا

فكريا عنيفا ·· كما ساهمت فى ثورات أوروبا ضد الملوك والدول الرأسمالية الاستعمارية ··

وظل الصراع بين المدارس والنظريات الاشتراكية المختلفة قائما حتى اندلعت الحرب العالمية الأولى ·· وظهرت الدعوة الى السلام لمواجهة الحروب ·· وعقدت المؤتمرات الاشتراكية ، وأعلنت أن هذه الحرب قد شنت لمصلحة الاستعماريين ، وأن الجنود من العمال والفلاحين الذين يخوضون هذه الحروب ، انما يقدمون ضحايا على مذبح الرأسماليين الجشعين ·· ووجهوا نداءاتهم الى العمال والفلاحين بالامتناع عن الحرب ··

ولكن سرعان ما انشق قسم من الاشتراكيين يمثلهم حزب العمال البريطانى، وبعض أحزاب أوروبا ، واشترك بعض أفراد هذه الأحزاب فى وزارات الحرب ··وكشف هذا الموقف انتصار الاشتراكية العلمية ، فان أنصارهم هم وحدهم الذين تمسكوا بالدعوة الى السلام وكشف تجار الحروب ··

وكان من أهم ما تمخض عنه الفكر الاشتراكى ، أن الرأسمالية الجشعة تعتمد فى بسط سلطانها وجبروتها على تنظيماتها السياسية التى تتمثل فى احزابها ومجالسها النيابية ،وقوتها المالية والاقتصادية وسيطرتها على أجهزة الصحافة والاعلام ··

وأدرك الفكر الاشتراكى أن العمال بتضامنهم ووجودهم بشكل منظم داخل المصانع والمؤسسات يستطيعون بتحالفهم مع بقية طبقات الشعب العاملة ، أن يردوا على عنف الرأسمالية ومؤامراتها ، ووحشيتها ··

وكانت الرأسمالية تواجه أزمات عنيفة ، كما أن سير التاريخ كان يؤكد زوالها ، وانتهاء عصرها ·· ويحاول الرأسماليون أن يتشبثوا بمصالحهم الخاصة ، ورأوا أن الاشتراكية تعجل بنهايتهم،

فشنوا حربا مسعورة .. علقوا المشانق للاشتراكيين فى كل أوروبا .. وأقاموا المجازر ضد الجماهير الشعبية .. وقمعوا الثورات بمنتهى القسوة والوحشية ..

.. ثم شنوا حربا شعواء بالأكاذيب ، والافتراءات .. وكانوا يستغلون جهل الجماهير وينشرون بينهم حملات التشكيك ،ويشوهون فى نظرهم الاشتراكية ..

ولم تكن المعركة هينة ، فالرأسمالية تبحث عن الحلول لمشاكلها ، وكلما واجهت أزمة ، حاولت أن تتغلب عليها بكل الوسائل .. بالحرب أو الثورة المضادة أو المؤامرات .. وفى نفس الوقت كان تطورها الاقتصادى يتجه بها نحو تركيز الثروات فى أيد قليلة من أفرادها ، فى حين تزداد الشعوب معاناة وفقرا ..

وظهرت احتكارات البترول ، والصلب ، والكهرباء ، والمناجم .. وتضخمت الثروات فى أيدى قلة ، وظهر أصحاب المليون جنيه .. وأصحاب الملايين .. ثم أصحاب المليارات ..

واليوم ، في الولايات المتحدة ، يملك ١٪ من السكان ٥٩٪ من ثروة أمريكا .. وفي انجلترا نجد أن أقل من ٢٪ يملكون ٦٧٫٥٪ من ثروة بريطانيا ..

وأعطت الاشتراكية احصائيات هامة عن استغلال الدول الاستعمارية للشعوب المقهورة .. وكشفت عن تقسيم الاسواق بين الدول الاستعمارية .. كما كشفت عن قيمة الثروات التى ينهبها الاستعمار من المستعمرات .. وأوضحت طريقة النهب الذى يتم عن طريق القروض ، أو اقامة المصانع فى المستعمرات لتشغيل الأيدى العاملة بأجور زهيدة ، والحصول على أرباح مضاعفة ..

وتلقت المستعمرات مبادىء الفكر الاشتراكى ، وبدأت النضال على أسس جديدة ..

الثورة العربية :

أخـــذت بذور الوعي العـــربى ، التى انطلقت مع التـــورة العرابية فى النمو ·· وكلما اشتد هجوم الاستعمار ضراوة ، كانت الشعوب العربية تتجه نحو كفاح مشترك ضد العدو المشترك ··

وكانت الشـــعوب العربية فى الفترة السابقة للحرب تواجه استعمارين ·· الاستعمار التركى المتخلف ·· والاستعمار الانجليزى الفرنسى الزاحف ··

وتشكلت « الجمعية العربية الفتاه » كما تشكلت جمعية «العهد» التى رأســـها عزيز المصرى ·· وكان هدف الجمعيتين التخلص من الاستعمار التركى الذى كان يسيطر فى ذلك الوقت على أجزاء كبيرة من الوطن العربى ·· وكان القائمون على هذه الحركة يعملون على انشاء جيش عربى يقيم دولة عربية تضم الشام والعراق وفلسطين·· ثم يزحفون على مصر لتخليصها من الاستعمار البريطانى ··

وقامت الحرب ·· وأرادت انجلترا استغلال هذه النزعات فى الحركة العربية ·· وأدرك عزيز المصرى الموقف وأصدر تحذيرا لأعضاء جمعية « العهد » أن ينساقوا الى القيام بعمل عدائى ضد تركيا ·· وأوضح لهم أن دخول تركيا الحرب ، سيعرض البلاد العربية التابعة لها للغزو ، لذلك يجب أن يقفوا بجانب تركيا الى أن يحصلوا على الضمانات الكافية ضد الغزو الاستعمارى الأوروبى ·

ولكن انجلترا اتصلت بالشريف حسين حاكم مكة وراودته على اعلان الثورة العربية على الدولة العثمانية مقابل التعهد باســـتقلال البلاد العربية ·· ووعدوه بالمال والسلاح ··

كما اتصلت بريطانيا بعزيز المصرى للبحث معه فى اعلان الثورة العربية على الحكم التركى ، ولكن عزيز المصرى تمسك بالحصول على

الضمانات اللازمة لاستقلال العرب ٠٠ وصرحت بريطانيا بعزمها على الاعتراف بدولة عربية مستقلة فى شبه جزير العرب ٠٠

واعتبر الشريف حسين أنه حصل على عهد الشرف من بريطانيا، بقيام مملكة مستقلة كبرى ٠٠ وأعلن الثورة ٠٠ كما أعلن استقلال الحجاز ٠٠

وفى نفس الوقت كانت انجلترا تتفاوض مع فرنسا وروسيا القيصرية على مصير الدولة العثمانية ٠٠ واتفقت الدول الثلاث على أن يكون نصيب روسيا مدينة القسطنطينية مع عدد من الأميال الى الداخل على ضفتى البوسفور ،والولايات الأربع الشرقية من الأناضول المجاورة للحدود الروسية ٠٠ وعلى أن يكون نصيب فرنسا جميع بلاد الشام ، ما عدا فلسطين ، وأن يكون العراق من نصيب انجلترا٠

وهكذا قسمت الدول الأوروبية الاستعمارية تركة تركيا بينها ، ووزعت الأسواق ، وتقاسمت الشعوب ٠٠

والى جانب هذا ، كانت المساومات تجرى بين انجلترا والصهيونية ، وأصدرت بريطانيا وعد بلفور الذى وعدت فيه اليهود بانشاء وطن قومى ٠٠

وقبل أن تنتهى الحرب ، أدرك الشريف حسين أن انجلترا تحاول خداعه بعد أن بلغه تفاصيل معاهدة « سايكس بيكو » التى عقدت بين انجلترا وفرنسا وروسيا ٠٠ ولكن انجلترا أكدت له أن هذه المعاهدة من اختراع الدعاية التركية ٠٠

وانتهت الحرب ، وحاول الشريف حسين التمسك بما تعهدت به بريطانيا ، وأرسل ابنه الى مؤتمر السلام ، ولكن انجلترا حالت دونه ودخول مؤتمر الصلح ٠٠ ثم أخذوا يطالبون الشريف حسين بالاعتراف بمركزهم فى العراق والأردن ، ولما رفض تخلوا عنه فى

الخلاف الذى كان قائما بينه وبين الملك عبد العزيز آل سعود ٠٠ وتطور النزاع الى حرب ، فقد فيها الشريف حسين عرشه وغادر الحجاز الى الأبد ٠٠

وكان فيصل بن الشريف حسين قد أعلن عن اقامة حكومة عربية فى دمشق ٠٠ فقامت القوات الفرنسية بالزحف الى العاصمة السورية ٠٠ وشهدت سوريا حربا ضارية بين الشعب السورى والقوات الفرنسية ٠٠ ووقعت سوريا تحت قبضة الاستعمار الفرنسى بعد نضال مرير ٠٠ وحروب فدائية ٠٠

وفى العراق ٠٠ نشر الجنرال مود فى مارس عام ١٩١٧ أن مصالح العراق قد ارتبطت بمصالح الامبراطورية البريطانية ٠٠ وأدرك العراقيون المؤامرة وبدأت حركات المقاومة السرية ، حتى انفجرت الثورة فى صيف عام ١٩٢٠ ٠٠ وأقيمت مشانق الانجليز ٠٠

وفى مصر ٠٠ انطلقت ثورة الشعب ٠٠ وكانت ثورة ١٩١٩ التى شهدت أروع تضحيات الجماهير ٠٠

ولكن الاستعمار كان فى نشوة النصر بعد الحرب العالمية الأولى ٠٠ وأعيد تقسيم الأسواق بين الدول الاستعمارية ٠٠ ودخلت فرنسا الشرق العربى ، وتقاسمت مع انجلترا شعوب المنطقة ٠٠ وخرجت ألمانيا وتركيا من ميدان المنافسة الاستعمارية ٠٠ أما الشعب الروسى فقد قام بثورته وأعلن السلام بعد أن حطم أضعف حلقات الاستعمار ٠٠ وسقطت القيصرية والدولة الاستعمارية وقامت حكومة السوفييت ٠٠

ثورة اكتوبر :

بدأت الحرب الاستعمارية فى صيف عام ١٩١٤ ، وكان لنين

من أكبر الدعاة ضدها ... تكهن بها ، وقال قبل وقوعها ان الرأسماليين يعدون للحرب ، ونادى الشعوب بالوقوف ضدها .. فلما اشتعلت قال ان الاستعماريين لا يحاربون من أجل الوطن ، وانما في سبيل أرباحهم .. في سبيل نهب الشعوب الأخرى ..

ووضع لنين التحليل الصحيح لطبيعة الحرب ، وبين أن الحروب تكون عادلة وغير عادلة .. فالحروب غير العادلة هي حروب الاستيلاء الاستعمارية التي تشعلها الرأسمالية ضد حركات التحرير الوطني للشعوب المدافعة عن حريتها واستقلالها .. ان هذه الحروب تقوم في سبيل تدعيم سيطرة الرأسمالية ومن أجل نهب واستعباد الشعوب الأخرى ..

أما الحروب العادلة ، فهي في نظر لنين ، حروب الشعوب ضد الغزاة الاستعماريين ، وحروب التحرر الوطني ..

وظل لنين يكتب ضد الجرائم الدموية للحكومات الاستعمارية.. وضد وحشية الحروب التي تشعلها الدول الرأسمالية لتقسيم الأسواق ، والتنازع من أجل السيطرة على الشعوب ..

وتسببت الحرب في آلام بشرية قاسية ، وضحايا تعدت الملايين العشرة .. وأدت الى هبوط مستوى المعيشة بين العمال والفلاحين .. وهبت الجماهير ضد المستغلين .. واشتدت الحركة الثورية ضد الحرب في كل دول أوروبا .. وازداد عدد المظاهرات والاضرابات .

وقامت مظاهرات ضخمة في روسيا ضد الحرب ، اشترك فيها أكثر من ٢٠٠٠٠٠ ألف عامل .. وحاولت الحكومة القيصرية سحق الثورة بقواتها المسلحة ، ولكن حكومة القيصر كانت تعاني أزمتها الأخيرة ، وانضمت قوات الجيش الى الشعب في مظاهرات وسقطت حكومة القيصر الاستعمارية .

تولى الحكم فى روسيا بعد سقوط القيصر ، حكومة رأسمالية جديدة ٠٠ وأدلى وزير الخارجية الجديد بتصريح الى الحلفاء قال فيه « ان الشعب بأسره يريد خوض الحرب العالمية حتى الانتصار النهائى، والحكومة المؤقتة عازمة على الوفاء بتعهداتها لحلفائها وفاء كاملا » ٠

وفى نفس اليوم خرج أكثر من مائة ألف من جماهير الشعب يرفعون شعارات « لتسقط الحرب » « انشروا المعاهدات السرية » ٠٠ وحاولت الحكومة ضرب المتظاهرين ، ولكنها فشلت ٠

وكان لنين قد عاد من منفاه الى روسيا ، واستطاع بذكاء خارق ، وارادة حديدية نادرة أن يشعل الثورة وسقطت الحكومة الرأسمالية ٠٠ وقامت الحكومة السوفييتية ٠

وأعلنت الحكومة السوفييتية فور تسلمها السلطة « مرسوم السلام » ، دعت فيه الدول المتحاربة الى عقد هدنة فى الحال ، كما أعلنت أنها ستنشر جميع المعاهدات السرية التى وقعتها حكومة القيصر الاستعمارية مع الدول الاستعمارية الأخرى من أجل تقسيم الأسواق العالمية ٠

وجاء فى « مرسوم السلام » :

« ان الحكومة السوفييتية ، تقترح على جميع الدول المتحاربة وعلى حكوماتها أن تشرع على الفور فى القيام بمفاوضات من أجل سلم ديموقراطى عادل ٠٠ » ٠

وجاء فى « المرسوم » :

« وتقرر الحكومة أن استمرار هذه الحرب لتقسيم الشعوب الضعيفة المغتصبة بين الأمم القوية والغنية انما هو أبشع جريمة تقترف فى حق الانسانية » ٠

وجاء أيضا فى « المرسوم » :

« كما تعلن الحكومة أنهــا تلغى على الفور ودون قيد أو شرط كل مضــمون المعــاهدات السرية التى تهــدف الى تأمين مــكاسب وامتيازات الرأسماليين الروس أو الى توسيع الأراضى التى اغتصبها الروس » .

وكان اعلان «مرسوم السلام» ضربة عنيفة للدول الرأسمالية الاستعمارية .. فقد خرجت روسيا من المعسكر الاستعمارى وتقف اليوم فى معسكر الشعوب .. كما أن الحكومة السوفييتية اصبحت أول حكومة فى العالم لا يسيطر عليها الرأسماليون .

وقام الاستعمار بمحاولة حصار الدول السوفييتية ، ودفعت القوى الرجعية والاقطاع داخل روسيا الى حمل السلاح ضد الحكومة الجديدة.. كما أرسلت جيوشا منألمانيا وتشيكوسلوفاكياوانجلترا وأمريكا للقضاء على حكومة الثورة السوفييتية .

وفشلت الثــورة المضادة .. وحروب التدخل .. فقد قام العمال وجماهير الشعب فى أوروبا بمظاهرات واضطرابات مما أرغم الحكومات الاســتعمارية الى سحب قواتهــا ، بعد أن منيت بهزائم ساحقة فى أكثر من ميدان .

وبدأت الدول الاستعمارية الهجوم بأسلوب جديد ، فأقامت سورا حديديا حول الاتحــاد السوفييتى ، وقامت بتشــويه الثورة السوفييتية بكل وســائل الدعاية الــكاذبة والافتراءات حتى تضع ستارا بين هذه الثورة وبين الشعوب المظلومة .

ولكن الثورة كانت قد قامت .. ودعمت وجودها .. وأثبتت الخطوات التىاتخذتها الحكومة السوفييتية أنها تختلففى اتجاهاتها

بل تعارض اتجاهات الدول الاستعمارية ، فأعلنت المعاهدات السرية .

واكتشفت الشعوب العربية بعد فضح معاهدة ساكس بيكون، أن انجلترا خدعت الملك حسين .. وأنها كانت قد وقعت مع فرنسا وروسيا اتفاقا بتقسيم تركة تركيا .

وأذاعت الحكومة السوفييتية رسالة « الى جميع المسلمين الكادحين فى روسيا وفى الشرق » .. وجاء فى تلك الرسالة :

« ان الجمهورية الروسية وحكومتها ومجلس قوميسارى الشعب ، تعارض كل استيلاء على الأراضى الأجنبية ، فالقسطنطينية يجب أن تبقى بين أيدى المسلمين . كما أعلنت الحكومة السوفييتية الغاء المعاهدة التى تنص على تقسيم ايران .. »

وأضافت الرسالة :

« انكم يجب أن تكونوا أنتم أصحاب الأمر فى بلادكم، وعليكم أن تنظموا حياتكم بما يلائمكم، فهذا حقكم ومصيركم فى أيديكم ..»

وقد أبدت الحكومة السوفييتية احتراما كبيرا للمشاعر الدينية للمسلمين .. فعندما طالب المؤتمر الاقليمى للمسلمين الذى عقد فى ديسمبر عام ١٩١٧ ، بتسليم نسخة المصحف الشريف الخاصة بعثمان بن عفان والتى كانت محفوظة فى دار الكتب الروسية الى المسلمين ، اتخذ مجلس قوميسارى الشعب قرارا خاصا وقعه لنين يأمر « بتسليم المصحف فى الحال » .

وكتب مدير الشئون الخارجية فى الاتحاد السوفييتى الى القنصل السوفييتى فى ايران فى يناير عام ١٩٢٢ يقول له :

« ان سياستنا تجاه الشرق مازالت كما هى مناهضة على طول

الخط للسياسة التى يتبعها الاستعماريون ، فسياستنا تؤيد التطور نحو المستقبل لشعوب الشرق فى مجالات الاقتصاد والسياسة وسوف نقدم اليها كل معونة ممكنة فى هذا السبيل ٠٠ »

وصرح كمال أتاتورك زعيم الثورة التركية قائلا :

« اننا أصدقاء للسوفييت ، لأنهم كانوا أول من اعترف بحقوقنا القومية واحترمها ، ولهذا فان الروس يمكنهم أن يعتمدوا على صداقتنا اليوم وغدا ٠٠ »

وكتب لنين الى الأمير أمان الله خان بعد نجاح ثورة أفغانستان ضد الاستعمار الانجليزى ، رسالة قال فيها :

« ٠٠ وافغانستان المزدهرة هى فى الوقت الحاضر الدولة الاسلامية الوحيدة المستقلة فى العالم ، وقد ألقى القدر على كاهل الشعب الأفغانى مهمة تاريخية عظمى تتطلب منه أن يجمع حول نفسه جميع الشعوب الاسلامية المستعبدة وأن يسير بها فى طريق الحرية والاستقلال ٠٠ »

وكان من أهم الاجراءات التى اتخذتها الحكومة السوفييتية ، الغاء الديون التى فرضتها حكومة القيصر الاستعمارية على الدول الأخرى ، كما أعلن الاتحاد السوفييتى الغاء الامتيازات التى كانت تتمتع بها روسيا القيصرية فى مصر كباقى الدول الاستعمارية ٠

كما أرسل لنين ، برقية الى سعد زغلول ، أعلن فيها تأييده التام للثورة المصرية ، واستعداده المطلق لمساندة الشعب المصرى فى كفاحه الوطنى ، وتقديم العون والمساعدة المادية ، اذا طلبت مصر ذلك ٠

كانت الثورة الروسية أهم أحداث القرن العشرين ، فكما يصفها هارولد لاسكى :

« تمثل الثورة الروسية فى علاقتها التاريخية بالقرن العشرين ، نفس وضع الثورة الفرنسية بالنسبة للقرن التاسع عشر ٠٠ »

وواجهت الثورة الروسية ، كما واجهت الثورة الفرنسية من قبل ، مؤامرات وعدوان القوى الرجعية ، وحروبا عنيفة ، ومقاومة داخلية من الاقطاعيين ٠

وظلت الدول الاستعمارية تحاصر الدولة الجديدة ، ولم تعترف بها فى المجال الدولى الا بعد سنوات ٠٠ وعلى الرغم من اعتراف الدول الاستعمارية بالدولة السوفييتية ، فانها حرمت على الدول الخاضعة لها فى المستعمرات ، خلق أية علاقة اقتصادية أو سياسية مع الحكومة السوفييتية ٠

كان هدف الاستعمار ، وضع حاجز فاصل بين شعوب المستعمرات ، وبين ما يحدث داخل روسيا ٠٠ فقد رأى الاستعمار فى ظهور هذه الدولة الجديدة نهاية عهد الاستغلال فى العالم ٠

ولكن أحداث التاريخ ، كانت أقوى من رغبات الاستعمار ٠٠ وانطلقت الدولة السوفييتية ، لتصبح قوة مؤثرة فى مجرى أحداث العالم ٠٠ قوة تقف فى مواجهة الاستعمار ٠

الفصل التاسع

« .. اكانوا يسلمون مدفعا او عربة من (ديترويت) قبل أن يقبضوا الثمن ، اتسمى هذا عمـــلا نزيها ؟ انه الدولار .. انه السنت .

انه الدولار والسنت فى الحـــرب والسلام على السواء .. اى شىء نزيه هذا ؟ »

آرثر ميلر

بين ثورتين

انتهت الحرب .. وشهدت مصر أياما من أخلد أيامها .. فى ٩ من مارس عام ١٩١٩ خرج طلبة المدارس فى مظاهرة ضخمة عنيفة تهتف بحياة مصر .. وسقوط الحماية البريطانية .

وكانت هذه المظاهرة ، شرارة ثورة خاضها الشعب .. شبابه وشيوخه .. رجاله ونساؤه .. العمال والفلاحون .. الطلبة والموظفون .. كل الشعب خرج فى صرخة واحدة مدوية ضد الاحتلال والاستعمار .

انها الثورة .. بالدماء والأرواح .. بالبذل والتضحيات .. بالكفاح العنيد .

انه الشعب الذى لا يموت يتحرك من جديد ضد أعدائه وجلاديه .. ضد اللصوص .. ضد الاستعماريين .

قبل الثورة :

كان الرئيس ويلسن رئيس الولايات المتحدة ، قد أعلن مبادئه الأربعة عشر عند دخول أمريكا الحرب ، وقال فيها :

« والرأى عندى أن تتفق الأمم على قبول مبدأ الرئيس مترو وتعميم تطبيقه فى جميع أنحاء الأرض ، فلا يصبح لأمة أن تكره أمة اخرى على اتباع سياستها ، وانما يجب أن يترك لكل شعب الحق

وحده فى تقرير سياسته ورسم طريقه الذى يراه مؤديا الى التقدم بدون احراج أو تهديد أو ارهاب، لافرق فى ذلك بين شعب ضعيف وشعب قوى » ·

ولكن سرعان ماانتهت الحرب ·· وتنكر ويلسن لمبادئه ، وأرسل القنصل الأمريكى فى مصر ، رسالة الى المندوب السامى البريطانى جاء فيها :

« ·· أتشرف باخباركم أن حكومتى قد كلفتنى أن أبلغكم أن الرئيس يعترف بالحماية البريطانية التى أعلنتها حكومة جلالة الملك على مصر ·· ومع موافقة الرئيس على هذا الاعتراف، فانه بالضرورة يحفظ لنفسه حق المناقشة فى المستقبل فى تفاصيل ذلك وفى التعديلات التى قد تنتج عن هذا القرار فيما يمس حقوق الولايات المتحدة ·· »

وتأكد الشعب المصرى ، أن آماله التى علقها على أمريكا ومبادىء ويلسن قد خابت ·· ان عليه أن يعتمد على قوته الذاتية للحصول على حريته ، كما أوضح ذلك مصطفى كامل بعد اتفاق فرنسا وانجلترا ·

وعرف الشعب المصرى فى تلك اللحظات ، أن سياسة انجلترا وأمريكا وفرنسا لا تختلف ، فهى نابعة من أساس استعمارى واحد لا يهدف الا لما فيه مصلحة الرأسماليين فى تلك البلاد ·

وتيقن الشعب المصرى ، أن الحرب لم تكن دفاعا عن مبادىء الحرية ، أو حماية للمبادىء الانسانية ، بل قامت أساسا لاعادة تقسيم المستعمرات بين الدول الاستعمارية ·

وكانت الحرب قد سحقت الجماهير من الغلاء فازدادوا فقرا ، على حين ازداد الاقطاعيون ثراء ·

وفى المدن أثرى بعض التجار الوطنيين ·· وظهرت مصانع جديدة لسد النقص الذى حدث نتيجة الحرب والحصار الذى قامت به الغواصات الألمانية·· فأنشئت مصانع للغزل والنسيج، ومصانع الدباغة ، ومعاصر الزيوت ·· كما زادت المصانع الصغيرة ·· وانتعشت الورش ·

وفى نفس الوقت ، استطاعت المصانع التى كانت مهددة بالافلاس قبل الحرب ، أن تسترد قوتها ·

وهكذا تطورت الرأسمالية الوطنية ، وازدادت ثراء ، كما قوى نفوذها الاقتصادى، وأصبحت تتطلع خلال الحرب الى الصناعة، فقد علمتها الحرب ، وانقطاع الواردات ، مقدار الأرباح التى يمكن أن تجنيها ·· وتطلعت الرأسمالية الوطنية الى السلطة السياسية لتحافظ على مكاسبها الاقتصادية ·· وزاد التناقض بينها وبين الاستعمار ·

وفى نفس الوقت الذى زاد فيه عدد العمال فى أثناء الحرب ، زادوا بؤسا تحت ارهاق العمل المضنى بأجور زهيدة ·· كما تعرضوا للتجنيد وتسخيرهم فى الحرب ·

وعانت الجماهير خلال فترة الحرب ، بشاعة الاستغلال الاستعمارى·· فقد جند الانجليز أكثر من مليون مصرى من الفلاحين والعمال ·· وكان الكرباج والجلد من الأعمال اليومية فى معسكرات المجندين ·

واستولت السلطات البريطانية على الحاصلات الزراعية ، بأسعار تقل كثيرا عن أسعارها فى السوق ·

وفى عام ١٩١٨، احتكرت الحكومة البريطانية محصول القطن جميعه ، وحددت سعر الشراء بأربعين ريالا للقنطار ، وكان سعر

القطن فى الخارج فى هذا الوقت ٦٥ ريالا ٠٠ وبلغت خسارة مصر من هذا القرار نحو ٣٢ مليونا من الجنيهات ٠

وحرم المثقفون الوطنيون الوظائف الكبيرة بعد أن تولاها موظفون من الانجليز ٠٠ كما تعرضوا للاضطهاد والاعتقال ٠

وظهرت قيادة جديدة للحركة الوطنية ٠٠ وتقدم سعد زغلول بمطالب الغاء الأحكام العرفية والاستقلال ٠٠ وتألف الوفد المصرى ٠

وقام الوفد بنشاط ٠٠٠ وعقد الاجتماعات ٠٠٠ وأرسل البرقيات الى الخارج ٠

واعتقلت السلطات البريطانية سعد زغلول وبعض أعضاء الوفد ٠

وانفجرت ثورة الشعب ٠

كانت البداية مظاهرة الطلبة ٠٠ وسقط الشهيد الأول عندما تعرض الجنود البريطانيون للمتظاهرين ٠

وتجددت المظاهرات ٠٠ وأطلق الجنود الانجليز على المتظاهرين رصاص البنادق والمدافع الرشاشة ٠٠ وسقط ١٦ شهيدا ٠

واستؤنفت المظاهرات فى الحلمية والغورية والظاهر وشبرا .. وطلبة الأزهر ٠٠ وضاعفت السلطات البريطانية قواتها العسكرية فى سيدنا الحسين والأحياء الوطنية ٠

وأضرب المحامون ٠٠ وأغلق التجار متاجرهم ٠٠ وتعطلت المواصلات ٠

وخرجت أول مظاهرة نسائية فى تاريخ مصر ، لتقدم احتجاجا مكتوبا الى المندوب السامى البريطانى ٠

وأضرب عمال عنابر السكك الحديدية ·· وكان عددهم أكثر من أربعة آلاف عامل ·· وأتلفوا مفاتيح قضبان السكة الحديد ، ثم قطعوا الخط الحديدى بالقرب من امبابه ، فتعطلت قطارات الوجه القبلى ·

وانتقلت الثورة الى مدن الأقاليم ·· والقرى ·· واشترك فى مظاهرات الاسكندرية طلبة المدارس والمعاهد الدينية والتجار والعمال ، وعمال السكة الحديدية ، والفنارات والأحواض وورش الحكومة وغيرهم ·· وفى بورسعيد ودمنهور ورشيد وطنطا وفى بركة السبع وقلين ودسوق وسمنود وزفتى وكفر الشيخ والمحلة والمنصورة وميت غمر ، وكفر الوزير ونقها الاشراف ودتريط ·· أما مدينة زفتى فقد أعلنت استقلالها ·

وقامت ثورة الفلاحين فى الوجه البحرى كله ·· وكانت الثورة فى الوجه القبلى أشد عنفا ·· وانقطعت المواصلات تماما بين الوجه البحرى والوجه القبلى ·· وفى ديرموس وديروط هاجم الفلاحون قطارا قادما من الاقصر ، وكان به بعض الضباط والجنود البريطانيين وقتلوا ثلاثة ضباط انجليز وخمسة جنود ·

وشاهدت أسيوط معركة ، اشتركت فيها طائرتان ، وألقيت القنابل على الثوار ·· وقتل الكولونيل هيزل برصاص الشعب ·

ويروى الرافعى مشاهداته فيقول على اثر رحلة قام بها فى النيل خلال أيام الثورة ، فكتب :

« كنا نرى الأهالى فى كل ناحية، نساء ورجالا ، شيبا وشبابا يحيوننا على الجانبين ، دون أن يعرفوا أشخاصنا ·· وينادون بهتافات لم نعهدها من قبل فى الطرق الزراعية ، وعلى شواطىء الترع ، فكنا نسمع نداء : لتحى مصر ·· ليحى الاستقلال ·· لتحى الثورة · »

وتجددت المظاهرات فى شهر أبريل ، وأضرب الموظفون ثلاثة أيام ٠٠ وشهدت القاهرة اضرابا عاما فى ٣ من ابريل ، وأطلقت النيران ٠

واجه الطلبة والعمال والفلاحون رصاص القوات الانجليزية فى كل مكان ٠٠ فى المدن ، وفى الريف ، وفى المصانع ٠٠ ولم تهدأ الثورة ٠

وشكلت المحاكم العسكرية ٠٠ ووجه القائد العام البريطانى انذارا بحرق القرى ٠٠ وصدرت الأوامر بعدم خروج سكان القرى من بيوتهم بين غروب الشمس وشروقها ٠٠ وحاولت السلطات البريطانية غلق الأزهر ٠٠ ورفض شيخ الجامع ٠

٠٠ ثم قامت القوات العسكرية الاستعمارية بجرائم وحشية بشعة ضد القرى الآمنة ٠

ففى الساعة الرابعة بعد منتصف الليل يوم ٢٥ من مارس قام مائتا جندى بريطانى بمدافعهم الرشاشة وهاجموا بلدتى العزيزية والبدرشين ٠٠ ثم أشعلوا النار فى منازل القريتين ، وأصيب الناس بالذعر ، وخرجوا من منازلهم فرارا من الحريق ، وحاصرهم الجنود ٠٠ وسلبوهم ما يحملون من حلى أو مال ٠٠ ولم يفلت من أيديهم حتى النساء ٠٠ فكانوا ينقبون فى ملابسهم ويمزقون ثيابهن ، واعتدى بعض الجنود على أعراض الفتيات والسيدات ، أمام أعين ضباطهم ٠

وتعرضت نزلة الشوبك لنفس المصير ٠

ولم يهدأ كفاح الشعب ٠٠ بل ازداد عنفا ٠٠ وبلغ عدد الشهداء أكثر من ٣ آلاف شهيد من الفلاحين والعمال والطلبة والموظفين ٠

وتقدم العمال الى قيادة الثورة بمطالب ‥ منها :

- جعل قناة السويس ملكا للأمة ٠
- تعديل الدستور وقانون الانتخاب حتى تصبح الأمة مصدر السلطة الحقيقية ٠
- تمثيل العمال والفلاحين تمثيلا صحيحا فى البرلمان ٠

‥ ولكن قيادة الثورة التى كانت تضم عددا من الاقطاعيين وكبار الملاك خشيت على ثرواتها من الثورة‥ وانتكست بالتضحيات والشهداء والكفاح الثورى ‥ واستسلمت للانجليز ٠

وفشلت الثورة ‥ فشلت فى القضاء على الاستعمار والاقطاع وكبار رجال المال المتصلين بالرأسمالية الاستعمارية ٠

وكما يقول الميثاق :

« ان الاستعمار فى هذه الفترة أعطى من الاستقلال اسمه وسلب مضمونه ‥ ومنح من الحرية شعارها واغتصب حقيقتها ٠

وهكذا انتهت الثورة باعلان استقلال لامضمون له ‥ وبحرية جريح تحت حراب الاحتلال ‥ »

ازمة الرأسمالية :

كانت ثورة ١٩١٩ ، واحدة من ثورات متعددة اشتعلت فى المستعمرات ‥ فى الهند والصين ‥ وسوريا والعراق والجزائر ‥ وكوريا واندونيسيا ‥ وأمريكا اللاتينية ‥ وكانت صرخة الشعوب واحدة ‥ « الحرية ‥ الاستقلال »‥ ولكن لم يكن هناك تنظيم أو تنسيق يجمع ثورات الشعوب فى وحدة ضد العدو المشترك ٠ واستطاع الاستعمار أن يطفىء نيران ثورات الشعوب ٠

وفى نفس الوقت ، عاد الجنود المحاربون الى بلادهم ٠٠ لم يخل بيت من بيوت الفقراء من جندى شهيد ٠٠ ووجد الجنود العائدون بعد أن تم تسريحهم أنهم يواجهون البطالة والجوع ٠٠ وانكشفت الخدعة ٠٠لم تكن الحرب من أجل أوطانهم ٠٠ أو من أجل الشعوب ، بل كانت من أجل حفنة الرأسماليين الاستعماريين الذين أثروا من ارتفاع الأسعار ٠٠٠ ومن صناعات الحرب ٠٠ فازداد الأثرياء ثراء ٠٠ وازداد الفقراء جوعا ٠

وانطلقت الثورات ٠٠ من أجل اعادة توزيع الثروة ٠٠ من أجل العدالة الاجتماعية ٠

وقامت الثورة فى ألمانيا ٠٠ واذا بأعداء الأمس يعقدون الاتفاقيات ٠٠ووضع الرأسماليون الألمان أيديهم فى أيدى الانجليز والفرنسيين ٠٠ وانتقلت القوات الألمانية من مواجهة القوات الفرنسية والانجليزية الى مواجهة الشعب وأخمدت ثورة الشعب الألمانى فى قسوة ووحشية ٠

وفى المجر عام ١٩١٩ ٠٠ أعلنت حكومة شعبية ٠٠ وقامت القوات الامبريالية والاستعمارية لتى كانت تتقاتل بالأمس ، واتجهت فى تحالف ووحدة للقضاء على حكومة المجر ٠

وفى فرنسا قامت اضطرابات بين قوات الجيش والأسطول ضد الرأسماليين الاستعماريين ٠

وفى ايطاليا ٠٠ امتلأت الشوارع بالمظاهرات ٠٠ واستولى الجماهير على المصانع التى أثرى أصحابها من الحرب ٠٠ وأجريت الانتخابات ، وفاز الاشتراكيون بـ ١٥٠ مقعدا فى البرلمان ٠

وكان لهيب الثورة يقفز من مكان الى مكان بين كل شعوب أوروبا ٠٠ بعد أن بلغ التضخم المالى أقصى مداه ٠٠ وقاست الملايين أبشع أنواع البؤس ٠

وانتقلت الثورة الى بلغاريا وبولنـدا ، وقام الرأسماليون الاستعماريون باخمادها في قسوة ووحشية ·

·· في ينـاير عام ١٩٢٢ ، عقـد مؤتمر الحلفـاء القدماء فى احدى مدن فرنسا الجنوبية ، لمواجهة ثورات شعوب أوروبا ··· ويصف موسوليني ، هذا المؤتمر ، قائلا :

« كان اجتماعا بديعا زاد فى بهجته حفـاوة الفرنسيين وكرم وفادتهم ·· »

فالشعوب تجوع ··· والرأسماليون الاستعماريون يجمعهم كرم الضيافة لتخطيط الثورة المضادة ·

وظهر « موسوليني » في ايطاليا ·

كانت ايطاليا فيأسوأ حالاتها بعد الحرب·· عجز فى الميزانية بلغ مليارات الليرات ·· ارتفاع من البطالة بعد تسريح آلاف الجنود ·· ازدياد نسبة الجريمة ·· وخسـائر الحرب من الأرواح ، كانت ٦٥٢ ألف قتيل ، ٤٥٠ ألف مشوه ، مليون جريح ·

وشكل « موسوليني » جمـاعات ترتدى القمصان السـود ، ويحملون أعلام الفـدائيين ، ويرددون الشـعارات والأناشـيد فى حماس ·· وأطلق عليهم اسم « الفاشيست » ·

ووجد الرأسماليونالاستعماريون من تجار الحروب، استغلال حزب الفـاشيست فى ضرب الحركة الاشـتراكية ، بعـد أن رأوا مصانعهـم ورءوس أموالهم مهـددة ·· وكـذلك أصحاب الأراضى الاقطاعيـون الذين أرادوا حمـاية ممتلـكاتهم ·· وقاموا بامداد موسـوليني بالأموال ، وأنشـئوا له الصحف ·· وأقاموا له دور الحزب ·· وقدموا له السلاح ·

وراح الفاشـيون يتقدمون كمنقـذين للبـلاد ·· وانتشرت

فصائل من الفاشيين مسلحة بالمدى والهراوات والمسدسات والبنادق ، وهاجموا العمال والفلاحين ٠

عندما دعا الاشتراكيون الى اضراب عام لتحقيق مطالب العمال ورفع أجور ومرتبات الموظفين ، أعلن موسوليني ، أن الفاشيين سيمنعون الاضراب ، اذا لم تقمعه الحكومة ٠

ثم زحف موسوليني بفرق القمصان السود ، واستولى على الحكم مؤيدا من الملك ، وأصحاب البنوك ، وأصحاب رءوس الأموال ٠٠ وأسكت كل صوت للشعب ٠

وأعلن حقيقة أهداف حركته ٠٠ فهو استعماري من نوع جديد ٠٠ استعماري وقح ٠٠ فالاستعماريون القدامى ، كانوا يعلنون أهدافهم بكلمات معسولة ، وتخدير الشعوب بالأماني الكاذبة ٠٠ فانجلترا دخلت الهند بدعوى تطوير حياة شعبها وادخال الحضارة ٠٠ وقامت بغزو مصر تحت شعار اعادة الأمن الى البلاد ٠

٠٠ أما موسوليني ٠٠ فقال بصراحة :

« ليس حقنا الاستعماري هو مجرد نتيجة منطقية لمشكلة ازدياد السكان لدينا ، وانما هو حق يفرضه لنا مركزنا الاقتصادي ٠٠ فالصومال ، وهي أولى مستعمراتنا لا تزال كما هي دون تغيير ، وهي لا تبشر بشيء من التقدم ٠٠

وأخيرا شكرا للحاكم دي فيشي على سياسته ، فقد استعاد الأمر في بلاد الصومال بأكملها ، وبدأ جانب كبير من رءوس الأموال الايطالية يتجه نحو تلك المستعمرة لاستغلالها في الأعمال المختلفة ، لتفسح المجال أمام الايطاليين » ٠

واستهل موسوليني خطابه في مجلس النواب ، بعد أن تسلم الحكم قائلا :

« كان فى وسعى أن أحيل هـذه القاعة الشاحبة الى معسكر مسلح لذوى القمصان السوداء ، وأن أجعل منها معرضا للجثث . بل كان فى امكانى أن أقفل أبواب البرلمان بالمسامير .. »

.. هكذا عبر الفاشستى الأول عن سياسته الخارجية والداخلية .. فاذا كان الاستعمار هو أعلى مراحل الرأسمالية ، فان الفاشية كانت قمة الانحطاط الخلقى والسياسى الذى وصلت اليه الرأسمالية الاستعمارية .

وكان موسولينى فى ذاته يمثل قذارة الفكر الفاشى ويقول عنه كريستوفر هيبرت فى كتابه :

« لم يكن موسولينى يكترث بالنظافة كثيرا .. ولطالما أغرق نفسه بالكولونيا مستعيضا بها عن الاستحمام .. »

وكان « زير نساء » ، لم يتردد عن اقامة علاقات مع زوجات أعوانه من الفاشيين والنبلاء والخادمات والممثلات .

وبعد عشر سنوات من تولى موسولينى الحكم فى ايطاليا ، زحف الى الحكم فى المانيا رجل لا يقل وحشية وقسوة عن الطاغية الايطالى .

كان الاشتراكيون فى ألمانيا ، قد أحرزوا فى الانتخابات غالبية الأصوات .. كان الشعب يرى فى الاشتراكية المخرج من الأزمة التى بلغ فيها عدد العاطلين أكثر من ٦ ملايين عاطل ، وأفلست ألوف الصناعات الصغيرة .. ولم يكن فى وسع الصناعة الألمانية البقاء على الأسس الرأسمالية ، ما لم تتوافر لها الأسواق الخارجية .. أى المستعمرات .

وقام رجال البنوك وأصحاب رءوس الأموال الكبيرة ، وكبار رجال الصناعة بخلق موسولينى آخر فى ألمانيا .

وجاء الرأسماليون الألمان بهتلر وفرقه ذات «القمصان البني» لحكم ألمانيا ٠٠ وضرب الاشـتراكية ، والوقوف ضـد ارادة الملايين التى أعطت أصواتها الحزب الاشتراكى ٠

ففى اللحظة التى كان يعانى الشـعب الألمـانى آلام البطالة والجوع والفقر والبؤس ، قام كبـار رجال الصـناعة بتقـديم ملايين الجنيهات الى هتلر وحزبه النازى ٠٠

وكانت صناعات الفحم والفولاذ المصدر الرئيسى للأموال التى تدفقت من الصناعيين لمساعدة هتلر ٠٠ ثم تقدمت مؤسسة فاربن للصناعات الكيماوية ، وشركة همبورج ـ أمريكا للملاحة ٠٠ وشركة صناعة الفحم فى وسط ألمانيا ٠٠ ومؤسسة كونتى لصناعة المطاط ٠٠ وأوتو وولف من كبار الصناعيين فى كولون ، والبارون كورت فون شرويد من أصحاب البنوك فى كولون٠٠ وعدد من كبار البنوك ٠٠ ومؤسسة « الاليانس » التى تعتبر من أكبر مؤسسات التأمين فى ألمانيا ٠

ووصل هتلر الى السـلطة ٠٠ وتولى الحـكم ، وواجه الشعب الألمانى وحشية « حزب النازى » ٠

وكما قامت الجماعات الفاشية فى ايطاليا بالهجوم على الجماهير الايطالية ، قامت فرق النازى المسلحة بأعمال القتل الوحشية ضد أحزاب العمال ٠٠ وهاجمتها فى أنديتها وفى الشوارع٠٠ وفى كل يوم شهداء ٠٠ وساد الارهاب ضـد الملايين التى أعطت أصـواتها للاشتراكيين ٠٠ وسقط شهداء من المثقفين والطلبة والعمال ، وكل فئات الشعب التى كانت تقف ضد طغيان الرأسمالية الاستعمارية٠

٠٠ ثم أحرق النازى مجلس النواب « الريخستاغ » واتهموا معارضيهم بتدبير الحريق٠٠ وقامت فرق النازى، تجوب الشوارع، وتقتحم البيوت وتلقى القبض على الضحايا ٠

وفى عام ١٩٣٤ ، شــهدت ألمانيــا حمــاما للدم أقامه هتــلر لمعارضيه من أصدقائه وأعدائه على السواء ‥ وكانت فرق العاصفة النازية تدخل عليهم بيوتهم وترميهم بالرصــاص بغير محاكمة ‥ وقتل أكثر من ألف شخص فى تلك المجزرة ٠

واستسلمت ألمانيا ‥ وسيطر كبار الرأسماليين الاستعماريين على تسيير السياسة والاقتصاد وقادوها الى النهاية !

وكان هتلر أبشع من موسولينى فى انحلاله وانحطاطه الخلقى ‥ كان هو الآخر يمثل قمــة انحــلال وانحطاط الخلق الرأســمالى الاستعمارى ‥ كان أقرب المقربين اليــه من المنحرفين جنسيا ومن القتلة المحكوم عليهم بالسجن ‥ أما هو ففــد أقام علاقة شاذة مع ابنة أخته ٠

‥ وهــــكذا كانت الرأسمالية الاستعمارية تواجه أزماتهــا وانهيارها بقيادات وأخلاقيات وسياســــة تحمل كل ألوان القذارة والانحلال والوحشية ٠

وكانت سياسة النازى التى وضعت لخدمة الرأسمالية العالمية تتلخص فى الكلمات التى أعلنها هملر :

« اذا كان فى امكان بعض الشعوب أن تقدم لنا دما نقيا كدمنا فاننا نقبله ولو اقتضانا الأمر خطف أطفال هذه الشعوب ، وتربيتهم مع اطفالنا ‥ ولا يهمنى من أمر هذه الشــــعوب ان عاشــت برخاء أو ماتت من التضور جوعا كالانعام ، الا بقدر ما نحتاج الى أفرادها عبيدا أرقاء لحضارتنا ٠ »

وأخذت النازية والفاشية تمارس سياستهــــا فى التطبيق ، تبحث عن الأسواق للرأسماليين ‥ وتنقب عن مستعمرات تضع أيديها عليها ٠

ووجدت ايطاليا منفذا ، وزحفت قواتهـا الى الحبشـة ..
واستعملت الغازات السامة ، وأحدث آلات الفتك والفتل .

واتجهت ألمانيا الى احتلال أوروبا .

وبدأ الصراع يشتد بين الدول الاستعمارية التى تضع أيديها على أسواق العالم والدول الاستعمارية التى تبحث عن أسواق لها .. وظل العالم وشعوبه ، يتراقص بين أيدى هذه القوى الغاشمة حتى انحدر الى الحرب العالمية الثانية .

مصر قبل الحرب :

كانت أحداث العـالم فى كل خطواتهـا ، تنعكس على كفاح الشعب المصرى فى نضاله ضد الاستعمار الانجليزى .

.. فعندما اشتدت الحركات الاشتراكية فى أوروبا .. ربط الاسـتعمار بينها وبين تأييد العمال لثورة ١٩١٩ .. وألقى وزير خارجية انجلترا خطابا فى ٢٥ من نوفمبر عام ١٩١٩ قال فيه عن الثورة المصرية :

« .. لقد بدت علامات القلق فى شهر أغسطس بين دوائر العمال فى المدن ، وكانت الأسباب السياسية لهذا اقتصادية ، ولكن المحرضين حرفوها الى أهداف سياسية . »

وفزعت الحكومة الاقطاعية .. حكومة السراى ، وكبار الملاك وبدأت تعمل على ضرب الثورة .

وحدث الانقسام فى قيادة ١٩١٩ ، قيادة وطنية تمثل التجار وأصحاب المصانع الوطنية والفلاحين المتوسـطين .. وقيادة تمثل الاقطاع والرجعية وتتحالف مع الاستعمار .

وبينما كانت القيادة الوطنية ، توجه نداءاتهـا الى الشعب

بمقاطعة البضائع الاجنبية ، وايداع أموالهم فى بنك مصر لتنشيط الصناعة والتجارة المصريه ·· كانت القيـادة الرجعيه تعمل على التهادن والتحالف مع الاستعمار ·

وأسقطت وزارة سعد زغلول الوطنية ، وجاءت حكومةالرجعية وأصدرت القوانين المضادة للحريه ، وقامت بمحاصرة المصانع فى الاسكندريه ، واطلقت الرصاص على العمال ·· وسادت موجة من الارهاب ·· وامتد الارهاب الى الريف ·· فوجدت القيادة الوطنية نفسها معزولة عن الجماهير ·· وبدأت نهادن الانجليز وتتفاوض على حقوق مصر ·

وفى سنوات الأزمة العالمية ، بينمـــا كان موسولينى يتولى الحكم فى ايطاليا ، وجاء هتلر بعده الى حكم المانيا ·· شاهدت مصر ديكتاتورين صغيرين ·

كان أولهما محمد محمود باشا ابن الاقطاع ، وأطلق على نفسه « اليد الحديدية » ·· ومارس سلسلة من الارهاب ضد الشعب ·

ثم جاء صدقى باشا الذى أطلق عليه « أبو السباع » فقامت المظاهرات ضد صدقى فىالقاهرة والمنصورة وبورسعيد والاسماعيلية والسويس ·· والاسكندرية التى قامت بأعنف المظاهرات وسقط من شهدائها ٢٠ قتيلا وخمسمائة جريح ·· وأضرب عمال عنابر بولاق والورش الأميرية ، فقوبلت مظاهرتهم بمنتهى القسوة والعنف ·· ولم يعرف عدد القتلى ، فقد حالت حكـومة صـدقى بين أهل الشهداء والحصول على جثث أبنائهم ، ودفنهم فى مقابر مجهولة ·

وسقط صدقى ·· وجاء نسيم ·

لم تتوقف المظاهرات ·· وفى عام ١٩٣٥ ، شهدت القاهرة والاسكندرية وبعض المدن والقرى اضرابات ومظـــاهرات تطـــالب بالجلاء ·

وكان خطر الحرب العالميـة ، قد بدأ يتأكد ٠٠ فرأت انجلترا انها ستتعرض لأخطار شديدة ، لو ظلت المطالب المصرية معلقة دون حل ، وفاجأتها الحرب ٠

وسعت انجلترا الى توقيع معـاهدة ١٩٣٦ ٠٠ وتنص على الآتى :

« انجاد انجلترا لمصر فى حالة الحرب ، وأن تقدم مصر لانجلترا فى حالة الحرب أو خطر الحرب أو قيام حالة دولية مفـاجئة يخشى خطرها ، جميـع التسـهيلات والمسـاعدات ، بما فى ذلك استخدام الموانى والمطارات وطرق المواصلات واعلان الأحكام العرفية ، واقامة رقابة وافية على الأنباء ٠٠ وأن يرخص لقوات الاحتلال أن تبقى فى القنال لضمان الدفاع عنها ، وأن تبقى قوات الاحتلال فى القاهرة والاسكندرية ثمانى سنوات ، حتى يتم بناء ثكنات فى منطقة القنال نهائيا ٠٠ وان تستمر المعاهدة عشرين عاما ٠ »

كانت معاهدة ١٩٣٦ تنص فى مقدمتها على اســتقلال مصر ٠٠ بينما نصوصها تسلب هذا الاستقلال كل قيمة له وكل معنى ٠

وشهد المجتمع المصرى فى الفترة ما بين ١٩١٩ و ١٩٣٦ تمزقا وتحولات خطيرة ٠

استطاع الاستعمار أن يثبت جذوره ٠٠ وأن يتسلل الى كل الحياة المصرية ٠٠ فقد اندمجت رءوس الأموال الانجليزية والمصرية فى كثير من المشروعات ٠٠ واستمرت سيطرة الانجليز على الجيش والبوليس والتعليم ٠٠ وكانت خطة الاســتعمار هى الاســتعانة بالسراى وبعض رجال المال لتحقيق مكاسبه وتدعيم سـيطرته ٠٠ وكان لا يتردد فى ارسال بوارجه اذا لزم الأمر ، كمـا حدث عندما

أرادت حكومة الوفد اقرار مشروع انتخاب العمد·· وتعديل قوانين الاجتماعات والمظاهرات ورفع القيود الاستعمارية ·

كما تولى الاقطاعيون الحكم ، وعمدوا الى فرض ديكتاتوريتهم على الجماهير ··وضربوا قوى الشعب فى تحركاتها ضد الاحتلال ·

ورأت الشركات الأجنبية تعيين عدد من الماليين المصريين أعضاء فى مجالس اداراتها لحماية مصالح هذه الشركات ·· ولكي يضعوا جهاز الدولة فى خدمة هذه الشركات ·· وكان أغلب الوزراء الذين اشتركوا فى وزارات معادية للشعب ، أعضاء فى مجالس ادارة شركات أجنبية ·

وتعرضت الصناعة المصرية للافلاس ·· ففى اللحظة التى كانت فيها المخزونات تتكدس فى شركة المحلة عقدت حكومة محمد محمود اتفاقا مع مصانع لانكشير الانجليزية لزيادة حصة مصر من واردات النسيج البريطانية ·

وقامت الحكومات الرجعية بمد امتياز البنك الأهلى ، وعلقت جريدة « التيمس » قائلة :

« ·· ان الحكومة المصرية ، استطاعت أن توفق بين ما تدعيه الروح الوطنية من حقوق وبين ضرورة استمرار حالة البنك كمؤسسة كانت دائما تحت الرقابة البريطانية ·· »

وفى نفس الوقت كان بنك مصر يتعرض لأزمة توشك أن تقضى عليه بسبب الاساليب الملتوية والانتقامية الموجهة ضد البنك من جانب الوزراء المرتبطين بالمصالح البريطانية ·

ووجدت الصناعة المصرية الكبيرة نفسها ، مضطرة أمام الضغط الاستعمارى والشركات الاجنبية أن تتعاون مع الرأسمال

الأجنبى ٠٠ وتكونت شركة مصر للتأمين بمعونة مؤسسة بورنج البريطانية ٠٠ ومصنع الغزل الرفيع للقطن فى كفر الدوار الذى تم انشاؤه مع مجموعة من أقوى الاتحادات الاحتكارية فى بريطانيا ٠٠ كما أن شركة مصر للحرير الصناعى ، تعاونت مع رأس المال الأمريكى ، ولها عضو أمريكى فى مجلس ادارتها ٠

وكادت تصفى المكاسب البسيطة التى نالها الشعب من ثورته عام ١٩١٩ ٠٠ رءوس الأموال الأجنبية تحل محل رءوس الأموال المصرية ٠٠ الصناعة الأجنبية تغزو الصناعات المصرية ٠٠ رأس المال الأجنبى يزداد زحفا ، ويرتفع رصيده وأرباحه من عرق الشعب المصرى ليحول الى الخارج لاثراء الرأسمالية الاستعمارية ٠

كل شىء ينهار ٠٠ وحالة أصحاب الصناعات الصغيرة ، والموظفين والعمال والفلاحين تزداد سوءا أمام ارتفاع أسعار المعيشة المتزايد ٠

أزمة ٠٠ وحرب :

منذ انتهت الحرب العالمية الأولى ، والعالم الرأسمالى يواجه أزمات متتالية ٠٠

ان الانتاج الرأسمالى الذى لا يقوم على التخطيط بل يتجه نحو الربح يحتاج الى أسواق جديدة لتصريف منتجاته ٠٠٠ ولكن الحرب العالمية الأولى لم تخلق أسواقا جديدة ، بل العكس أدت الى انكماش أسواق الاستغلال ٠٠

فالثورة الروسية أغلقت الأبواب أمام نهب الاحتكارات العالمية الاستعمارية ، وحرمتها سوقا ضخمة كانت تعطيها فى الماضى أرباحا هائلة ٠٠

وقد أدى نمو الصناعة فى الدول الرأسمالية ، وعدم وجود أسواق كافية لتصريف المنتجات ٠٠ أدى ذلك الى تكدس البضائع ٠٠ وتوقفت المصانع أو اشتغلت بأقل من طاقتها ، مما أدى الى بطالة دائمة ٠٠

واهتز العالم الرأسمالى فيما بين الحربين ، ثلاث مرات بأزمات زيادة الانتاج ٠٠

بدأت أول أزمة عام ١٩٢٠ ، وبلغ عدد العاطلين وأنصاف العاطلين فى الدول الرأسمالية الى أكثر من ٤٠ مليونا ٠٠ وانتهت الأزمة عام ١٩٢٣ ٠٠

وفى عام ١٩٢٩ ، وقع العالم الرأسمالى فى أزمة عنيفة لم يشهد مثلها من قبل ٠٠ وامتدت الأزمة أربع سنوات شهدت أبشع أنواع البؤس والشقاء ٠٠

وفى أمريكا وحدها بلغت نسبة البطالة بين مجموع العمال ٢٥٪ ٠٠ وهبطت الاسعار ٣١٪ ٠٠ وبينما كانت ارباح المؤسسات عام ١٩٢٩ حوالى ٨ مليارات ، بلغ العجز عام ١٩٣٢ حوالى ٣ مليارات ٠٠ وكان هذا وصف الأزمة فى أمريكا :

« أربعة عشر مليون انسان بلا عمل ٠٠ مستأجرو الأرض يتركونها ٠٠ البنوك مغلقة ٠٠ المؤسسات الاقتصادية تنهار واحدة بعد الأخرى ٠٠ » ٠

ونظم العاطلون عن العمل مواكب الجوع ٠٠ وقام الفلاحون بمنع الحجوزات القضائية ، ونظموا مواكب السير الى واشنطن ٠٠

وكانت الأزمة تنتقل من دولة رأسمالية الى أخرى ، بسرعة غريبة ٠٠ وقدر عدد العاطلين فى العالم الرأسمالى بحوالى ٣٠ مليون عاطل ٠٠

وللخروج من الأزمة فى امريــكا ، اضطرت الدولة الى شراء الفائض من المنتجات ..

ويقول هنرى كلود الاقتصادى الفرنسى :

« ماذا تصنع الدولة بهذه الكميات الهائلة من المنتجات ؟ هل تبيعهــا من جديد ؟ ذلك غير معقول لأنها أقدمت على شرائها منعــا لتضخم الســوق بها .. هل تهبها ؟ مستحيل .. لأنهــا تحــرم المنتجين بذلك من آخر زبائنهم .. وما دام البيع والهبة غير مقدور عليهما ، فليس من حل أمامها فى هذا النظام ، الا أن تبيدها .. »

وأحرقت أمريكا مئات الاطنان من القمح والبن ، كمــا قتلت أكثر من ٦٤٠ ألف رأس من الاغنام ، وألقى فى الترع مئات الآلاف من أرطال اللبن .. كل هذا والناس تتضــور جــوعا .. انه شىء رهيب لم يحدث فى تاريخ الانسانية ..

ولم يخفف الازمــة الا انتخــاب روزفلت رئيســـا للولايات المتحدة ، وأخذه بنظام « المنهج الجديد » ..

وفى عام ١٩٣٤ ، قامت محاولات لانقلابات فاشية فى فرنسا والنمسا .. ولكنها فشلت ..

أما فى المانيا .. فقد واجهت مشكلة ٢ر٥ مليــون عاطل ، بالاتجاه الى ســياسة التسلح .. كما فرضت الخدمة العســكرية ، فكان خير وسيلة لتشغيل الأحداث العاطلين ، وضعهم بين جدران الثكنات ، وكما قالت مجلة الحالة الاقتصــادية .. ان الانفاق على المجنــدين فى معســكرات التــدريب ، هو أقل تكاليف من توزيع تأمينات البطالة على العاطلين .. وانتعشت المانيا بعد أن انفقت ٩٠ مليار مارك على التسلح ..

وفى نفس الوقت استطاع الدكتور شــاخت وزير الاقتصــاد

الألمانى بحيلة قذرة ، أن يستولى على أســواق أوروبا ٠٠ فاستغل الأزمة الزراعية التى اجتاحت أوروبا ، وأعلن استعداد المانيا لشراء القمح والذرة والماشية التى لا تستطيع دول أوروبا بيعها ٠٠ ولما تمت الاتفاقيات أعلن أن المانيا ليس لديها نقد أجنبى ، وستدفع الثمن بضائع وسلعا مصنوعة ٠٠

٠٠ وهكذا سيطرت المانيا على أسواق بلغاريا ، واليونان ، والمجر ، ورومانيا ٠٠ وانتزعتها من يد انجلترا وفرنسا وأمريكا ٠٠

وشهد العالم فترة من الصراع الرهيب ٠٠ اتجاه نحو سياسة التسليح ومحاولات لخطف الأسواق ٠٠

وقامت اليابان بمهاجمة الصين ، واحتلت منشوريا لتجعلهـــا سوقا لها ٠٠ وهاجمت ايطاليا الحبشة ٠٠ ثم حاولت اليابان غزو الصين كلها ٠٠ واحتلت المانيا أراضى النمسا ، ثم جزء من أراضى تشيكوسلوفاكيا ٠٠

وجاء عام ١٩٣٧ لتجد انجلترا نفســها مهددة بفقد أســواق آسيا أمام الغزو اليابانى ٠٠ وأســـــواق اوروبا أمام الغزو الألمانى ٠٠ ووجدت أمريكا نفسها فى نفس المـــأزق ٠٠ وأعلن روزفلت أن « حرية التجارة أمر أساسى لاقتصاد أمريكا » ٠

٠٠ ان الرأسمالية الاستعمارية تريد مزيدا من الربح ٠٠٠ ولا تجده الا فى الأسواق الخارجية ٠٠

واشتد الصراع . فســياسة حل الأزمات بالتسلح تدعو الى استعمال هذه الأسلحة ، لتستمر مصانع الأسلحة فى انتاجها ٠٠ كما أن الصراع على اقتسام الاسواق لا بد أن يؤدى الى الصدام ٠٠

واندلعت نيران أبشع حرب عالمية ، شهدتها البشرية ، وكادت

تؤدى الى فنائها .. ففى خلال سنوات الحرب ، كان السباق على أشده بين ألمانيا وامريكا للوصول الى القنبلة الذرية .. ولو وصل الوحش الالمانى الى سر القنبلة الذرية قبل فنـائه ... لشـهدت الانسانية فناءها ..

.. وما حدث خلال الحرب ، يكشف كل أسرار الرأسمالية العالمية الاستعمارية ..

اندفع جنون الرأسمالية النازية ، فى وحشـية ، لم تشهد أظلم عصـور البربرية مثيلا لها .. كان الانسـان فى العصـور البدائية ، يواجه الحيوانات المفترسة ، فتلتهمه ويستريح .. أما الرأسماليون النازيون فقد اندفعوا فى سبيل الأسواق والربح الى ما لا يمكن أن يتخيله عقل مجنون ..

استولت المانيا على تشيكوسلوفاكيا ... ثم بولنـدا ... واحتلت فرنسا .. ثم وجهت الصواريخ المدمرة الى انجلترا ... وأخيرا ، اتجهت الى فتح أكبر أسـواق أوروبا .. وزحفت قواتها لتمحو الاتحاد السوفييتى ..

وفى كل خطوة يزداد النهم الى الدماء .. وتتفجر وحشـية الجنون ..

.. بعد احتلال تشـيكوسلوفاكيا ، قرر هتلر ادماج نصف الشعب التشيكى فى الحياة الألمانية بنقلهم عبيدا أرقاء الى المانيا .. أما النصف الآخر ، ولا سيما المثقفون ، فقد نصت التقارير السرية على وجوب ابادتهم ..

وفى بولندا .. قال هتلر فى تعليماته :

« خلق البولنديون خصيصا للقيـام بالأعمـال التافهة ... وأرى من نافلة القول .. التأكد من ازالة النبلاء البـــــولنديين من

الوجود ، ومهما يكن فى هذا القول من قسوة ، فمن الواجب ازالتهم من الوجود حيثما كانوا ٠٠ » ٠

وعندما اقتربت الجيوش الألمانية من آبار البترول فى القوقاز ٠٠ أصدرت النازية تعليماتها الى رجالها ٠٠

« على السلاف (الروس) أن يعملوا من أجلنا ٠٠ أما اذا لم نكن فى حاجة اليهم ، فان الموت هو مصيرهم ٠٠ وخدمات دفن الموتى أمور لا لزوم لها ٠٠ والتعليم خطر ، فكل شخص متعلم عدو مقبل ٠٠ أما الدين ، فاننا نتركهم احرارا فيه ، كوسيلة الهاء لهم ٠٠ أما الغذاء ، فلن يحصلوا منه الا على الضرورى » ٠

٠٠ وهكذا كانت الرأسمالية الاستعمارية ، تعامل الشعوب التى تقع تحت قبضتها ٠٠ الموت ٠٠ والجهل ٠٠ والجوع ٠٠ والسخرية من الدين ٠٠

ويقول أحد الدبلوماسيين الألمان الذين تولوا الحكم فى المقاطعات الروسية التى احتلتها القوات الالمانية :

« ٠٠ سرعان ما اكتشفت شعوب أوروبا الشرقية البدائية بما لديها من غرائز فطرية .. أن شعار « التحرر من البلشفية » الذى ترفع ألمانيا لواءه ، ليس الا ذريعة لاستعباد هذه الشعوب»

.. وكان هتلر ومعاونوه ، يصدرون الأوامر والتعليمات فى كل منطقة يحتلها الألمان ٠٠ وأصدر هتلر فى بولندا الأمر التالى :

« ٠٠ من حق كل صاحب عمل أن يوقع العقاب البدنى فى عمال مصنعه .. ومن الواجب انتزاع العمال من بيوتهم ، وأن يقدم اليهم المأوى فى الاسطبلات وما شابهها ٠ ومن الواجب الا تكون هناك قيود على مثل هذه الأعمال .. »

أما بالنسبة لأسرى الحرب .. فنقرأ تقرير أحد الزعماء النازيين :

« .. فى معظم الحالات كان قادة المعسكرات يمنعون الغذاء من الوصول الى أيدى الأسرى ، اذ كانوا يفضلون قتلهم جوعا .. وفى حالات كثيرة ، كان الحراس يطلقون النار على الأسرى اذا عجزوا عن السير من أثر الجوع أو الاجهاد .. »

ونفذ النازى عملية قتل الرهائن ، التى استعملها الانجليز فى الهند وجنوب افريقيا ، فى كل المناطق التى احتلوها .. فكان يقتل مقابل كل جندى المانى خمسين او مائة من الرهائن .. وأعدم الألمان فى فرنسا خلال فترة الحرب اكثر من ٢٩ ألفا من الرهائن ، وأعدم فى بولندا نحو ٨ آلاف من الرهائن ، وفى هولندا نحو الفين ..

وكانت عمليات الاعدام بالجملة تتم على نطاق واسع .. وفى محاكمة نورمبرج لمجرمى الحرب .. روى احد المهندسين الألمان عملية تنفيذ الاعدام فى احدى قرى أوكرانيا الروسية ، وكان الهدف تصفية سكان القرية وعددهم خمسة آلاف ..

قال :

« مضيت مع مراقب العمل عندى الى حفائر الاعدام مباشرة . وسمعت طلقات نارية تتوالى بسرعة وراء احد المرتفعات الأرضية .. ورأيت رجالا ونساء واطفالا نزلوا من السيارات ، ووقف أمامهم ضابط نازى فى يده كرباج ، يأمرهم بخلع ملابسهم .. ووضع كل نوع من الملابس فى مكان معين .. وشاهدت أكثر من ألف زوج من الأحذية ، وأكواما هائلة من الملابس الداخلية ..

« .. وبعد ان أصبحوا عراة من الملابس ، وقفوا دون صراخ أو بكاء فى جماعات عائلية ، يقبل كل منهم الآخر فى انتظار اشارة الموت .. ولم أسمع خـــلال الخمس عشرة دقيقـــة التى وقفتها أى تذمر ، أو توسل ، أو طلب للرحمة ..

.. ورأيت امرأة عجـــوزا ، تضم طفـــلا لا يتجـاوز عمره العام .. وكانت تهدهده بحنان .. والطفل يناغيها فى فرح ، ووقف الوالدان على مقربة ، وقد اغرورقت عيناهما بالدموع ..

وهتف رجـــل الحـــرس النـــازى الذى كان يقف وراء تل من الرمال الى زميله بكلمات لم أسمعها .. وسرعان ما عد زميله ٢٥ شخصا وامرهم أن يتجهوا الى ما وراء التل الصغير ..

ومشيت الى هناك .. ووجدت نفسى أواجه قبرا هائلا . ورأيت عددا كبيرا متراصا من الجثث بعضها فوق بعض بحيث لا يظهر من الجثـــة الا رأســـها .. ورأيت بعض الجثث مازال يتحرك . وبعضهم يدير رأسه ليكشف أنه ما زال على قيد الحياة .. وكانت الحفرة قد امتلأت الى ثلثيها ، وقدرت عدد من فيها بنحو ألف شخص .. وتطلعت الى الرجل الذى كان يطلق النار . انه أحد الحرس النازى ، وقد جلس الى حافة الحفرة الضيقة وكانت قدماه تتدليان فيها . وهو يحمل فى يده مدفعا رشاشا ، ويدخن سيجارة ..

«ورايت نحوا من ثلاثين من العراة منبطحين قرب الحفرة . كان بعضهم لا يزال على قيد الحياة . وسرعان ما صدر الأمر الى الأحياء الباقين بالقاء الجثث فى الحفرة . ثم صدر الأمر اليهم بأن يستلقوا فيها . واطلقت النار على رقابهم .. وانى لأقســم بالله ، اننى ما رويت غير الحقيقة .. »

.. وصدر أمر فى عام ١٩٤٢ بتغيير الأساليب المتبعة فى

اعدام النساء والاطفال ، وأصبح الاعدام يتم فى « عربات الغاز » التى قامت بصنعها شركات صناعية فى ألمانيا ..

وهكذا لم يكتف الرأسماليون الاستعماريون من الربح بصنع أسلحة الدمار ، بل جروا وراء أرباح صنع أجهزة التعذيب ..

وجاء دور « معسكرات الابادة » .. وكان يتم فى معسكر « أوشويتز » فى بولندا ، قتل ستة آلاف بالغازات فى اليوم الواحد .. وقال قائد هذا المعسكر أمام محكمة نورمبرج :

« .. كنا نعرف أن المهمة قد انتهت عندما يتوقف الصراخ ،وكنا ننتظر عادة ، حوالى نصف ساعة قبل أن نفتح الأبواب لاخراج الجثث . وعندما نرفع الجثث كان الفدائيون من رجالنا يتولون انتزاع ما بأيدى الموتى من خواتم وساعات ذهبية وما فى أفواههم من أسنان ذهبية .. »

وكشفت الوثائق التى نشرت بعد الحرب . كيف كان رجال المال فى المانيا يتنافسون للحصول على عمليات بناء الوسائل اللازمة للموت والتعذيب ..

وفازت شركة توبف وأولاده ، وهى شركة لصناعة أجهزة التدفئة بالمناقصة لانشاء فرن حرق الجثث فى معسكر أوشويتز .

واشتركت شركة ديدييه للانشاءات فى مناقصة لبناء فرن فى معسكر نازى بلغراد ، وقالت فى رسالتها : انها تقدم وسائل حديثة ، وتقترح استخدام شوكة معدنية تتحرك على دواليب لادخال الجثث الى الأفران ..

وأكدت سجلات المحاكم ان عددا كبيرا من رجال الأعمال الألمان ، بالاضافة الى مؤسستى كروب وفاربين ، قد اشتركوا فى هذه الأعمال للحصول على مزيد من الأرباح لشركاتهم ..

ومن المؤلم أن عددا من الأطباء ، قاموا باجراء التجارب الطبية التى كانت تجرى على الحيوانات .. قاموا باجرائها على أسرى الحرب ، والمعتقلين .. فأجريت تجارب « تطعيم » العظام، وتجارب فى التعقيم ، وتجارب « التجمد » فى مياه مثلجة ، وجربت معهم العيارات المسمومة ، وغاز الخردل .. وتجارب قدرة الانسان على الحياة على المياه الملحة ..

ويصف سجين نمسوى شاهد تجارب « غرفة الضغط » قائلا :

« كنت أراقب شخصيا من نافذة غرفة الضغط ، كيف يستطيع السجين مقاومة الفراغ فى الداخل الى أن تنفجر رئتاه .. وكنت أرى السجين يصاب بالجنون ، فيأخذ فى شد شعره بيديه محاولا تخفيف الضغط . وكثيرا ما رأيته يمزق رأسه ووجهه بأصابعه وأظافره ·· وكانت هذه الحالة فى العادة تنتهى بالموت »

كانت الحرب جنونا ، أطلقها الرأسماليون العالميون لاقتسام الأسواق ، والمستعمرات ، ودفعت الشعوب ثمنها دما وموتا وتعذيبا ..

انقسم الرأسماليون الى فريقين .. المحور ، ويضم المانيا وايطاليا واليابان .. والحلفاء ، ويضم انجلترا وأمريكا وفرنسا .. وكل من المعسكرين وراءه الدول التابعة ..

ودخل الاتحاد السوفييتى الحرب عام ١٩٤١ عندما هاجمت القوات النازية فجاة الأراضى الروسية ..

وانتهت الحرب ، وكشفت عن ماساة خيانة دامية رهيبة .. فمنذ قيام هتلر ، كانت الاحتكارات الراسمالية الامريكية

مثل فورد وجنرال موتورز هى التى تمده بالمساعدة لتنفيذ برنامج التسليح .. وعلى أثر استيلاء هتلر على ميونخ وبعد سحق فرنسا ، أرسل مدير الجنرال موتورز برقية تهنئة الى هتلر ..

وفى عام ١٩٤٦ ، قام المدعى العام المساعد فى أمريكا بالسفر الى برلين للتحقيق فى حقيقة العلاقات التى كانت قائمة بين حكومة هتلر وبين بعض المواطنين الامريكيين .. وعندما عاد الى أمريكا صرح قائلا :

« لقد اظهرت تحقيقاتنا أننا لم نكن نقدر مدى النشاط النازى فى الولايات المتحدة حق قدره . فعندما قصدت الى المانيا ، شعرت أن أعظم خطر يتهدد أمريكا انما ينبع من هذه الصلات القائمة بين رجال الصناعة الألمان ، ورجال الصناعة الامريكيين ، وأدركت أن مجموعة من أشهر رجال المال فى أمريكا كانت تشارك فى المؤامرة النازية .. »

.. ففى اللحظة التى كان الجندى الألمانى يقتل الجندى الامريكى ، كان رجال المال فى أمريكا يعقدون الصفقات مع النازى ، ويقيمون علاقات اقتصادية بهدف الحصول على أكبر ربح ! .

وكانت العمليات السرية ، بين رجال الاعمال الامريكيين والألمان ، تتم فى بنك العقود العالمية فى سويسرا ..

وأعلن ترومان فى عام ١٩٤٢ ، وكان رئيسا للجنة مجلس الشيوخ المكلفة بالتحقيق حول الدفاع الوطنى ، يقول :

« .. وحتى بعد دخولنا الحرب ، كانت الستاندرد أويل أوف نيوجرسى تبذل جميع جهودها من اجل تثبيت احدى منتجاتنا الحربية الهامة تحت سيطرة الحكومة الألمانية .. نعم ، انها الخيانة . ولا يمكن فهمها على نحو آخر .. »

.. كل هذه الخيانات والمؤامرات لم تقف فى طريق الشعوب .. وانطلق الانسان فى كل مكان يصد الوحش النازى والوحوش المالين .. وكانت انتصارات ستالينجراد والعلمين ، بداية النهاية لأبشع حرب شهدتها البشرية .. سقط فيها حوالى ٤٦ مليون انسان بين قتيل وجريح .. بلغت خسائر الاتحاد السوفييتى وحده منها ٢٥ مليونا ..

وخرجت أوروبا من الحرب ، وقد خسرت ٢٦٠ مليـــار دولار .. فى حين ربحت أمريكا ٤٢ مليار دولار ..

واذا كانت الحرب العـــــالمية الأولى ، قد حولت أمريكا من بلد مدين الى بلد دائن ، وجعلت منها أول دولة رأسمالية فى العالم ... فان الحرب العالمية الثانية • أتمت عمل الحرب الاولى فجعلت من أمريكا الدولة الدائنة الوحيدة فى العالم ..

مصر .. والحرب :

شهدت مصر صراعا عنيفا داخلها .. الملك والرجعية تقيم صلات سرية ومشبوهة مع عناصر وجواسيس الفاشيست .. والرأى العام يصفق كلما انهالت ضربات النازى على انجلترا ..

.. كان الموقف يدعو الى البلبلـــة والرثاء .. واســـتغلت الدعاية الفاشية كراهية المصريين للانجليز ، وأعلن موسولينى أنه « حامى حمى الاسلام » .. ومضت الدعاية النازية تهمس أن هتلر قد أعلن اسلامه وأصبح اسمه « محمد هتلر » .

وعندما تقدمت الجيوش النازية والفاشـــية الى العلمـــين خرجت مظاهرة صغيرة فى القاهرة تهتف « الى الأمام يا روميل » .. ولو تقدم « روميل » لأقيمت فى مصر « أفران الغازات » .. ولكن روميل تقهقر ..

ولمست انجلترا الحقد الذى يملأ قلوب المصريين ، فاضطرت الى التراجع عن موقفها ، ورفعت يدها عن حماية الرجعية بل حاصرت سرأى الملك بدباباتها ليوقف عمليات الاتصال بالنازى والفاشيست .. وسلمت انجلترا بعودة دستور ٢٣ ، وجاءت حكومة جديدة لتهدئة المشاعر المضطربة ..

وسمحت انجلترا لمصر ، بعد دخول الاتحاد السوفييتى الحرب ، أن تقوم علاقات دبلوماسية لأول مرة بين الاتحاد السوفييتى ومصر ..

وحدثت تغييرات هامة فى الاقتصاد المصرى خلال الحرب .. انقطعت الواردات الأجنبية . فنشأت صناعات جديدة .. وتوطدت صناعات كادت تفلس قبل الحرب ..

وزادت الرأسمالية الوطنية قوة من الناحية الاقتصادية ، كما زاد عدد العمال فى مختلف المصانع والقطاعات ..

وانتهت الحرب ، وأدرك العمال والرأسمالية الوطنية ، انهم مهددون بغزو البضائع الانجليزية والأجنبية من جديد .. وأصبحت مصالح الرأسمالية الوطنية ، وحياة العمال مهددة من الرأسمالية العالية ..

وقامت قوى الشعب فى مظاهرات عنيفة تطالب بالجلاء .. وشكلت اللجنة الوطنية للعمال والطلبة .. وفى ٢١ فبراير ١٩٤٦ شاهدت القاهرة مظاهرة تضم أكثر من ١٠٠ ألف .. وفى ميدان الاسماعيلية (التحرير) اخترقت أربع سيارات بريطانية مصفحة الصفوف . وغضبت الجماهير ، وأشعلت فيها النار .. وسقط ٢٣ شهيدا .

وفى نفس اليوم كان رجال سلاح الطيران الهندى يطوقون

شوارع بومباى هاتفين « تحيا الثورة » واشـــترك معهم بحارة الأسطول الهندى ، وتضامن الشعب مع البحارة ، وتصادم مع القوات البريطانية ، واستشهد ٢٥ هنديا ..

واشتعلت الثورات فى كل مكان ضد الاستعمار .. فى مصر .. والهند .. وسوريا .. والعراق .. واندونيســيا . فى آسيا وافريقيا ..

وامتد الصراع فى مصر ، حتى ألغيت معاهدة ١٩٣٦ ، من جانب مصر .. وأعلن الكفاح المسلح فى ديسمبر عام ١٩٥١ .. ولكن الملك والرجعية تحالفت مع قوى الاستعمار ، وتآمروا على اخماد حركة المقاومة .. وأعلنت الأحكام العرفية .. وســـاد الارهاب .

ولكن الثورة كانت أعمق مما تخيل الاستعمار والرجعية .. كانت ثورة شعب عريق .. ثورة شـــعب خالد .. ولم تمض الا ستة أشهر على الارهاب الرجعى ، حتى انطلقت ثورة ٢٣ يوليو .

« خلق الله الانسان ليعمل من اجل لقمته ، وقضى بأن من ياكلون دون أن يعملوا انما هم لصوص معتدون»

غاندي

ثورة ٢٣ يوليو

قامت ثورة ٢٣ يوليو ..

ولم تكن تلك الثورة تعبيرا عن ارادة فرد .. أو جماعة .. أو فئة .. بل كانت ثورة ٢٣ يوليو ، انعكاسا لارادة الملايين فى العالم الذين أضناهم الاستعمار ، وأهلكهم فى حربين استعماريتين ..

وكانت الثورة تعبيرا عن ارادة الشعب العربى ، فى نضاله الطويل ضد الاستعمار والتخلف ..

وكانت امتدادا لثورة عرابى ، وثورة ١٩١٩ ، وكفاح الأجيال من أجل حياة أفضل للملايين من أبناء الشعب ..

وكان عبد الناصر رمزا لنضال الشعب ، وأملا للمستقبل .. فجمع ايمان عرابى .. وحماس مصطفى كامل .. وفكر محمد فريد .. وارادة التغيير عند الجماهير ..

وانطلقت ثورة ٢٣ يوليو فى جو عاصف مشحون .. فواجهت الملك والاقطاع .. والاحتلال الانجليزى .. ومؤامرات الاستعمار الجديد ..

وبدأت الثورة بتصفية أعدائها التقليديين .. الملك والاقطاع .. انها عناصر الخيانة التى تآمرت على الثورة العرابية ، وهى نفسها التى خانت تضحيات ثورة ١٩١٩ .. وهى التى حطمت كفاح عام ١٩٥١ ..

وسقط الملك ..

.. ثم صدر قانون تحديد الملكية .. فكان اول ضربة توجه الى الاقطاعيين .. وتخلصت مصر من أوكار الخيانة التى ارتبطت مصالحها بمصالح الاستعمار ..

وواجه الاحتلال البريطانى ، لأول مرة منذ سبعين عاما ، مصيره دون عون من الداخل .. لا مساومة .. ولا تهادن .. ولا خيانات .. ولا استسلام ..

وتم جلاء القوات البريطانية ..

ولكن القوات الانجليزية ، لم تكن الا مظهرا للاستعمار .. وبقى الجوهر الذى قامت من أجله الثورة العرابية . واشتعلت ضده ثورة ١٩١٩ .. انها قبضة الراسمالية الاستعمارية التى تستنزف دم الشعب ..

وواجهت ثورة ١٩٥٢ ، ما خلفه الاحتلال من استغلال .. وتخلف .. وفقر ..

ولقد حاولت حكومات المساومة . والتهادن حل المشكلة عبثا .. ويرسم وزير المالية الذى قدم مشروع ميزانية ١٩٣٨/٣٧، صورة الحالة فى مصر ، قائلا فى خطابه :

« يجب ألا يكون هناك طبقة من الشعب فى حالة من الفقر المدقع ، الفقر الجائع ، الفقر الأسود ، الذى لا تتوافر معه الضرورات الاولى للحياة فى بلد يعيش فيه الانسان معيشة جديرة ببنى الانسان .. »

ثم يقول :

« ان فى مصر طبقة من الفلاحين الذين يمثلون مجموع الشعب ،

أولئك فى مجموعهم يعانون فقرا مروعا ومنوعا .. هذا الفقر المادى الذى لا يجد ما يكفيه أو يقيه ، والفقر الصحى الذى لا يجد من الوسائل الصحية ما يحميه شر الأمراض المستوطنة التى تضعف المقاومة الجثمانية على العمل ، والفقر الأدبى الذى لا يجد من التعليم والتهذيب معنى يجعل من الحياة شيئا معنويا يسمو بالعقل عن مستوى الحقل .. »

ولم يتحول الكلام الى عمل ، فالاحتلال يحمى اللصوص الذين يسببون كل هذا الشقاء ..

ويتكرر الكلام ، عند عرض ميزانية ١٩٤٦/٤٥ ، وتقول وزارة ذلك العهد :

« ان المأساة الحقيقية تتمثل فى دخل الفلاح المصرى الذى بلغ الحد الأدنى بين دخول فلاحى العالم بأجمعه ، فى حين أن الثروة الزراعية المصرية تبلغ نسبيا حدا عاليا .. »

ويعدد الوزير العوامل التى أدت الى انخفاض مستوى المعيشة والانتاج .. كالآتى :

- زيادة السكان بنسبة تفوق الزيادة فى الأراضى المزروعة .
- الاعتماد على محصول واحد للتصدير .
- انحطاط المستوى الصناعى ، والصحى ، والتعليمى .

ثم جاءت فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية .. وزادت مأساة الشعب المصرى .. فيقول التقرير الاقتصادى للأمم المتحدة الذى صدر عام ١٩٥٥ عن مصر ، ما يلى :

« هبطت نسبة المساحة المزروعة الى مجموع السكان من ٢٠ر من الهكتار فى عام ١٩٠٧ للفرد الواحد ، الى ١١ر من الهكتار فقط عام ١٩٥٢ »

ويقول :

« هبطت نسبة مساحة الحاصلات للفرد الواحد من ٢٩ عـــام ١٩٠٧ للفرد الواحد الى ١٨ر من الهكتار عام ١٩٥٢ »

وفى الصناعة ٠٠ يقول التقرير :

« كانت سنوات الحرب فترة نمو للصناعة المصرية .. غير أن هذا النمو لم يكن متوازنا . وقد أصيب بنكســـات عرقلت سيره ، ففى السنوات التى تلت الحرب مباشرة ، قضت المنافسة الأجنبية على بعض الصــناعات الحــديثة التى نشـــأت أثناء الحرب .. »

ويقول التقرير :

« العوامل التى تعرقل سبيل التقدم الصناعى فى مصر . وفى غيرها من بلدان الشرق الأوسط .. نذكرها بايجاز :

١ ـ فقر غالبية السكان ، بسبب ضآلة الفائض الزراعى ، يحد كثيرا من السوق المحلية .

٢ ـ تفضيل الطبقات الموسرة للسلع الأجنبية يزيد فى ضعف القوة الشرائية بالنسبة الى المنتجات المصنوعة محليا .

٣ ـ رءوس الأموال كانت نادرة .. أن الزيادة فى الدخل العائد من الزراعة لا تزال كما كانت فى الماضى تنفق اما فى شراء الأراضى ، أو اقامة المبانى ، أو اقتناء الكماليات » .

هذه هى حال مصر كما واجهتها ثورة ١٩٥٢ ، ولم يكن هناك سوى حل واحد ، كافحت مصر من أجله ، أكثر من مائة عام .. وبذلت التضحيات والدم للوصول اليه .. وكما قال تقرير اتحاد الصناعات الصادر عام ١٩٥١ ..

« وواضح أن ازدياد عدد سكان البلاد على الشكل الذى

نشهده الآن يقتضى منا العمل على تدبير الوسائل التى تمكنهم من مواجهة لوازم الحياة .. ولا سبيل لتدبير هذه الوسائل سوى سبيل اعداد المصانع ، والأراضى الزراعية الجديدة ، التى تكفل العيش لهم ولأبنائهم من بعدهم .. »

مشكلة ثانية ، واجهت ثورة ١٩٥٢ .. القطن ..

ومشكلة القطن كانت تمثل الدمار بالنسبة للشعب المصرى ، فسياسة الاحتلال البريطانى التى حولتنا الى مزرعة قطن لتغذية مصانع النسيج فى انجلترا ، تركتنا فى حيرة ..

أحست بريطانيا ، ان العالم لم يعد يقبل على منتجاتها القطنية ، فقللوا من الاهتمام بصناعة المنسوجات القطنية .. وانخفض استيرادها من القطن المصرى ، بمقدار ١ر٥ مليون قنطار فى موسم ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ ..

وكان لا بد من البحث عن أسواق جديدة .. ولكن كانت هناك عقبة أخرى فى هذا الطريق يشرحها الدكتور عبد الرازق حسن قائلا :

« فما زالت سياستنا تجاه القطن ارتجالية ، ولعل السبب فى ذلك ما كان يتمتع به المرتبطون بزراعته وتجارته من قوة فى تسيير دفة الحكم ، بل وسيطرتهم على الصحف السيارة بنفسها ، فكم من المقالات دبجت كلما تدخلت الدولة فى السوق بتنظيم البيع أو بالشراء ، لان معنى التدخل حرمان تجار القطن من الارباح فى صورة عمولة أو سمسرة ناتجة عن بيعه أو شرائه ، أو المضاربة فيه ، واذا أدركنا أن قيمة المصدر فى سنة ١٩٥١ مثلا وصلت ١٦٤ مليون جنيه فلو كانت أرباح أولئك التجار لا تتعدى ٢٪ مثلا لكان معنى هذا حصولهم على ربح يقدر بـ ٣ر٣ من مليون الجنيه ، وهو مبلغ ليس

بالهين ، ولا سيما اذا كانت هذه التجارة محصورة في يد محدودة من التجار ٠٠ »

كل هذا واجهته ثورة ١٩٥٢ ٠٠ مشاكل الصناعة ٠٠ مشاكل الزراعة ٠٠ مشاكل التجارة ٠٠

فكانت حياتنا بعد ٧٠ عاما من الاحتلال مكبلة بقيـود دامية تستنزف عصب حياتنا ٠٠ فالاموال التى تحتاجها الصناعة، تسلبها الشركات الاجنبية فى صورة أرباح وتحولها الى الخارج ٠٠ والتجارة تتحول الى أرباح لبيوت القطن الاجنبية ٠٠ والزراعة تتدهور ٠٠ والحياة مغلقة أمام الشعب ٠٠

واذا أردنا أن نترجم هذه المعانى الى الحياة المعيشية اليومية، وجدنا أبواب الوظائف مغلقة أمام خريجى الجامعة ٠٠ حتى الأطباء والمهندسين ، كانوا يلجئون الى نقاباتهم لحل مشكلة التعطل ٠٠ أما المحامون وخريجو الكليات النظرية فقد تراكم العاطلون منهم دفعة بعد دفعة ٠٠ وأخذت الرأسمالية الوطنية فى الافـــلاس ، فكانت حالات الافـــلاس ٣٠ حالة عام ١٩٤٧ ارتفعت الى ١٠٩ حالة عام ١٩٥١ ٠٠ وانخفضت الاجور ٠٠ وزاد عدد العاطلين ٠٠

وكان لا بد من مواجهة صريحة لكل هذه المشاكل المعقدة ٠٠ كنا فى حاجة الى سوق واسعة لتصريف قطننا ٠٠ كنا فى حاجة الى مصانع من بلاد لا يضرها أن تقام صناعة فى بلادنا ٠٠ كان لابد من تجارة واسعة مع العالم ٠٠

ولكن الاســـتعمار أراد أن يقيم حولنا ســـورا من الاسلاك الشائكة ٠٠ وكان حلف بغداد ٠٠ ورفضت مصر سياسة الاحلاف ٠٠ ومارس الاستعمار أول أساليب العدوان ، عندما حرك اسرائيل فى فبراير عام ١٩٥٥ لتقوم بهجومها على غزة ٠٠

مؤتمر باندونج :

في « فلسفة الثورة » التى كتبها الرئيس جمال عبد الناصر.. يقول :

« لم يعد مفر أمام كل بلد أن يدير البصر حوله خارج حدود بلاده ليعلم من أين تجيئه التيارات التى تؤثر فيه ، وكيف يمكن أن يعيش مع غيره ..

ولم يعد مفر أمام كل دولة من أن تجيل البصر حولها تبحث عن وضعها وظروفها في المكان ، وترى ماذا تستطيع أن تفعل فيه ، وما هو مجالها الحيوى ، وميدان نشاطها ، ودورها الايجابى فى هذا العالم المضطرب ؟ »

وجاء مؤتمر باندونج ، تعبيرا عما كان يخالج ثورة ٢٣يوليو. والحقيقة أن مؤتمر باندونج كان نتيجة حتمية للمشاكل التى واجهت الدول المتحررة بعد طردها لقوى الاحتلال الاجنبى من أرضها .. أو الدول التي كانت تسعى لطرد الاحتلال من أراضيها .. »

وتناول مؤتمر باندونج المشاكل الاقتصادية .. والسياسية .. والثقافية .. والاجتماعية .. والتخلف الذى تركه الاستعمار وراءه ..

واعترف المؤتمر الآسيوى ــ الافريقى بالصفة العاجلة لتنمية التطور الاقتصادى فى المنطقة الآسيوية ــ الافريقية . وأبدى رغبة عامة فى التعاون بين البلاد المشتركة ، على أساس المصلحة المتبادلة، واحترام السيادة القومية ..

وأدركت الشعوب أنه بدون التخلص من التخلف الاقتصادى وبدون رفع المستوى العام للمعيشة ، فسوف يتعذر عليها أن تحتفظ

بالاستقلال السياسى وتظفر به·· وأن اكتساب الاستقلال السياسى، انما هو نقطة البدء لـــكفاح متواصل ضد الامبريالية تواجه خلاله أقطار الشرق الخيار ، فاما أن تفنى كأقطار مستقلة ، وتتحول مرة أخرى الى مستعمرات ، واما أن تكافح فى سبيل التطور الاقتصادى والتقدم الاجتماعى ··

ووجدت مصر فى باندونج ، أسواق العالم تفتح أمامها ·· فقد اعترف المؤتمر بالضرورة الحيوية لتثبيت التجارة فى المنطقة ، وأقر مبدأ توسيع نطاق التبادل التجارى والدفع المتعدد الجوانب ··

وبذلك تم حل مشـــكلة القطن ·· ومشاكل تصريف الانتاج الصناعى ··

كان الاستعمار يدرك ، ما يمكن أن يتمخض عنه مثل مؤتمر باندونج·· وكانت مصر فى حاجة الى السلاح لصد عدوان اسرائيل، وأبدت بريطانيا اســـتعدادها لتسليح مصر ، بشرط أن يسـكت عبد الناصر فى باندونج ، ويترك بريطانيا تنفذ سياسة الاحلاف··

ولم يسكت عبد الناصر فى باندونج ·· بل خطا خطوة أطول نحو تدعيم استقلالنا ·· فبعــد أن رفضت انجلترا وأمريكا بيــع السلاح لنا ، حطم عبد الناصر احتكار السلاح ·· وتمت أول صفقة مع تشيكوسلوفاكيا ·· ثم روسيا ··

وأرادت انجلترا وأمريكا أن تردا على صفقة السلاح ·· فأعلنتا سحبهما العرض الخاص بالسد العالى ··

وأعلن عبد الناصر تأميم القناة ، التى سلبها الاستعمار ·· والتى تحول الملايين من أرباحها الى الخارج ··

واهتزت الرأسمالية العالمية من هول الصفعة ·· انها لأول مرة تجرؤ فيها دولة متحررة حديثا أن تتحدى الاستعمار العالمى ، وأن

تسترد موردا من الموارد التى يسلبها الرأسماليون العالميون ..

وقام الاستعمار الانجليزى والفرنسى بتحريك اسرائيل ، ليبدأ العدوان الثلاثى الاول ..

كان هدف العدوان الثلاثى الاول .. غزو مصر .. واسقاط عبد الناصر ..

وفشل العدوان عن تحقيق أهدافه .. بل أثبتت المعركة قوة الحكم الوطنى .. وتأييد الجماهير الشعبية فى مصر والعالم العربى لعبد الناصر ..

وظهر من خـــلال المعركة ثورة دول باندونج ، وأثرها فى المحيط الدولى ..

كما تأكدت قوة العالم الاشتراكى العسكرية ..

أما أمريكا فقد اتخـــذت مظهر الحياد فى العدوان الثلاثى الاول .. كانت تواجه تناقضا عنيفا .. فهى من ناحية ، لا تريد أن يستعيد الاستعمار القديم مراكزه .. ومن ناحية أخرى ، كانت ضد سياسة التأميم .. وعلى الرغم من هذا الموقف المتردد ، اتخذت أمريكا الخطوات التالية ، تأييدا للرأسمالية العالمية :

- جمدت أرصدة مصر فى البنوك الامريكية وقيمتها ٥٠ مليون دولار .
- رفعت الاحتكارات الامريكية أجر البواخر التى تشـــحن حمولاتها الى الموانى المصرية ، لتفرض حصارا اقتصاديا على مصر .
- سحبت امريكا مرشديها من قناة السويس .

وعلى الرغم من هذا كله ، فشل العـــدوان الثلاثى الاول ..

وفى أعقابه ، أممت مصر الشركات والمؤسسات والبنوك الانجليزية والفرنسية .. ثم البلجيكية .. وقضت مصر على الاستعمار الاقتصادى ..

وانتهى الاستعمار القديم .. انتهت شركة قناة السويس .. وشركة سكة حديد الدلتا .. وبنك باركليز .. وغيره من البنوك الانجليزية والفرنسية .. وشركات التأمين .. وكل المؤسسات والشركات الاجنبية التى مهدت للاحتلال البريطانى منذ أكثر من سبعين عاما .. والشركات التى قامت خلال فترة الاحتلال .. وبذلك استردت مصر ثرواتها المنهوبة ..

بور سعيد .. والتاريخ :

كانت معركة العدوان الثلاثى الاول .. أو معركة بورسعيد نقطة تحول فى تاريخ الشعوب ..

قامت أضخم دولتين فى أوروبا الغربية ، وصنيعتهما اسرائيل بالعدوان .. وفى الماضى ، كان الاستعماريون يتمكنون بقوات أقل كثيرا ، من اخضاع الشعوب ، وتحقيق أهدافهم .. ولكن فى هذا العدوان كانت قوات الاستعمار المسلحة بأحدث الاسلحة ، تقف بلا حول ولا قوة أمام الشعب الذى نهض لحماية حريته واستقلاله.

ان المقاومة المتعددة الجوانب التى أحاطت بهذا النصر .. وهى مقاومة الشعب المصرى .. الانذار السوفيتى .. احتجاجات وغضب الدول الآسيوية ــ الافريقية .. كل هذا جعل ثورة ٢٣ يوليو تقفز بآثارها من تغيير للواقع المصرى ، الى تأثير ضخم فى حركات التحرر العالمية ..

لقد غدت ثورة ٢٣ يوليو ، منذ معركة بورسعيد رائدا لثورة الشعوب المظلومة ضد الرأسمالية العالمية .. وأصبحت قوة يهابها

الاستعمار ، ويحاول تحطيمها ·· ولـكن ثورة ٢٣ يوليو ، كانت تنمو ·· وتنبض بالحياة ··

حاولت فرنسا أن تزيد قواتهـا في الجزائر الى ٨٠٠ ألف جندى لضرب الثورة ·· ولكنها فشلت ··

وتوالت الانتصارات ·· فى عـام ١٩٥٧ استقلت مستعمرة ساحل العاج (غانا) ، وفى عام ١٩٥٨ استقلت غينيا ··

وفى عـــام ١٩٦٠ حصلت الكاميرون ، وتوجـــو ، ومالى ، ومدغشقر ، والصومال ·· وداهومى ، والنيجر ، والكونغـــو على استقلالها ·· استقلت ١٧ دولة افريقية ·· وسمى عـــام ١٩٦٠ « عام افريقيا » ··

كمـــا حصلت قبرص على استقلالها ·· وفى عـام ١٩٦١ ، استقلت سيراليون ، ورواندا أوروندى ··

وفى عام ١٩٦٢ استسلمت فرنســـا أمام ثورة الجزائر ·· وأعلنت جمهورية الجزائر الديموقراطية الشعبية ··

وفى عام ١٩٦٣ أعلن استقلال كينيا وزنزبار ·· ثم زامبيا فى عام ١٩٦٤ ··

·· كان هدف العدوان الثلاثى تحطيم ثـورة ٢٣ يوليو ·· فاذا بالثورة تزداد قوة ، وتزداد مناعة باستقلال دول آسيا وافريقيا التى خرجت من براثن العدو الاستعمارى ··

فاذا عرفنا أن بلاد آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية ، بها أكثر من ٧٢٪ من احتياطى البترول فى العالم ، وأكثر من ٦٠٪ من الحديد الخام و ٨٢٪ من النحاس ، و ٧٨٪ من البوكسيت ، وما يقرب من ٩٠٪ من خام المنجنيز والكروم والنيكل ·· كما تحتل هذه البلدان مكانا هاما بالنسبة للكثير من المنتجات الزراعية مثل القطن، والمطاط

الطبيعي ، والارز ، والبن ، والكاكاو .. كما أن الثروة الطبيعية لبلاد الشرق لم يكتشف منها سوى القليل ..

كل هذا يكشف لنا مدى الانتصارات التي تحققت بعد العدوان الاول ، وخاصة بعد أن انتقـل مركز الكفاح من طرد المحتلين الى مجال الاقتصاد ..

وقد حصلت البلدان النامية على النجاحات الاقتصادية الاولى. في عام ١٩٦٤ ازداد الانتاج الصناعي لبلدان آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية مرة ونصف مرة بالقياس الى عام ١٩٤٨ ، وزادت حصة الاقطار النامية في الانتاج الصناعي للعالم الرأسمالي في الفترة بين عام ١٩٤٨ ـ ١٩٦١ من ١ر٩٪ الى ١٣٪ .

ولكن المسألة ، ليست بهذه البســاطة .. فاذا عرفنا أن الدخل السنوى للفرد الواحد من السكان في البـلدان التي كانت مستعمرة لا يزيد عن ٦٠ دولارا ، على حين نجده في البلدان المتطورة يصل الى ٨٠٠ دولار .. نستطيع أن ندرك المهام الصعبة أمام تطوير وتنمية اقتصاد البلدان النامية ..

وواجهت ثورة ٢٣ يوليو ، مشاكل التصنيع .. الاشاعات.. وتثبيط الهمم .. والحرب النفسية من الداخل ، ومن الخارج .. ومحاولات متعددة لضرب القطاع العام ..

وحاولت الرأسمالية العالمية ، والقوى الرجعية في الداخل ، أن تعيد الى الأذهان أسطورة الاستعمار التقليدية ، وهي أن « مصر بلد زراعي » .. كما حاولت تجسيم الاخطاء ، لتؤكد وجهة نظرها الكاذبة .. ويكفي أن نسوق كلمات عالم اقتصادي كبير هو «أوسكار لانجه » ليكشف لنا هذه الاخطاء .. يقول :

« الخبرة التاريخية أثبتت بصفة عامة ، انه في المرحلة الاولى

للتطوير الاقتصادى ، وبصفة خاصة فى المراحل الاولى للتصنيع ـ لا تكون مشكلة الجهاز الثمنى السليم هى أعظم المشاكل أهمية ، ففى كلا النوعين من أنواع التطوير الاقتصادى ـ النوع الاشتراكى، والنوع الثورى الوطنى ـ نجد أنه فى الفترة الأولى لا تكون المشكلة الرئيسية هى مشكلة تفاصيل المحاسبة أو الحوافز . وانما تكون المشكلة الرئيسية هى ضمان نمو سريع للطاقة الانتاجية .. »

وانطلقت مصر فى طريق التصنيع ، لم يرهبها النقد المغرض. ولا الحرب الشعواء من الدوائر الاستعمارية ..

ان المشكلة التى كانت تواجه ثورة ٢٣ يوليو ، كما واجهت كل ثورات التحرير هى محاولة اشباع حاجات الانسان الضرورية للملايين من المحرومين .. وخلق مجالات للعمل أمام العاطلين .. ورفع مستوى المعيشة ليصل الى مثيله فى الدول المتقدمة ..

وكانت هناك مصاعب ..

أولا : الأموال اللازمة لاقامة الصناعة .. فان الدول الصناعية الكبرى ، كانت قبل التصنيع أغنى من الدول النامية ، كما انها أقامت صناعاتها على حساب الاموال المنهوبة من الشعوب المستعمرة .. وكتب نهرو .. « الجزء الكبير من قيمة تصنيع أوروبا الغربية قد دفعته الهند والصين والاقطار المستعمرة الاخرى التى كان اقتصادها مستعبدا من الدول الاوروبية »

ثانيا : وضعت الرأسمالية الاستعمارية ، أسعارا منخفضة وزهيدة للمواد الخام والمواد الزراعية ، فى حين رفعت أسعار منتجاتها الصناعية الى مستويات عالية ، بحيث تمتص ثروات الشعوب المستعمرة والشعوب النامية .

ثالثا : دخل التصنيع اليوم مرحلة يحتاج فيها الى مهارات

فنية وخبرات حرمت منها شعوب الدول التي كانت مستعمرة ..

وحاول الاستعمار استغلال هذه الصعوبات ليبقى على مستعمراته السابقة في حالة من التخلف تضمن تبعيتها له واستمرار استنزاف دم شعوبها ..

وضربت ثورة ٢٣ يوليو ، ضربتها الثانية ، عندما قبلت قرض « السد العالى » من الاتحاد السوفيتى ..

ان الاتحاد السوفيتى الذى وجه انذاره الى دول العدوان الثلاثى دون مساومة أو اشتراطات .. يتقدم من جديد ، بمعوناته الاقتصادية غير المشروطة ليساعد على تطوير اقتصاد مصر بالقروض والمساعدات الفنية ..

وبدأ العمل فى السد العالى ..

وازداد جنون الاستعمار العالمى حدة .. وأصبحت ثورة مصر تمثل له عدوا رهيبا ، يعطى الشعوب النامية نموذجا حيا للثورة السياسية والاقتصادية فى سبيل التحرر من التبعية ، والتخلص من آثار التخلف .. والخروج من دائرة الاستغلال ..

واعترف ولتر لبمان الصحفى الامريكى المعروف ، بهذه التغييرات فى ميزان القوى العالمية ، قائلا :

« لا يتوقف تطور الاقطار الضعيفة علينا ، لان لها مصدرا بديلا للحصول على المعدات الاساسية والمساعدة الفنية .. ذلك أن ظهور الاتحاد السوفيتى ، بصفة منافس ، هو أحد الاحداث التاريخية الكبرى في عصرنا .. ان هذا الظهور يغير بشكل جذرى وضع الولايات المتحدة الامريكية وحلفائها ، ويضاعف ، بدرجة هائلة ، قوة الشعوب الضعيفة التطور ... »

وشقت مصر طريقها الى التصنيع ٠٠ السد العالى ٠٠ وتوليد الكهربا ٠٠ والحديد والصلب ٠٠ والدواء ٠٠

ولكن هل يمكن أن تعتمد مصر على القروض غير المشروطة وحدها ؟٠

ان مهمة التصنيع تتطلب مزيدا من المال والجهد ٠٠ ومزيدا من التنسيق واستغلال كل امكانيات الشعب ٠٠

قوانين يوليو :

فى ١٩ من يوليو عام ١٩٦١ ، صدرت قوانين يوليو فى الطريق الى الاشتراكية ٠٠ وجاء فى التمهيد لاعلان هذه القوانين ٠٠

« لقد آن للثورة ، وهى تقف اليوم على أبواب سنتها العاشرة أن تضع صورة واضحة المعالم والقسمات للمجتمع الجديد فى الجمهورية العربية المتحدة ٠٠

والثورة لم تكن ، ولا يمكن أن تكون ، تغييرا فى شكل الحكم، انها على هذا النحو تصبح انقلابا للحصول على السلطة دون أن تجاوز ذلك الحد لتصبح معنى اجتماعيا بعيد الاثر عميق الجذور ٠٠

انها الثورة فى أصلها ، وأساسها تغيير حقيقى فى المجتمع ينتقل به من أوضاعه التى قامت بسببها الثورة ، ويصل به الى ما يحقق آمال مجموع الشعب ٠٠

وصدرت القوانين التالية ٠٠

* قانون بتأميم ١٤٩ شركة ، تشمل جميع البنوك وشركات التأمين ٠

* قانون باشراك القطاع العام فى ٩١ شركة ٠

* قانون بتحديد ملكية الفرد فى ١٥٩ شركة ٠
* قانون لتنظيم منشآت تصدير القطن ٠
* قانون بنقل ملكية مكابس القطن للدولة ٠٠

وكشفت قوانين التأميم عن حقائق رهيبة ٠٠ ان ثروة الشعب المصرى ، ليست فى أيدى أبنائه الحقيقيين ٠٠ بل فى أيد غريبة ليس بينها وبين الشعب علاقات اجتماعية أو أخلاقية أو انسانية٠٠

ان الاستعمار خلق طبقة من المتمصرين ، وأشباه المصريين يملكون كل شيء ، على حين أن جماهير الشعب تعانى الفقر والبؤس والشقاء ٠٠

فهذه بعض أسماء المساهمين فى البنك المركزى :

مارسيل ماتوسيان ٠٠ أميل ونيللى وجول كتسفليس ٠٠ سلمى هومير (قاصر) تملك ٢٥ ألف جنيه ٠٠ أمير هومير (قاصر) يملك ٢٣ ألف جنيه ، شاربيل هومير (قاصر) يملك ٣٠٠ ألف جنيه ٠٠ ديجينان فرنسوا تاجر (قاصر) يملك نصف مليون جنيه ٠٠ رءوف فرنسوا تاجر (قاصر) يملك نصف مليون جنيه ٠٠ ملفين فرنسوا تاجر (قاصر) يملك نصف مليون جنيه ٠٠ ثم عائلة سرسق وعائلة جيانوتى وحمصى وعقورى وأرقش وأوفادبا سالم ، وعائلة كوبولو ٠٠

هذه بعض نماذج الأسماء التى كانت تملك ثروة مصر ومعها عائلات البدراوى والجزار وفرغلى والشيشينى وشريف صبرى خال الملكة نازلى ٠٠

واذا انتقلنا الى حملة أسهم شركة أبو قير الزراعية نجد الأسماء التالية :

بوكتي ، وزوغيب ، وفيفانتي ، وزوزنج ، وميلاخرينو ، وجورجيادسي ، وكروكاكيس ، وخلاط ، وسولومونديس ، وباكامولى ، وزكار ، واسماعلون ٠٠ وليس بينهم سوى بعض أسماء مصرية ، مثل فرغلي وحتحوت وشعراوى ٠٠

وفي شركة وادي كوم امبو ، وكانت أكبر الشركات الزراعية في مصر ، نجد « عائلة سرسق » تملك وحدها أكثر من خمسة آلاف سهم ٠٠ ثم عائلة قرداحي ودى صعب ، وصوايا ، وأنطونييتي ، وخلاط ، وخورى ، وجونوس ٠٠ وأسماء غريبة أخرى ٠

وشركة أقطان كفر الزيات ، وتملك أسهمها عائلات كوتسيكا ، وزربينى ، وقطاوى ٠٠ ونماذج من هذا النوع ٠٠

وشركة النصر للمواسير ٠٠ والمساهمين الكبار فيها ، عائلات يعبيس ، وموصيرى وبنك الكريدى ليونيه بباريس ٠٠

وصورة أخرى ، لشركة كبيرة ضخمة هي « الشركة المصرية الجديدة » وتمتد أعمالها الى : اصلاح الأراضى ، ولها امتيازات بعض المناجم المعدنية ، ولها أعمال مالية واسعة النطاق في شراء وتأجير الأراضى والمبانى ، وكانت تقوم بعمليات كبيرة في مجال الرى والصرف ٠٠ وهذه أسماء حملة الأسهم ٠٠

عائلات خورى ، ورينهارت ، وماركو ، وتيودوراكس ، ولينادور ، واكدفوييدس ، واسماعلون ، ودوش ، وجرابيديان ، وجيانوتى ، وكانلجيان ، وقرداص ، وموصلى ، وسلفاجو ؛ وسرسق ؛ ومينوس وكوتسيكا وفرنجاكى ٠٠ أسماء غريبة تملأ أكثر من عشر صفحات فولسكاب ، ليس بينها الا ثلاثة أو اربعة أسماء مصرية صميمة ٠٠

فمن الذى كان يملك مصر ؟ ٠

ان الملايين من العمال والفلاحين المصريين •• ومئات الألوف من المثقفين يجاهدون فى كل مكان ، ليتحول كل هذا الى امـوال وثروات تدخل جيوب أسماء غريبة متمصرة •• ثم كانت هـــذه الثروات تتحول عن طريق البنوك أو التهريب الى الخارج ••

وصدرت قوانين يوليو ، لتحافظ على ثروة الشعب المصرى بين أيدى أبنائه ، ولتتحول أرباح الأسهم والشركات الى التصنيع•• وتحرر الاقتصاد المصرى تماما من التبعية الاستعمارية ، وبدأ يشق طريقه لتدعيم الاستقلال السياسى ••

وانعكست آثار تأميم الشركات على الحيـــاة المصرية •• فاذا أخذنا صناعة الدواء كنموذج للتطور الذى حدث بعد صدور قوانين يوليو ، نستطيع أن نتبين الآثار الحقيقية للسير نحو الاشتراكية ••

قبـــل قيـــام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، كانت شركـــات الدواء الأجنبية تسيطر على ٩٠٪ من الاستيراد •• فكانت حياة الشـــعب خاضعة لما يحقق لهـــذه الشركات أقصى الربح ، وتعاونت مع هـــذه الشركات الاستعمارية فى عمليـــات النهب فئة من وكـــلاء شركات الأدوية ، لا علاقة لهم بالطب أو الصيدلة ••

وخـــلال العدوان الثـــلاثى ، ظهر أثر ســـيادة شركات الدواء الأجنبية على الاستيراد ، فعندما فرض الاستعمار حصاره الاقتصادى اشتركت شركات الدواء الاستعمارية فى هذا الحصار ، على الرغم من منافاة هذا العمل لكل معانى الانسانية ••

لقد كان واضحا ، أن صناعة الدواء فى العالم ، أصبحت من أهم الصناعات التى تستخدم فيها رءوس أموال ضخمة •• وتدر على الشركات الأجنبية أرباحا هائلة ••

وكان طبيعيا أن تجند هذه الشركات كل قـــواها الضخمة من دعاية وتلاعب وتآمر لتمنع تصنيع الدواء فى مصر ••

ولهذا كان من العسير اقامة صناعة الدواء فى مصر على المجهودات الفردية ، بل كان لابد من سياسة اشتراكية يتم فيها توحيد الشركات الموجودة ، وهى شركات صغيرة ، اذا قورنت بالشركات الاحتكارية العالمية ، كما كان لابد من مساندة الدولة لصناعة الدواء بالمال ، والمواد ، والقدرات الفنية لحمايتها وتطويرها أمام المنافسة غير الشريفة التى تمارسها الشركات الأجنبية ..

وأعلنت قوانين يوليو ١٩٦١ .. وزاد عدد العاملين فى قطاع الدواء من ألف عامل عام ١٩٥٢ الى أكثر من ١٤ ألف عامل عام ١٩٦٦ ..

وزاد انتاج الشركات الجديدة من الدواء ، وبعد أن كانت قيمة انتاجنا المحلى نصف مليون جنيه عام ١٩٥٢ ، أصبح انتاجنا ٢٫٥ مليون جنيه عام ١٩٦٦ ..

ونستطيع أن نلخص أثر القوانين الاشتراكية على صناعة الدواء كالآتى ..

زيادة الانتاج .. تخفيض الأسعار .. توفير النقد الأجنبى .. اتاحة فرص جديدة للعمل .. تدريب مزيد من الفنيين لتحقيق التوسع ..

فاذا طبقنا ما حدث فى صناعة الدواء على بقية فروع النشاط الصناعى .. كالأسمنت ، والنسيج ، والسكر ، والزيوت ، والحديد والصلب ، والصناعات الحربية .. نستطيع أن ندرك مدى التغير الذى حدث فى حياتنا اليومية من تطبيق قوانين التأمين ..

احتاجت الصناعات الجديدة ، والتوسع فى الصناعة القديمة .. الى آلاف من الأيدى العاملة ، وكانت هذه الآلاف فى حاجة الى رعاية طبية ، فزاد عدد الأطباء .. وزاد عدد المهندسين .. وانفتحت أبواب

العمل أمام خريجى الجامعات والمدارس المتوسطة ·· ونشأت معاهد التدريب الفنى لاعداد العمال الفنيين ·· وزادت الأجور ·· وقضى على البطالة ·· واتسعت قاعدة التعليم لخلق عمال واعين ··

الميثاق

وبعد عام من صـــدور قوانين يوليو ، أعلن ميثـــاق العمـــل الوطنى ··

ولأول مرة فى تاريخ مصر الحديث ·· وتاريخ الدول المتحررة حديثا من براثن الاستغلال الاستعمارى ، تضع الثورة منهجا علميا ، أمام الشعب ، لتوضيح الخطوط السياسية والاجتماعية والسياسية والفكرية اللازمة لمرحلة التطور ··

ان أهمية الميثاق أنه دليل للعمل ··

وأعلن الميثاق ··

« ان تحالف الرجعية ، وراس المال المستغل يجب أن يسقط ·· ولا بد أن ينفسح المجال بعد ذلك ديمقراطيا للتفاعل الديمقراطى بين قوى الشعب العاملة ، وهى الفلاحون والعمال والجنود والمثقفون والراسمالية الوطنية »

ثم قال ··

« ومن هنا فان الدستور الجـديد يجب أن يضمن للفـلاحين والعمال نصف مقاعد التنظيمات الشعبية والســياسية على جميــع مستوياتها ، بما فيها المجلس النيابى ، باعتبارهم أغلبية الشعب ، كما أنها الأغلبية التى طال حرمانها من حقها الأســاسى فى صنــع مستقبلها وتوجيهه » .

فالميثاق ، الذى تحدث عن الصراع الطبقى لحله سلميا ، انما يفتح الطريق أمامنا لمنهج جديد فى البحث والدراسة واعادة كتابة تاريخنا ومشاكلنا الاقتصادية ، على هذا المنهج العلمى ، كما أنه يفتح الطريق من جديد لفهم ثورتنا على حقيقتها ، حتى نستطيع أن نلبى مطالبها فى هذه المرحلة الهامة والحاسمة من تاريخنا ..

واذا كان الميثاق ، قد أعطى العمال والفلاحين ٥٠٪ من مقاعد المجالس الشعبية ، فانما يقرر حقيقة عالمية تؤدى دورا حاسما فى الصراع ضد الاستعمار ..

ان سقوط الاقطاع ورأس المال المستغل ، معناه ببساطة ، زوال السيطرة المالية وانتهاء تحكم رأس المال فى العمل والانتاج .. وهنا لابد أن تحل قوة جديدة محل قوة رأس المال .. هذه القوة الجديدة هى قوة الشعب ..

واذا أردنا أن نحلل قوى الشعب التى حددها الميثاق نجد أن تحالف هذه القوى ، يمثل العامل الحاسم فى الصراع ضد الاستعمار ..

فالرأسمالية الوطنية ، لن تستطيع الصمود بمفردها أمام غزو البضائع الأجنبية ، وغزو رأس المال الأجنبى .. ولقد واجهت بالفعل الافلاس ، كما أوشكت أن تغلق مصانعها على أثر انتهاء الحرب العالمية الثانية .. ولولا قيام ثورة يوليو لتم تصفيتها ..

وحركات التحرر الوطنى تحتاج الى كل نشاط وحماس الرأسمالية الوطنية بكل ما تملك من خبرات ، وقدرات ..

أما العمال ، فقد أصبحوا فى هذه المرحلة التاريخية يمثلون قوة حاسمة فى الكفاح ضد الاستعمار ..

فقوى العمال تؤدى دورا أساسيا فى الانتاج ، كما أنها تقوم

بدور سياسي وكفاحي هام من خلال اتحادات العمال لمواجهة عدوان وتآمر الاستعمار ·· فالعمـال أساسا هم أول القوى التى يهددها الاستعمار والرجعية في البلدان المتحررة حديثا ·· فمن ناحية ، يتعرضون للبطالة أمام غزو رأس المال الأجنبى ، ومن ناحية أخرى يفقدون مكاسبهم الاجتماعية والاقتصادية اذا وقعوا تحت استنزاف الرأسمالية الاستعمارية ··

والفلاحون ·· مهددون باسترداد الرجعية لأراضيهم ··

والمثقفون ·· والجنود ·· اما أن يستسلموا للقوى الاستعمارية ويصبحوا وقودا للحرب ·· واما أن يقاوموا دفاعا عن الحكم الوطنى الذى يحمى حياتهم ويرسم طريق النصر لأطفالهم ··

هذا التحديد من الميثاق لقوى الشعب العامل · كشف أهمية وجوده ، ومعنى التحالف ·· أمام قوى العدوان في المؤامرة الثلاثية الاولى ·· ثم الثانية ··

ان أهمية الميثاق ، تتضح فى أنه وضع خطوطا واضحة ، فاصلة بين الماضى المظلم ، كمـا أراد أن يرسمه لنا الاستعمار ويقودنا اليه ·· وبين الغد والمستقبل كما يريده الشعب ···

ويمثل الميثاق مرحلة جديدة من ثورة ٢٣ يوليو ··

كانت المرحلة الأولى هى القضاء على الاقطاع والاستعمار ، وكانت المرحلة الثانية هى الاتجاه للتصنيع ·· ثم جـاء الميثاق ليؤكد ارتباط ثورة ٢٣ يوليو بالثورة العالمية التى تشتعل فى كل مكان من العـالم لتحرير الانسـان من قبضة الرأسـماليين الاستعماريين ··

ان الميثاق يمثل مرحلة انطلاق الثورة الى المجال الاجتماعى لتحطيم القيود ، وتحرير الانسان ·· ونص الميثاق :

« ان الحرية الاجتماعية طريقها الاشتراكية ٠٠ ان الحرية الاجتماعية لا يمكن أن تحقق الا بفرصة متكافئة أمام كل مواطن فى نصيب عادل من الثروة الوطنية ٠٠ »

ان الاشتراكية هى وحدها التى تتيح للانسان فرصا متساوية فى التعليم ، بفرض مجانيته ، فلا يستجدى الانسان العلم ، أو يدفع ثمنه من قوته ٠٠

ان الاشتراكية هى وحدها التى تفتح المجال أمام الضمانات الصحية ، فلا تجعل الطب تجارة ، ولا تجعل الشفاء مقصورا على أصحاب الثروات ٠٠

والاشتراكية هى وحدها التى تنشر الحب بين الناس وتنزع الحقد الذى يولده التنازع على الثروات ٠٠

والاشتراكية هى وحدها التى تعمل من أجل السلام ٠٠ فهى ضد الاستعمار ٠٠ وضد نهب الشعوب ٠٠ وضد تجار الحروب ٠٠

فالاشتراكية هى هدف الانسان ، منذ وعى الانسان وجوده ، فهى وحدها الكفيلة بأن تبسط الخير والحب والاخاء والصدق والشرف بين الناس جميعا ٠٠ وأن تنزع الحقد والكراهية والتآمر ٠٠ هى وحدها النظام الذى يحقق المساواة بين الناس جميعا ٠٠

مشاكل الثورة

واجهت الثورة منذ عام ١٩٥٢ ، قوى مضادة عنيفة ٠٠ قوى خارجية ٠٠ وقوى داخلية ٠٠ قوى استعمارية ٠٠ وقوى رجعية ٠٠ وفشلت المؤامرات ٠٠ وفشل العدوان ٠٠

ولكن الثورة تواجه مشاكل ٠٠

والمشاكل التى تواجهها الثورة المصرية ، هى نفس المشاكل التى تواجه الدول الآسيوية والافريقية ·· ويحددها « بانيكار » سفير الهند فى مصر منذ سنوات فى كتاب له ··

« ·· مشــاكل البنــاء السياسى ·· مشــاكل الادارة ·· المشاكل الاقتصادية ·· مشاكل التعليم ·· مشاكل التطور العلمى والفنى ·· المشاكل الاجتماعية ·· »

ومن الناحية السياسية ، ورثت مصر فكرا سياسيا متخلفا ، محصورا فى نطاق تطورات القــرن الماضى ·· وما زال النمــوذج المثالى للحياة الديمقراطية عند الكثيرين ، هو الحياة الديمقراطية كما أرادت انجلترا أن ترسمها لنا من خلال دستور ١٩٢٣ ·· هذا الدستور الذى يحدد عضوية مجلس الشيوخ بملكية عدد من الأفدنة أو ثروة مالية معينة ·· كما تتطلب عضوية مجلس النواب دفع مبلغ ١٥٠ جنيها فى بلد لا يزيد متوسط دخل الغالبية العظمى من أهله عن ٥٠ جنيها فى السنة ·

ولم يكن من الممكن أن تســير الثورة المصرية فى طريقهــا ، وتتجاهل حركة الجماهير الشعبية ومصالحها ·

وقامت جبهة التحرير لتحقيق جلاء القوات الانجليزية ·· ثم الاتحاد القومى لتأكيد الانتصارات الوطنية ·· ثم أخيرا ، الاتحــاد الاشتراكى الذى يمثل قوى الشعب المتحالفة فى مواجهــة مؤامرات الاستعمار ، وعملية البناء الاقتصادى ، والتطور الاجتماعى ··

وواجه الدستور الذى انبثق من الميثاق ، نفس الهجــوم الذى واجهه دستور الثورة العرابية ··

ففى خلال الثورة العرابية ، كانت الرجعية التركية والاقطاع

والاستعمار ، ترى أن الطبقة الوسطى ، هى جماعة من الفلاحين ليست لديهم خبرة فى تولى الشئون السياسية وممارسة الحكم ٠٠.

ونفس الكلمات وجهت الى اشراك الفلاحين والعمال فى الحياة السياسية المصرية ، وحصولهم على ٥٠٪ من مقاعد مجلس الأمة ٠٠

ولكن أبسط مبادىء الفكر السياسى ، تقول ان خبرة ممارسة الحكم لا يمكن الوصول اليها الا بالممارسة والتجربة ٠٠

فاذا كانت جماهير الشعب الواسعة قد حرمت الاشتراك فى الحياة السياسية خلال الحكم الاستعمارى ٠ فان مسئولية الثورة هى فتح المجال أمام الملايين لممارسة حقهم السياسى حتى يكون حكم الشعب للشعب ومن الشعب ٠٠

وهذا يتطلب تأكيد حق الغالبية من الشعب الممثل فى الفلاحين والعمال فى دخول المجالس النيابية ، والمجالس البلدية ، والمجالس المحلية ٠٠ ومجالس ادارة المؤسسات والشركات ٠٠ ومن خلال هذه المجالس ، يمارس الشعب حقه فى الخطأ والصواب ٠٠ ويتطور وعيه السياسى والاجتماعى ٠٠

ولقد حدثت فى المجالس الديمقراطية فى جميع أنحاء العالم ٠٠ سواء فى المعسكر الاشتراكى ٠٠ أو فى المعسكر الغربى، أخطاء وجرائم ، ولكن هذه الأخطاء لم تكن أبدا سببا فى نكسة الحقوق الديمقراطية ، بل كانت دائما تتطور من خلال التجربة الى الأمام ٠٠

الا أننا لا نستطيع أن نتجاهل ، كثيرا من الأخطاء التى ظهرت خلال التجربة الماضية ، والتى مارست فيها قوى الشعب حقها السياسى ٠٠

فاذا كان من حق الرأسمالية الوطنية أن تعمل وأن تحصل

على الربح ·· الا أنه ليس من حقهـــا الربح الفاحش ، والثراء الضخم على حساب قوى التحالف الأخرى ·· فقد تعمدت فئات من الرأسمالية الوطنية رفع الاسعار ·· كما حاولت فئات منها الوصول الى الثراء بطرق غير مشروعة ·· وخلقت السوق السوداء، واستعملت الرشوة ·· واستغلت سلطان المال فى نشر الفساد··

وقد أدى الانطلاق فى الأخطاء ، الى زيادة التطلعات الطبقية عند فئات من قوى الشعب ··

وأصبح بعض العمال يتطلعون الى مزيد من المكاسب الشخصية، بدل العمل على تأكيد المكاسب الاشتراكية لجماهير الشعب ··

واتجه المثقفون الى الثراء وتحقيق تطلعاتهم الطبقية ، بدل العمل على تأكيد تحالف قوى الشعب ·· والدفاع عن مصـــالح القوى المظلومة ··

·· وأمام هذا كله ، بدأ التآمر الاستعمارى ينفث سمومه ·· ويصنع التآمر ·· ويمول المؤامرات ··

·· أما المشاكل الاقتصادية ·· فهى متعددة ··

وقبل أن نسرد مشـــاكلنا الاقتصـــادية ·· لابد من تقرير حقيقة واقعة ، وهى أننا دخلنا بالفعل مرحلة التصنيع ·· وأن مئات الألوف ، من العمال يجدون العمل ·· وعشرات الألوف من المثقفين يمارسون نشاطهم ·· وأن حياتنا أصبحت تعتمد الى حد كبير على ما تصنعه أيدينا ··

أما المشاكل ، فلعل أولها ·· مرحلة بدء الصناعة ··

لا جدال أنه حدثت اخطـاء ، سـواء فى التخطيط ·· أو التطبيق ·· والسؤال ، هل كان يمكن تجنب هذه الأخطاء ؟ ·

ونجد أنفسنا هنا نردد ما سبق قلنــاه بالنســبة للناحية السياسية ٠٠ وهى أن التجربة ٠٠ والخطأ والصواب من علامــات الحياة والتطور ٠٠ والانسان الذى لا يخطىء ، هو الانسان الميت ٠٠ وكذلك الشعوب ٠٠

لقد شاهدت بداية التصنيع فى أمريكا وانجلترا ، أخطاء أضخم من الأخطاء التى وقعنــا فيها ٠٠ على الرغم من أنها كانت مشروعات فردية أساسها الربح ٠٠ ومع ذلك أفلســت عشرات المشروعات وتحطمت عشرات المصانع ، قبل أن تستقر الصناعة فى الدول الصناعية الكبرى ٠٠

واليوم تواجــه الصناعــة فى البلدان الرأســمالية أزماتها الحادة ٠٠ كما أن الدول الاشتراكية تمارس تجاربها من ناحية اقرار مبــدأ الحوافز ، وتراكم العمال فى العواصم ، والتضارب بين السلطات داخل المصنع أو خارجه فى التوجيه والتخطيط٠٠ ولم يقل أحد أن علاج هذه الأخطاء ، يكون بغلق المصانع ٠٠

فاذا أردنا أن تتناول أسس المشاكل الاقتصادية الحالية ، نجدها تتركز فى بعض النقاط ٠

أولها ٠٠ أننا ورثنا عن الاستعمار الأسلوب البيروقراطى فى الادارة والتنظيم ٠٠ وهو الأسلوب الذى كان يخــــدم رأس المال الاستعمارى ٠٠ ومع ذلك ، لم نستطع أن نغير هذا المفهوم ، بل ان ذلك يتطلب ممارسة عنيفة ٠٠ وتوعية سياسية حتى يمكن أن تتخلص الادارات المختلفة من قيود البيروقراطية ٠٠ وحتى تؤمن بأن التطور الاشتراكى يتطلب تكاتف جهود العمال والادارة فى العمل ٠

ثانيا ٠٠ ان اتساع القاعدة الصناعية ، تتطلب جذب عناصر

الريف الى المصانع ، وهى عناصر غير مدربة تحتاج الى كثير من التجربة والعمل حتى تتكون لديها العقلية العمالية ·

ثالثا ·· ان كثيرا من المديرين ، مازالوا يتمسكون بأن الخبرة الصناعية لا توجد الا فى العالم الرأسمالى وحده ، ولهذا يسعون الى قصر تعاونهم على الغرب ، على الرغم من أن الغرب قد أعلن صراحة أو بالمؤامرات عن عدائه لبرامج التصنيع فى البلدان النامية ··

رابعا ·· مازالت القاعدة الشعبية العريضة محدودة الدخل، مما يؤثر على قواها الشرائية ، ويحد من ثم من انتاجنا الصناعى، ويؤدى الى زيادة التكاليف ··

خامسا · ·ضغط الاستعمار على الدول النامية ، سواء بتخفيض شراء المواد الخام أو زيادة أسعار مصنوعاته ·· واغراق الأسواق بسلعه الاستهلاكية ··

وعلى الرغم من هذا كله ، لا يمكن أن نغفل التطور الذى حدث فى مجال الصناعة ·· أصبح لدينا مديرون لهم خبرة واسعة فى ادارة المصانع ·· نشأت طبقة من العمال الفنيين ·· اتسعت قاعدة العمالة ·· اكتسبنا خبرة من الأخطاء ··

واليوم ، ندخل مرحلة الكهربا ·· والحديد والصلب ·· ويبدأ عهد جديد ··

والمشكلة الثالثة التى تواجهنا هى مشكلة الثقافة ·· ان تحرير الجامعات ومعاهد التعليم والصحافة وأجهزة الاعلام من آثار الاستعمار تتطلب جهدا عنيفا ·

لقد قام الاستعمار خلال احتلاله الطويل بالتركيز على هذه الأجهزة ، واستطاع أن يسمم حياتنا الثقافية والعلمية ·

وكان من أهم ما ركز عليه الاستعمار فى التعليم ، احتقار العمل اليدوى ٠٠ وتأكيد تفوق طبقة على طبقة ٠٠ وخلق فلسفة تعليمية تهدف الى السلبية والاستسلام ٠

أما من ناحية أجهزة الاعلام ، فقد سخرها الاستعمار للهجوم على الاتجاهات الاشتراكية ٠٠ والعمل على عزل الدول النامية عن الدول الاشتراكية ٠٠ وبث النقافة الرخيصة التى تقوم على الاثارة وتبعث الانحلال ٠٠ كما عمد الى تحطيم الفكر العلمى ليسهل عليه تضليل الجماهير ٠

واذا كان من السهل طرد الاستعمار ٠٠ أو بناء صناعة حديثة ٠٠ فان من أشق مهام المرحلة تغيير المفاهيم التى خلفها الاستعمار وراءه ٠٠ وتغيير العقليات والأفكار والثقافة الهدامة التى سلطها الاستعمار خلال سبعين عاما ٠٠

ولاجدال أن التطورات السياسية والاقتصادية تعمل اليوم على خلق أجيال جديدة أكثر تحررا من الأجيال التى نشأت فى ظل وجود القوات البريطانية التى كانت تحتل المراكز الحساسة فى أجهزة الدولة ٠٠ وتعمل على فرض جبروتها وسلطانها ٠٠ وتهدف الى تحطيم روح الشعب ٠٠

ان جيلا جديدا ينمو ٠٠ ولكن ذلك يتطلب مزيدا من الجهد والعمل والعرق أمام عدو متمرس وحشى ٠٠

ومن حقنا ، أن نتساءل ٠٠ هل هذه المشاكل ، علامات صحة ، أو علامات مرض ؟ ٠

لاجدال أن الزمن أصبح مع الشعوب المتحررة ، ولم يعد الزمن مع الاستعمار ، كما كان الوضع منذ عشرين عاما ٠٠ وكلما مضت أيام وسنون على حركات التحرر الوطنى ٠٠ وتدعيم الحكم الوطنى ٠٠ أمكن التغلب على الأخطاء ؛ والسير فى طريق التطور ٠٠ وبناء الغد لأطفالنا ٠٠ والأجيال القادمة ٠٠

الفصل الحادى عشر

« ان سير الأحداث العـــالمية فى السنوات الأخيرة قد أتى بالكثير من الشواهد الجديدة على أن الاســتعمار الامريكى هو الحصن الرئيسى للرجعية العالمية » .

العدوان الأمريكى

منذ أزمة الكاريبى ·· وفشل أمريكا فى القضـــاء على ثورة كوبا ·· يشهد العالم أحـــداثا مروعة ·· توشك أن تعصف بالكيـــان الانســانى ·· وتهدد كل مكاسب الشعوب ·· وتنذر بالقضاء على الحضارة الانسانية ··.

·· وكانت أول مشاهد المأســاة ، قيام العنـــاصر المتطرفة للاحتكارات الامريكية بقتل الرئيس جون كنيدى ··

ثم تتالت أدوار المهزلة ·· وتدخلت أمريكا سافرة ضد ثورة شعب الدومينكان ·· وأخذت الحرب فى فيتنام تتصاعد الى درجة مخيفة تهدد بحرب شاملة ··

وخلال هذه الفترة ، منذ مصرع كنيدى الى اليوم ، شهد العالم انقلابات عسكرية فى آســيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية ، تطيــح بالحكومات الوطنية ، وتأتى بحــكومات رجعية هى أداة للامبريالية العالمية ، والاستعمار الامريكى ·· ولم يتردد قادة هذه الانقلابات فى بعض الاحيان من الاعلان عن أنفسهم كعملاء لأمريكا ·· أو أداة لتنفيذ مؤامرات دبرت فى لندن وواشنطن ، كمـــا حدث بالنسبة لانقلاب غانا ·

وكانت أمريكا تمهد لثوراتها المضادة ضد الشعوب المتحررة·· بخطوات مرسومة ··

أولا : ضغوط اقتصــادية ٠٠ أو تخريب بالمعونات ٠٠ تضع الحكومات الوطنية فى مركز حرج أمام شـــعوبها ، وبذلك تمهـد للانقلابات الرجعية ٠

ثانيا : تدبير الانقلابات السياسية والعسكرية بوساطة عناصر المخابرات الامريكية ، أو العملاء الخونة فى الداخل ٠٠

ثالثا : حرب نفسية رهيبة ، تقـــوم على الدعاية والاشاعات والدسائس ، لخداع الشعوب ، والتأثير على مقوماتها النفسية ٠٠

وبلغت الثورة المضادة ذروتها بالانقلاب العسكرى فى اليونان، وبدأ التآمر الصريح ضد الثورة العربية ٠٠

ووضحت الخطة التنفيـذية ، عنـــدما بدأ تجمـع الاسطول الانجليزى حول اليمن ، وزحف الاسطول الســادس الامريكى الى شرق البحر الابيض ٠٠ وتحرك اسرائيل الى حدود سوريا وتهديدها العلنى باسقاط الحكم التقدمى فى سوريا ٠٠

ان التناقض الذى كان قائمـــا بين انجلترا وأمريكا خـلال العدوان الثلاثين ، اختفى ليعمل مكانه نوع من المساومة ، تحتفظ انجلترا من خلاله ببقايا مستعمراتها ٠٠ وتحل أمريكا مكان بريطانيا فى مواقعها المتهاوية ٠٠

لقد كانت أمريكا تحلم بهــذه الاوهام منذ العدوان الثلاثى الاول ، وأعلنت وكالة الاسوشيتدبرس الامريكية بصراحة :

« ما ان تسقط هيبة بريطانيا وفرنســـا حتى يفسح المجال لأمريكا أن تصبح عاملا قويا ، ان لم يكن مسيطرا ، فى هذه المنطقة » ٠

وفشل الاســتعمار الامريكى فى تحقيق أهدافه منذ معركة

بورسعيد .. ولم يجد أمامه سوى الالتجاء الى أسلوب الاستعمار التقليدى .. وهو العدوان المباشر .. واتجه الى سوريا ..

وكما قال الرئيس جمال عبد الناصر :

« ان البادىء بسوريا سوف يثنى بمصر » .

.. وكان لا بد من مواجهة الاستعمار الامريكى .

الاستعمار الامريكى

كتب نهرو منذ أكثر من ثلاثين عاما رسالة وجهها الى ابنته انديرا غاندى ، يقول لها :

« لا تفكرى ، وكأن امبراطورية الولايات المتحدة مقصورة على جزر الفيلبين .. من حيث المظهر هى المستعمرة الوحيدة التى تملكها ، ولكن الولايات المتحدة ، مراعاة منها لتجربة وصعوبات الدول الامبريالية الاخرى ، أتقنت الاساليب القديمة ، فهى لا تجشم نفسها عناء ضم أى بلد على الطريقة التى ضمت بها انجلترا الهند، فالشىء الذى يهمها هو المنفعة فقط ، ولهذا فهى تسعى جهدها لوضع ثروات البلد تحت اشرافها.. وهكذا ، وبدون متاعب أو اصطدامات كبيرة مع النزعة القومية النشيطة تشرف على البلد ، وتنال حصتها من ثرواته ، وهذا الاسلوب الماكر يسمى بالامبريالية الاقتصادية .. وهذه الامبريالية لا ترينها على الخريطة .. هذه هى الامبراطورية غير المنظورة التى تمتلكها الولايات المتحدة الامريكية » .

فمنذ انتهاء الحرب العالمية الاولى ، التى قامت لاعادة تقسيم أسواق العالم بين الرأسماليين العالميين ، بدأت أمريكا ، تأخذ مكانها كدولة استعمارية كبرى على حساب الدول الاستعمارية القديمة .

ويقول الاقتصادى الفرنسى « هنرى كلود » :

« ان توسع الرأسـمالية الامريكية ، يصطدم ، على الاخص بالرأسمال الانجليزى ٠٠ وتتسم هذه الفترة كلها بنضال لا هوادة فيه بين الولايات المتحدة وانجلترا من أجل الاسواق والمواد الاولية ، والسيطرة المالية ٠٠ »

ثم يقول ٠٠

« واستطاعت الصناعة الامريكية تنحية الصناعة الانجليزية ٠٠ فى عام ١٩١٤ كانت واردات اليابان من أمريكا وانجلترا متساوية ٠٠ وفى عـام ١٩٢٧ ، أصبح نصيب انجلترا ٧٪ ونصيب الولايات المتحدة ٣٠٪ ٠٠ وكانت واردات الصين عام ١٩١٣ من انجلترا ١٦٪ ومن أمريكا ٦٪ ٠٠ أما فى عـام ١٩٢٦ فهبطت النسبة بالنسبة لانجلترا الى ١٠٪ على حين ارتفعت نسبة أمريكا الى ١٦٪ ٠٠ »

وبدأت أمريكا محاولاتها لسيادة الرأسـمالية الامريكية على العالم ، عن طريق الغزو بتصدير مصنوعاتها ورءوس أموالها ٠٠

وجاءت الحرب العالمية الثانية ، وخرجت الدول الرأسـمالية منهوكة ، مدينة ، على حين اسـتفادت أمريكا ، وكانت الدولة الرأسمالية الوحيدة التى أثرت من الحرب ، وخرجت دائنة للدول الرأسـمالية الاخرى ٠٠ وطالبت بالثمن ، وأرادت أن تستولى على مستعمرات حلفائها ٠٠

وفى اكتوبر عام ١٩٤٢ ، أشارت أمريكا الى رغبتها فى أخذ بعض المستعمرات البريطانية ، مقـابل الديون التى تدين بهـا انجلترا ٠٠ فصرح تشرشل فى انفعال ٠٠

« شىء واحد يجب أن يكون واضـحا منذ البداية ، اذا كان هناك شك عند البعض بشأن هذه المسألة ٠٠ اننا نعتزم الابقاء على ما هو ملك لنا ٠ فأنا لم أصبح رئيس وزراء جلالته لكى أترأس جلسة تصفية الامبراطورية البريطانية ٠٠ »

ولكن الامور لم تمض كما شاء تشرشـــل ، فالرأســمالية الامريكية ، استمرت فى طريقها ٠٠ فزادت أرباح أمريكا من غزوها المالى للمستعمرات من ٨١٠ ملايين دولار عام ١٩٤٦ الى ٣٣٠٣ ملايين دولار عام ١٩٦١ ٠٠

واحتـل نهب الرأســمال الامريكى ، مكان نهب الاستعمار القديم ٠٠

وكانت منطقة الشرق الاوسط ، من مراكز الصراع العنيف بين الاستعمار القديم والاستعمار الجديد ٠٠

فعنـــدما أممت حـكومة مصـــدق فى ايران شركة البترول الانجليزية الايرانية ٠٠ قررت الحكومة البريطانية والولايات المتحدة القيام بعمل مشترك لاسقاط مصدق ٠٠ ونجحت العملية ٠٠ ولكن البريطانيين فقدوا احتكارهم للبترول الايرانى ، وعقدت مجموعة من شركات البترول الغربية عقدا مع ايران ٠٠ حصلت أمريكا على ٤٠٪ والشركة الانجليزية السابقة ٤٠٪ ، وشركة شل الهولندية ١٤٪ وفرنسا ٦٪ ٠٠

وعندما ألغت مصر المعاهدة عـام ١٩٥١ ، تقـــدمت انجلترا وأمريكا وتركيـــا بمقترحات لضم مصر الى معـــاهدات « الدفاع المشترك » ، وقبول قوات دولية لحماية قناة السويس ٠٠ ولما كانت أمريكا هى أقوى هذه الدول ، فكان معنى ذلك ، استبدال الاستعمار الانجليزى بالاستعمار الامريكى ٠٠

ورفضت مصر الدفاع المشترك ٠٠

ان الماضى يتكرر بصورة جديدة ٠٠ فالاستعمار القـــديم كان يبدأ غزوه بالتجارة ، ثم تتقدم راية الدولة الاستعمارية ٠٠ لتفرض السيطرة السياسية والعسكرية ٠٠ واليوم ، تتقدم رءوس الاموال ثم تتبعها القواعد العسكرية والاحلاف ٠٠

وبدأ الغزو الامريكي للشرق الاوسط عندما نجحت الاحتكارات الامريكية فى السيطرة على الجزء الاكبر من انتاج البترول فى المنطقة ·· وأمريكا تستثمر ٣٠٪ من رءوس أموالها المصدرة الى الخارج فى البترول تعود بربح يبلغ ٥٠٪ من أرباح الاموال المستثمرة فى الخارج ، ولذلك تتمسك حكومة الرأسماليين الامريكيين بسيطرتهم على الشرق العربى ··

وكانت الاحتكارات الامريكية مطمئنة الى حراسة القوات البريطانية لأموالها فى الشرق العربى ·· ولكن حركات التحرر الوطنى ، وفشل العدوان الثلاثي الاول ، كشف ضعف الاستعمار القديم ·· وتقدمت أمريكا سافرة ·· وكان مشروع ايزنهاور الاول، ثم مشروع ايزنهاور الثانى ·· ثم ما سمى بالحلف الاسلامى ، كلها كانت محاولات لفرض السيطرة العسكرية والسياسية على شعوب الشرق الاوسط ··

وحاولت أمريكا حشد قواتها ، وقوات حلف الاطلنطى تهديد لسوريا عام ١٩٥٧ ·· فقام الاتحاد السوفيتى بأكبر عرض عسكرى ، كما أطلق القمر الصناعى الاول ·· وهدأت الحالة ··

وفى يوليو ١٩٥٨ ، على أثر ثورة العراق ، وسقوط حلف بغداد ، قامت أمريكا بعدوان مكشوف ، وأنزلت قوات عسكرية فى لبنان والاردن ·· وأعلن الاتحاد السوفيتى احتجاجه العنيف ··

وهنا لا بد أن نتساءل ·· هل السياسة الاستعمارية الامريكية ، ظاهرة طارئة ؟· وهل هى مجرد رغبة فى ملء جيوب بعض أصحاب الملايين بثروات الشعوب ؟·

ان الحقائق كلها ، تكشف أن الرأسمالية الأمريكية ، مثلها مثل الرأسمالية الانجليزية ، والرأسمالية الألمانية ، تجد نفسها مدفوعة

الى الغزو والسيطرة ، أمام الأزمات التى تواجهها فى الداخل ٠٠ وتحاول أن تحل هذه الأزمات على حساب الشعوب الاخرى ٠٠

ففى عام ١٩٤٩ ، بدأ النشاط الاقتصادى الذى سببته الحرب فى التقلص ٠٠ ودلت الاحصائيات الوسمية ، ان عدد العاطلين فى أمريكا ، كان يتردد بين مليون ونصف المليون من العاطلين و٣ ملايين خلال عام ١٩٤٩ ٠٠ وهبط متوسط أرباح الشركات الامريكية من ٦٣ مليار دولار الى ٢٧ مليار دولار ٠٠ وهبطت اسعار الانتاج الزراعى ١٢٪ كما بيعت الماشية بأسعار بخسة ٠٠ وهكذا واجهت أمريكا أزمة قريبة الشبه بازمة عام ١٩٣٠ ٠٠

والأزمات الرأسمالية تتصاعد ، لتأخذ أحد طريقين ٠٠ اما الاتجاه الى التسلح ، والبحث عن أسواق جديدة ، والحرب ٠٠ واما اجراء تغييرات اجتماعية جذرية فى الداخل ٠٠

وارتفع شعار الرأسماليين الأمريكيين « الحرب ولا الأزمة » ٠٠ وأصبحت الحرب ضرورة ٠٠ وأعلنت برامج المساعدات العسكرية ٠٠ وحاولت أمريكا حل أزمتها بالسير فى نفس الطريق الذى اختاره هتلر من قبل ٠٠ واتجه الرأسماليون الأمريكيون الى برامج التسلح ، وصناعات أسلحة التدمير ٠٠ واعلان التعبئة العسكرية ٠٠

وكان لابد من الاجابة على السؤال ٠٠ ماذا بعد توجيه الاقتصاد الامريكى الى « اقتصاد حربى » ؟ ٠

اشتعلت الحرب الكورية ٠٠ وظلت تتصاعد ٠٠ وحاولت العسكرية الأمريكية مد الحرب الى الصين ٠٠ ونادوا بعمل ستار ذرى بين الصين وكوريا ٠٠

ولكن أمريكا فى ذلك الوقت ، لم تكن وحدها التى تملك

القنبلة الذرية .. ان المعســــكر الاشـــتراكى يملك نفس القوة العسكرية ..

وانتهت الحرب فى « كوريا » ، بعد أن وصلت الى أحرج نقطة فى تاريخ البشرية ..

ولكن الحرب الكورية لم تكن الا وســيلة لحل الأزمة ، فأعلن مدير التجنيد الامريكى ، أن عقد هدنة فى كوريا ، لن يوقف برامج التسلح .. وأعلن فى عام ١٩٥١ :

« ان توقف القتال فى كوريا لن يؤدى الى أى تبدل أساسى فى ضرورة انشـــاء قوة للدفاع عن الحرية فى أى مكان فى العالم .. فتنفيذ برنامج السنوات الثلاث للدفاع ، ينبغى أن يســـتمر ، وسيستمر مهما حدث فى كوريا .. »

واستمر « برنامج التسلح » ، ولكن الرأسماليين الامريكيين عجزوا عن اشعال حرب عالمية .. واتجهوا الى الضغوط الاقتصادية .. وأعلنوا برامج «المساعدات الخارجية» و «المعونة» و «الاغاثة» ..

فماذا كانت نتيجة هذه البرامج ؟

منذ عام ١٩٥٠ حتى عام ١٩٥٩ ، وظفت الشركات الأمريكية ٤ر٥ مليار دولار فى البلدان النامية ، وحصلت على أرباح مقدارها ١٢ر٨ من مليار الدولار ..

ولو بقيت هذه الأرباح فى الدول النامية لاستطاعت أن تطور وتنمى اقتصادها ..

وفى البرازيل ، بلغت رءوس الأموال الأجنبية التى تستثمر فيها مليارا و٩٥ مليون دولار .. فى حين بلغت الارباح التى حصلت عليها مليارين و٢٠ مليون دولار .. وذلك فى الفترة ما بين عام ١٩٥٥ و١٩٥٨ .

وفى الميزانية التركية عام ١٩٦١ ، نجد المساعدة الامريكية ٥٥٠ مليون ليرة ، على حين خصص لتسديد الديون الأجنبية ٦٥٠ مليـــون ليرة ٠٠ وهكذا يكون المبلغ المخصص لتســـديد الديون الامريكية يزيد عن مقدار « المساعدة » ٠٠

وبلغت الأرباح الاجمالية للاحتكارات الامريكية فى أمريكـــا بين عامى ١٩٤٦ ، ١٩٥٩ على حسب التقـــارير الرسمية الامريكية حوالى ١٢٣٤ مليون دولار ٠٠

بل أكثر من ذلك ، نجد أن الغالبية العظمى للقروض الامريكية تصرف على استيراد السلع الاستهلاكية ٠٠

٠٠ والقرض الذى قدمته الرأســـمالية الأمريكية للهند ، اشترط شراء السلع الامريكية وحدها ٠٠ ونقلها على سفن أمريكية٠

وكان بديهيا أن تستيقظ الدول النامية ضد نهب ثرواتهـــا وأموالها ٠٠ وأن ترفض الأحـــلاف ومشروعات الدفاع المشترك ، والقواعد العسكرية ٠٠ وأن تضع حدودا للمعونات المشروطة ٠٠

وبدأت المقاومة ٠٠ واشتد جنون الرأسمالية الامريكية أمام أزماتها ٠٠ وأخذت فى اشعال حروب صغيرة ، مادامت عاجزة عن اشعال حرب عالمية ٠٠

وتعيش فيتنام الجنوبية اليوم أياما أتعس مما عاشتها أوروبا تحت نير الرأسمالية الألمانية النازية ٠٠

بدأت حرب فيتنـام ، عندما كشـــف شعب فيتنام خدعة المعونات الامريكية وتحركت قوى الشعب ، وشكلت جبهة وطنية ، لوضع حد للتدخل والسيطرة الاستعمارية الامريكية ٠٠

وكان الرئيس « نجودينه دييم » الذى جاءت به المخـابرات

الامريكية ، قد بدأ يثور ضد السيطرة الامريكية ، والفساد الذى نشرته فى فيتنام الجنوبية وهاجمت فوات « دييم » مراكز أندية القمار ، ومواخير تدخين الأفيون ، وأسواق بائعـــات الهوى ٠٠ وتدخلت أمريكا ضد هذه الاجراءات بحجه نشر الهدوء والسلام ٠٠

ولم تتردد أمريكا ٠٠ انها فرصتها ٠٠ فمن ناحية ، تستطيع أن تهدد الدول المتحررة حديثا ، بأن قواتها العســـكرية تستطيع اخماد حركات التحرر ومن ناحيه أخرى وجدت فى تصعيد حرب فيتنام حلا لمشكلة الاسلحة التى زاد تراكمها فى المصانع الامريكية٠

وكانت حرب فيتنام ٠٠ وانطلق عقل الرأسمالية الاستعمارية من عقاله ٠٠ فكان أشد هوسا وجنونا ووحشية من النازى ٠٠ ففى المحاكمة التى عقدها الفيلسوف الانجليزى برتراند راسل ، اتضح أن الأسلوب الذى تستعمله القوات الامريكية فى حرب فيتنام ، قد فاق جرائم النازى فى أوربا ٠

محيت قرى « شاوسون » و « كام » فى جنوب فيتنـــام فى يومى ٢ و٣ أغسطس عام ١٩٦٥ فى أثناء عملية لتنظيف المنطقـــه حول قاعدة « دانتج » الأمريكية ٠٠ وأعطى مشاة البحرية الأمر بحرق وتخريب كل شىء ، وقتل كل فرد ، فهرعوا الى المذبحـــــة صائحين ٠٠ « اقتلوهم جميعا ٠٠ » كما كانت صيحات الجنود ترتفع ٠٠ « أنا اليوم قاتل » ٠٠ ولم يدر الجندى الامريكى المسكين، أنه ليس قاتلا فحسب ، بل هو كلب من كلاب الصيد للرأسمالية الامريكية ٠٠

واكتشفت قوات جيش تحرير فيتنام الجنوبية ، فى أثناء حفرها الخنادق على جانب أحد التلال ، مقبرة غريبة ٠٠ اكتشفت بها ٢٢ هيكلا عظميا محتفظة بأوضاعها ساعة الوفاة ، راقدة أو واقفة أو ملتوية ، أو مكومة ٠٠ والذى أثار الفزع بصورة خاصة ، وجود

هيكل عظمى لشخص بالغ ممسك بهيكل آخر لطفل ٠٠ أم وطفلها قد دفنا أحيـــاء ٠٠ وعلى جانب آخر من التل وجدت حفرة أكبر تحتوى على ٨٢ هيكلا عظميا لشبان ، وأطفال واقفين أو راقدين فى غير نظام ٠٠ »

وأعلن قائد البوذيين فى جبهة التحرير الوطنى ، الكاهن ننج تيين هاو ، تقديراته عن خسائر الشعب الفيتنامى فى الحرب ٠

« ١٦٠ ألفا ماتوا حتى منتصف عام ١٩٦٣ و٧٠٠ ألف عذبوا واصيبوا بعاهات مستديمة و٤٠٠ ألف سجنوا و٣١ ألف حادثة اغتصاب و٣ آلاف شقت بطونهم وتم استئصال أكبادهم وهم أحياء و٤ آلاف احرقوا وهم أحياء وألف معبد دمرت ، و٤٦ قرية هوجمت بالكيماويات السامة و١٦ ألف معسكر اعتقال ٠٠ »

وقد ذكرت جريدة واشنطن ستار عن تقرير لوكالة أنبـــاء الاسوشيتدبرس فى ٢٢ مارس عام ١٩٦٤ ٠٠

« ان منظر الأطفـــال وهم نصف أحياء ، والنـــابالم يحرق اجسادهم هو شىء مثير للسخط عند الفيتنـــاميين والأمريكيين على السواء ٠٠ »

وهكذا تدرجت سياسة الرأسمالية الامريكية الى نفس القمة التى وصلت اليها الراسمالية الالمانية فى عهد النازى ٠٠

ورفضت ثورة ٢٣ يوليو السير فى ركاب السياسة الامريكية ٠٠ أو أن تفتح أبواب مصر للرأســـمالية الامريكية ٠٠ ورفضت مشروعات الدفاع ٠٠ ومشروعات ايزنهـــاور ٠٠ والمعـــونات المشروطة ٠٠

٠٠ حاولت أمريكا بالضغط ٠٠ والتهديد ٠٠ والارهاب ٠٠ والتآمر ، أن تفرض سيطرتها ٠٠

ففى عام ١٩٥٥ ، تحركت اسرائيل .. وردت ثورة ٢٣ يوليو بتحطيم احتكار السلاح .. وحصلت من الدول الاشتراكية ، على السلاح ..

وثارت أمريكا .. وأرسلت الحكومة الامريكية مستر جورج ألن برسالة خاصة الى القاهرة ، فيها اهانة للعزة المصرية .. وعندما عرف الرئيس جمال عبد الناصر مضمون الرسالة قبل أن تصله ، أعلن أنه سيطرد أى مندوب يحمل مثل هذه الرسالة ..

وبعد تأميم القناة ، سحبت أمريكا تمويلها للسد العالى .. وكان الرد قبول عرض الاتحاد السوفييتى ..

وحدث العدوان الثلاثى الأول ، الذى أيدته أمريكا قلبـــا وعارضته بالقول ..

ولأول مرة فى تاريخ الشــعوب ، تتحطم قوى العــدوان الاستعمارية .. وتفشل سياسة القوة .. وتنهار القوى العدوانية .. وسقطت الدعامة الاساسية التى قامت عليهــا السياســية الاستعمارية فى غزوها للشعوب .. فلم يعد الاستعمار يملك وحده أسلحة الدمار ، بل ظهرت قوى جديدة ، تنــاصر الشعوب .. وتعمل للسلام .. وتحارب طغيان الرأسمالية العالمية .

.. كانت معركة العدوان الثلاثى الأول ، نقطة تحول فى التاريخ ، حققتها ثورة ٢٣ يوليو .. وسيظل التاريخ لسنين طويلة قادمة يذكر معركة بورسعيد كبداية عصر جديد فى تاريخ كفــاح الشعوب ضد أعداء الانسان ..

وفى أعقاب معركة العدوان الثلاثى الأول ، ســقط حلف بغداد ٦٠ وتبخر مشروع ايزنهاور .. وكانت كلها خطوات انتصار ضد الاستعمار الامريكى ..

وانطلقت الشعوب تحقق انتصاراتها ‥ فى افريقيا ‥ وجنوب شرق آسيا ‥ فى كوبا ‥ والجزائر ‥ وغينيا ٠ وتنزانيا ‥ وسوريا ‥ والعراق ‥ والكونغو ‥ وباكستان ‥ انها الشعوب تنطلق نحو تحررها ‥ نحو الغد ‥

ان الرأسمالية العالمية التى تلقت هذه الضربات المتتالية لم تستسلم ‥ وغيرت أسلوبها ‥ وبدأت الثورة المضادة التى تقودها أمريكا ‥

ولكن أمريكا لم تعد وحدها التى تملك التفوق العسكرى والاقتصادى ‥

العالم الاشتراكى :

برز دور القوى الاشتراكية فى تدعيم النضال الوطنى خلال العدوان الثلاثى الأول ‥ ثم تأكد خلال العدوان الثلاثى الثانى ٠

والسؤال ‥ الى أى مدى تستطيع القوى الاشتراكية فى العالم مساندة الشعوب فى نضالها ضد الاستعمار العالمى ؟ ٠

ظلت القوى الاشتراكية فى العالم ، جماعات مبعثرة فى ألمانيا وفرنسا وانجلترا وأمريكا ‥ تواجه مع الجماهير الشعبيه ضراوة الرأسمالية العالمية ‥ وشهدت أوروبا خلال القرن التاسع عشر ثورات عنيفة ، يقودها الاشتراكيون ، ولكن هذه الثورات كانت تخمد بوحشية أمام فوهات المدافع ‥ وكان الاشتراكيون يواجهون مشانق الرأسماليين ، أو الاعدام بالرصاص فى الشوارع ‥

‥ وخلال الحرب العالمية الأولى ‥ فى عام ١٩١٧ نجحت أول ثورة اشتراكية فى العالم ، وأصبح للاشتراكيين دولة ، لها جيشها وقواها المناضلة ‥

واهتز الرأسماليون العالميون من هول الضربة ·· ان أكثر من ٢٠٠ مليون انسان يخرجون من قبضة العبودية الرأسمالية ، وينزعون عن أنفسهم قيود الاستغلال ·· ولم تعد روسيا التى تشغل سدس الكرة الأرضية ، سوقا لغزو البضائع الرأسمالية كما لم تعد مواردها نهبا للاستعمار ··

وما ان انتهت الحرب عام ١٩١٩ حتى قررت فرنسا وانجلترا وأمريكا ، التدخل بالسلاح للقضاء على الثورة الروسية ، على الرغم من أن ولسن رئيس الولايات المتحدة ، حذر فى احدى جلسات مؤتمر الصلح السرية فى باريس قائلا :

« فى الولايات المتحدة رجال من أفضل المواطنين ، ان لم يكونوا من أفضل المفكرين ، يشعرون بمودة نحو الاشتراكية ، لأنها تظهر لهم كنظام يفتح الامكانيات أمام الانسان ، ويرغبون هم انفسهم أن يصلوا اليه ·· »

ولكن الرأسمالية العالمية ، دبرت المؤامرات للقضاء على الرئيس ولسن وقتله ·· وما زال موت ولسن البطىء يدعو الى الشك ··

وفى صيف ١٩١٩ ، وبدون اعلان الحرب ، اجتاحت جيوش أربع عشرة دولة أراضى الاتحاد السوفيتى ، وهى بريطانيا ، وفرنسا ، وأمريكا ، وألمانيا ، وايطاليا ، واليابان ، وفنلندا ، ورومانيا ، والصين ، واليونان ، وبولندا ، وصربيا ، وتشيكوسلوفاكيا ··

واستمرت الحرب ثلاث سنوات قاسية ، قامت فيها قوات وضباط الجيوش الرأسمالية ، بأبشع ألوان التعذيب والقتل والنهب وحرق القرى ··

وفى ظل أقسى أنواع الكفاح والتضحية ·· فى ظل المجاعة ، والتخريب ·· والفقر ·· قامت الجيوش السوفيتية بصـــد هجوم قوى الرأسمالية العالمية ، وردتها على أعقابها ··

وتأكد وجود أول دولة اشتراكية فى العالم ··

بل أكثر من ذلك استطاعت الثورة السوفيتية أن تهـــز النظام الرأسمالى داخل بلاده ·· فقامت الجماهير فى ايطاليـــا وألمانيا والمجر بالثورة ضد الرأسمالية ··

ففى عام ١٩٢٠ ، قامت فى انجلترا حركة قوية تحت ستار « ارفعوا أيديكم عن روسيا السوفيتية » ·

وفى خريف ١٩٢٣ بدأت ثورة مسلحة فى ألمانيا ··

وفى نفس العام ١٩٢٣ ، قامت ثورات فى بولندا، والمجر ولكنها أخمدت بقسوة ..

واستمرت المؤامرات والدسائس ضد الاتحاد الســوفيتى حتى اشتعلت الحرب العالمية الثانية ، وقامت النازية أبشع نظم الراسمالية العالمية والمسلحة بأقوى وأحدث آلات الحرب الحديثة بالهجوم على الاتحاد السوفيتى ..

وانتهت الحرب العالمية الثانية .. وبدل أن تؤدى الى القضاء على اول دولة اشتراكية فى العالم ، حدث أضخم تغيير فى ميزان القوى العالمية .. وتكونت ثمانى جمهوريات اشتراكية فى أوروبا..

وفى أول اكتوبر عام ١٩٤٩ أعلنت جمهورية الصين الشعبية .. وانتصرت الاشتراكية فى اكبر دول العالم سكانا ..

خلال أقل من أربعين عاما ، نمت القوى الاشتراكية لتضـــم ٣٥٪ من سكان العالم ..

وبذلك ضاقت رقعة الأرض التى يتنازع عليها الرأسماليون العالميون من أجل توزيع منتجاتهم والحصول على المواد الخام ، واستغلال الأيدى العاملة بأرخص الأثمان ..

وتحرر ألف مليون انسان من ربقة العبودية الرأسمالية ، وبدأ انهيار النظام الراسمالى ..

ولكن أمريكا لم تنس خلال الحرب العالمية الثانية وهى تحارب قوى الفاشية والنازية أن تحالفها مع الاتحاد السوفيتى مؤقت ، وان صراعا جديدا ينتظرها بعد انتهاء الحرب .. وأن هذا الصراع سيكون أحد أطرافه الاتحاد السوفيتى ، والطرف الثانى أمريكا ..

وأرادت أمريكا ، أن تثبت تفوقها لارهاب الاتحاد السوفيتى، ففجرت قنبلتها الذرية فوق هيروشيما فى اللحظة التى كانت اليابان على وشك الاستسلام ..

وبعد الحرب مباشرة بدأ سباق التسلح والاعداد لحرب عالمية ضد الدول الاشتراكية .. وظهرت « سياسة التوازن على حافة الحرب » .. و « الحرب الباردة » ..

وأرادت أمريكا أن تستعيد سوق الصين الذى فقدته الرأسمالية العالمية .. فشنت حربها ضد جمهورية كوريا الاشتراكية ، ووصلت فى زحفها الى حدود الصين .. ولكن سرعان ما صدتهم القوات الصينية وردتهم الى أطراف كوريا الجنوبية .. واستمرت الحرب ثلاث سنوات لم تنجح فيها الراسمالية الأمريكية .. فى اخضاع الشعب الكورى .. بل كانت هزيمة منكرة للجيوش الأمريكية ..

وفى أكتوبر عام ١٩٥٧ أطلق الاتحاد السوفيتى أول قمر

صناعى .. تم أكد الاتحاد السوفيتى تفوقه بارسال أول صاروخ الى القمر .. وفى عام ١٩٦١ ، قام جاجارين بأول رحلة للانسان فى الفضاء الخارجى ..

وتأكد تفوق الاتحاد السوفيتى على أمريكا ..

وفى خلال الثورة الكوبية ، أعلن المسئولون الأمريكيون ، أنهم لن يسمحوا بقيام دولة اشتراكية فى نصف العالم الغربى .. وحاولت أمريكا القضاء على الثورة الكوبية ، ولكنها فشلت بعد تأييد الدول الاشتراكية للشعب الكوبى ..

وفى فيتنام ، ما زال الشعب الفيتنامى الذى لا يتجاوز تعداده أحد عشر مليونا فى الجنوب .. يحارب ببسالة قوى الرأسمالية العالمية بكل ما تملك من مال وسلاح ..

لقد انتهى تفوق الدول الاستعمارية الحربى . وفى نفس الوقت تنمو قوى النظام الاشتراكى فى العالم ..

المؤامرة

أدرك كنيدى خطورة الموقف العالمى .. وخطورة المأزق الذى تدفع الاحتكارات الاستعمارية الأمريكية العالم اليه .. وحاول تحديد أرباح أصحاب الملايين من احتكارات الصلب .. كما أراد أن يأخذ ببعض اتجاهات « العهد الجديد » الذى حاول روزفلت تطبيقه قبل الحرب .. ولكن الاحتكارات الأمريكية لم تمهله ، ودبرت جريمة قتله ..

وجاء جونسون .. ليبدأ عهد الحروب الصغيرة .. وظل يتصاعد بالحرب فى فيتنام .. وهاجم ثورة الدومنيكان بجيوش أمريكية .. وظل يعد المؤامرة لحرب الشرق الأوسط .. ضد حكوماتها الوطنية ..

وتحركت حاملات الطائرات الأمريكية الى شرق البحر الأبيض .. وأعلن أن ســفينة القيادة ، والطرادة « لنيل روك » المزودة بالصواريخ الموجهة ستتحرك الى عرض البحر ..

وأعلن المسئولون الأمريكيون أن قوة من مشاة الأســطول الأمريكى السادس مستعدة للقتال ..

كان كل شيء معدا لمؤامرة عدوان ثلاثية ثانية ضد الجمهورية العربية ..

وأعلن الاتحاد السوفيتي ، أنه سيقابل أى تدخل فى مشكلة الشرق الأوسط بعمل مماثل ..

ولكن العدوان الثلاثى الثانى ، كان مدبرا ، بخسة وتآمر قذر ..

وكما يقول « سعد زهران » فى مقاله الصادر بعد العدوان مباشرة :

« كشفت معارك ٥ ــ ٩ يونيه عن الأبعاد الحقيقية لعملية التكامل العسكرى الذى أحكمت خيوطها بين أداة الحرب الأمريكية واسرائيل ، ولعل القادة والخبراء العسكريين هم وحدهــم الذين يستطيعون شرح أبعاد هذه العملية ، واذا كان ثمة مفاجــأة فى حرب ١٩٦٧ فهى هذه ، وليست أن المعتدين وجهوا الينا الضربة الأولى ، فالضربة الأولى كانت متوقعة ، وكان سليما تماما ــ فى اطار الملابسات الســـياسية التى حكمت الموقف كله ــ الا تأتى الضربة الأولى من جانبنا ، غير أن الاســتراتيجية العامة لمواجهــة العدوان انبنت على تصور نوع من تكرار ما حدث عام ١٩٥٦ ، أى صدام مسلح بين قوات اسرائيل ــ كوحدة منفصلة ــ وبين قوات الجمهورية العربية المتحدة ، فاذا تدخلت القوات المسلحة للولايات

المتحدة ، يمكن أن تتدخل القوات المسلحة للاتحاد السوفيتي بنفس الدرجة لمواجهة العدوان ، والمفاجأة التى حدثت هي أن العدوان وقع على غير تلك الصورة . كانت عملية التكامل العسكرى الأمريكى ـ الاسرائيلى قد تمت قبل ٥ يونيو » ..

ثم يوضح ماحدث خلال المعركة العسكرية من تحركات عشرات القطع البحرية فى الأسطول السادس الأمريكى ، والأسطول البريطانى فى مياه البحرين الأحمر والأبيض ، ومشاركتهما فى العمليات الحربية من بعيد .. وتسخير شبكات الاستطلاع بالأقمار الصناعية ، وطائرات التجسس ، وسفن الاستخبار ، وأجهزة الرادار .. وخلق شبكة من الاتصالات السلكية واللاسلكية والألكترونية لتوصيل المعلومات لحظة بلحظة الى القوات المحاربة في الجبهة والى الطائرات المغيرة على أهدافها وهى فى طريق الذهاب والعودة ، والتشويش على شبكات اتصال الجانب العربى ، وتعطيلها والتدخل فيها لاصدار تعليمات وأوامر مربكة أو مضللة .. وسيل الامدادات ساعة بساعة من عشرات القواعد الأمريكية في ليبيا واليونان ومن فوق حاملات الطائرات ، وسفن النقل ، وعمل جسر جوى ، يصل بين منطقة العمليات ، وبين مصدر الامدادات فى هذه القواعد ..

كانت هذه هي المفاجأة في المعركة .. وعلى قدر ما فيها من مباغتة ، وتآمر اجرامى ، فانها كشفت للعالم العربي والعالم أجمع ، ان اسرائيل ، ليست دولة ، ولكنها ترسانة عسكرية للرأسمالية العالمية .. وهى قاعدة امامية للجيوش الأمريكية ، بل هى قوى الهجوم للاستعمار فى الشرق العربى ..

ان الرأسمالية العالمية تمول اسرائيل بالمال والسلاح والرجال .. فاشترت المتطوعين .. وسلحتهم باموال احتكارات

البترول والشركات العالمية التى تستنزف الأرباح من الشعوب العربية .

ان اسرائيل التى تتكون من مليونين ونصف المليون من السكان ، لا يمكن أن تشكل جيشا من مليون مجند ،والباقى مدنيون فى خدمة الجهاز العسكرى ..

ان اسرائيل بامكانياتها الاقتصادية المحدودة جغرافيا ، لا يمكن أن تملك هذه الترسانة من أداة الحرب الجهنمية ..

ان القوات الاسرائيلية ، ليست من خلق اسرائيل ، ولكنهم مرتزقة مغامرون ، تستأجرهم الامبريالية العالمية من كل أنحاء العالم ..

ان نفس الجنود والأسلحة التى تحارب ضد شعب فيتنام هم أنفسهم الذين ضربوا ثورة الكونغو ، وهم أيضا الذين تجمعوا على حدود اليمن ، وهم أيضا الذين حاربوا ويحاربون ضد الشعوب العربية .. وهم على استعداد للذهاب الى أى مكان تثور فيه الشعوب ضد جلاديها ومستغليها من الرأسماليين العالميين وشركات الاستعمار العالمى ..

وتأكد خلال العدوان الثلاثى الأخير ، ما أعلنه السناتور الأمريكى رايك ، رئيس لجنة الشئون الخارجية عام ١٩٥٣ فى مجلس الشيوخ الأمريكى من أن الولايات المتحدة الأمريكية تعتبر اسرائيل القاعدة الأساسية للشئون العسكرية فى الشرق الأوسط .

كما تأكد أيضا مانشرته صحيفة ها ارتس الاسرائيلية عام ١٩٦٢ ، أن زعماء اسرائيل ، ومعظم السكان فى اسرائيل يعتقدون أن الولايات المتحدة مسئولة عن اسرائيل حتى أصبحوا يؤمنون بأن اسرائيل ولاية أمريكية ، أو هى الولاية الحادية والخمسون من الولايات المتحدة الامريكية .

على هذا الاساس الجديد الذى ظهر بوضـــوح وتأكد خلال المؤامرة الاخيرة ، كان لابد من وضع أسس جديدة للتعاون بين الدول المتحررة الحديثة والدول الاشتراكية حتى يمكن مواجهة الثورة المضادة فى شكلها المفاجىء الجديد ٠

واجتمعت الدول الاشـــتراكية ، وأعلنت سـحب اعترافها باسرائيل ٠٠ وبدأ تعاون عسكرى واقتصادى لازالة آثار العدوان٠٠ وأعلنت الدول الاشتراكية أن وجود اسرائيل نفسه ، أصبح أمرا مشكوكا فيه ٠٠

ماذا تريد أمريكا ؟

والسؤال ٠٠ ماذا تريد أمريكا من وراء اسقاط الحكم الوطنى فى مصر وسوريا ٠٠ وضرب حركات التحرر فى الشرق العربى ؟ ٠

ان الاجابة على هذا الســـؤال تتطلب كشف آثار الاستعمار الأمريكى بالنسبة لكل فئة من فئـــات الشعب حتى يمكن توضيح أهداف أمريكا :

المظفون ٠٠

نشرت مجـلة « ريدرز دايجست » مقـــالا للكاتب الامريكى « ستروزير » ، يقول فيه : انه اذا كانت وزارة الخارجية الامريكية قد استخدمت عام ١٩٤٨ لشئون المساعدة ٨٥٠ موظفا ، فان هذا العدد تضاعف فى الوقت الحاضر الى ٤٢ ألف موظف ٠٠ ولكن الدوائر العليا فى أمريكا ترى أن عدد الموظفين الأمريكيين فى البلدان النامية لايزال قليلا ٠

وفى ايران يتكون جهاز « المساعدة الأمريكية » من عدة آلاف من الاخصائيين ، ويتناول المستشارون والخبراء الأمريكيون مرتبات

أسطورية تنهك خزانة الدولة .. فبينما يتقاضى الموظف الأمريكى في ايران مرتبا شهريا لا يقل عن ستة أو سبعة آلاف ريال ، نجد غالبية الموظفين الايرانيين لا تتجاوز مرتباتهم ٣٠٠ أو ٤٠٠ ريال .

ان نفس ماحدث بعد الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ يحدث اليوم فى كل بلد يطؤه التدخل الأمريكى .

الفلاحون ..

ونستطيع أن نتبين حال الفلاح في ظل السيطرة الامريكية ، من الواقع فى كوبا قبل ثورة كاسترو .. يقول بول سويزى الكاتب السياسى الأمريكى فى كتابه « ثورة كوبا » .

« بعثت أمريكا عام ١٩٢٠ خبراء سيطروا على الحكومة الكوبية التى لا تستطيع أن تسدد ديونها للبنوك ، واستحكمت القبضة الامريكية على كوبا .. وهكذا بعد أن كانت نسبة الانتاج من الملاك الأمريكيين ١٠٪ فى عام ١٨٩٦ ، أصبحت ٣٥٪ فى عام ١٩١٤ ، ثم ٦٣٪ فى عام ١٩٢٦ .»

ولم تكن قبضة الأمريكيين على السكر وحده بل كان على جميع الفروع الاخرى فى اقتصاد كوبا ، ففى عام ١٩٥٦ ، كان للأمريكيين ٩٠٪ من شركات التليفون والشئون الكهربية و ٥٠٪ من السكك الحديدية ، ٤٠٪ فى المواد الأولية لانتاج السكر .. »

ويقول الكاتب الأمريكى عن كوبا فى ظل السيطرة الامريكية قبل الثورة ..

« ان الحال في كوبا لم يكن موتا فحسب ، بل كان انتحارا ..»

وما حدث بالنسبة للفلاح في كوبا قبل ثورتها ، نجده اليوم في كل بلاد أمريكا اللاتينية التى تحكمها حكومات موالية أو خاضعة لسيطرة الرأسمالية الأمريكية . فالأرض فى أيدى الملاك الأمريكيين

.. والمحصولات خاضعة لأسعار السوق الرأسمالية التى تخفض ثمن المواد الخام ، وترفع ثمن البضائع الاستهلاكية .

وهكذا أيضا الحال فى ايران بعد سقوط مصدق .. وعودة الشاه .. عادت الأرض الى الاقطاعيين ، يعربدون ، ويستنزفون عرق ملايين الفلاحين فى الملذات والشهوات .

الرأسمالية الوطنية

وفى غانا على أثر الانقلاب المشئوم ، عادت الشركات الأجنبية الى ملكية الرأسمالية الاستعمارية .. وتدفقت البضائع الأجنبية .. وبدأت الصناعات الوطنية فى التقلص .. وأفلست المصانع الصغيرة أمام زحف الرأسمالية العالمية .. وشرد آلاف الموظفين والعمال الذين كانوا يعملون فى القطاع العام والقطاع الخاص .

وفى فيتنام الجنوبية انخفض الانتاج الصناعى الوطنى تحت السيطرة الامريكية الى ٥٠٪ .

وفى أمريكا اللاتينية تسيطر الشركات الاحتكارية الامريكية على فروع كاملة للانتاج الصناعى والزراعى على السواء ..

الجيش ..

جندت أمريكا ، جيوش كوريا الجنوبية ، والفلبين ، واستراليا ، وتركيا ، واليونان وقزفت بهم فى حربها ضد كوريا الشمالية عام ١٩٥٠ .

وفى الحرب الفيتنامية .. تتكرر نفس المأساة ، وتساق جيوش الدول التى خضعت للسيطرة الامريكية الى المجزرة .

العمال ..

حياتهم أسود من حياة الملونين داخل أمريكا .. ان حياة العامل فى الدول التى سيطرت عليها أمريكا ، لا تساوى أكثر من

طلقة رصاص .. فالعمال بالنسبة للرأسمالية العالمية هم وقود الثروة .. وكلما ازداد احتراق العمال داخل المصانع ، زادت دخول الرأسماليين العالميين ..

ان أسلوب الدعاية الامريكية لا يختلف كثيرا عن الأسلوب الذى مهدت به انجلترا لاحتلالها مصر .. فهى تتحدث عن « المساعدات » و « المعونات الاقتصادية » و « رفع مستوى الشعب » و « الاستقرار فى المنطقة » ..

وكما يقول فيتونى فى كتابه عن « البلدان المتخلفة وسياسة الغرب الاقتصادية » ..

« ان حكومة الولايات المتحدة تقدم الى أمريكا اللاتينية مساعدة ضئيلة . وفى الوقت نفسه فهى تبتز منها مليارين من الدولارات سنويا .. »

ان أهداف العدوان الأصلية ، هى ضرب الثورة العربية ، والاطاحة بقيادتها فى القاهرة ، ثم اسقاط بقية الحكومات العربية التقدمية ، لفتح العالم العربى أمام نفوذ الرأسمالية الامريكية الذى تتركز قاعدته الامامية اليوم فى اسرائيل ..

ان أمريكا تريد لاسرائيل ، أن تقوم بدور الرجل الأبيض فى منطقة يسكنها مائة مليون من الملونين العرب .. كما يراهم رأس المال الأمريكى ..

نتائج العدوان

كانت أهداف العدوان الجديد ، هى نفس أهداف الاحتلال البريطانى منذ أكثر من ٨٠ عاما .. ونسيت أمريكا أن العالم قد تغير .. وأن الشعوب أصبحت أكثر وعيا .. وأن قوى التحرر

فى صعود ‥ وأن الامبريالية العسكرية لم تعد القوة المسيطرة على العالم ‥

وفى مساء ٩ من يوليو عام ١٩٦٧ ، شهد العالم لحظات وقف فيها مبهور الأنفاس ‥ ولم تمض دقائق ، حتى اهتز العالم بأضخم تحركات شعبية ‥ فى لبنان ‥ والجزائر ‥ وسوريا ‥ والعراق والسودان ‥ وليبيا ‥ والأردن ‥ واليمن ‥ والجنوب العربى ‥ وتونس ‥ ومراكش ‥ العالم العربى كله يهدر فى صرخة واحدة ‥ « ناصر ‥ ناصر ‥ »

واعترفت دوائر الغرب الاستعمارية بأن « عبد الناصر » عاد أقوى مما كان فى أى وقت مضى ، وأنه أصبح قادرا من موقع القيادة على توجيه ضربات حاسمة ستؤدى فى النهاية الى تدمير الاستعمار ، وطرد الرأسمالية العالمية المستغلة من الشرق العربى كله ‥

وفشل الاستعمار الامريكى فى تحقيق هدفه الرئيسى من العدوان ، كما فشل من قبله الاستعمار الانجليزى فى عدوان ١٩٥٦ ‥

وكشفت المعركة عن الوجه الحقيقى لأمريكا ، كقوة عدوانية تمول المؤامرات والعدوان وتساهم فيه ضد الشعوب العربية ، وارتفع القناع عن الاستعمار الامريكى كعدو رئيسى للعرب فى معركتهم من أجل التحرر ، وطرد الصهيونية ‥

ودخل التضامن العربى مرحلة جديدة ، تقوم فيه الجماهير الواسعة بدور أساسى ‥ وتتكاتف فيه الحكومات الوطنية على أساس أكثر عمقا وترابطا ، لمواجهة العدو الذى كان يتسلل خفية ‥

وانتقلت المبادرة من يد الاستعمار الى يد الشعوب ‥

وأصبحت انجلترا وأمريكا فى موقف الدفاع عن مصالحهما بعد أن كانت تقوم بالهجوم على جبهات الشعوب العربية ..

كما ظهـرت قـدرات العالم العربى الاقتصـادية ، فان أرباح الشركات الامريكية والانجليزية التى بلغت أكثر من ١٨٫٠٠٠٫٠٠٠ مليون دولار خلال السنوات ١٩٥٠ ـ ١٩٦٤ ولم يدخل البلاد العربية منها سوى ١٣٫٠٠٠ مليون دولار ، هذه الثروة أصبحت اليوم تحت الدراسة لاعادة الحقوق الى الشـعوب العربية من أموالهـا المنهوبة ..

ومن خلال المعركة ، ظهرت أبعاد مؤامرة الرأسمالية العالمية فى زحفها لتطويق وضرب الحكومات والحركات الوطنية فى آسيا وافريقيا .. ثم ضرب الدول الاشتراكية واحدة بعد الأخرى فى أوروبا الشرقية .. ولكن هذه الأحلام كلها تبخرت .

ومن جـديد يرتفع المد الثورى العالمى ضـد الراسمالية العالمية ..

انها مرحلة انهيار النظام الاستعمارى .. انها نهاية نظام العبودية الراسمالية ..

انه الغد للشعوب .. انها الحياة للأجيال القادمة ..

انها المعركة الأخيرة ضد الاستغلال والاستعباد .. وبعدها يشرق السلام على العالم من أجل بسمة حلوة على شفاه أطفالنا ..

القاهرة ١٥ يوليو ١٩٦٧

فهرس

دار الكاتب العربى للطباعة والنشر